المملكة العربية السعودية
وزارة التعليم العالي
جامعة أم القرى
كلية اللغة العربية
قسم الدراسات العليا
شعبة الأدب

شعر الشكوى عند المتنبي

بحث مقدم لنيل درجة الماجستير في الأدب العربي

إعداد الطالب / أحمد عبد الرحمن حسين العرفج

إشراف الأستاذ الدكتور / عبد الله أحمد باقازي

بسم الله الرحمن الرحيم

وزارة التعليم العالي
جامعة أم القرى
كلية اللغة العربية

نموذج رقم (٨)

إجازة أطروحة علمية في صيغتها النهائية بعد إجراء التعديلات

الإسم (رباعي) : أحمد عبد الرحمن حسين المرمحي ، كلية : اللغة العربية ، قسم : الأدب .
الأطروحة مقدمة لنيل درجة : الماجستير في تخصص : الأدب
عنوان الأطروحة : شعر الشكوى عند المتنبي

الحمد لله رب العالمين والصلاة والسلام على أشرف الأنبياء والمرسلين وعلى آله وصحبه أجمعين ... وبعد :

فبناء على توصية اللجنة المكونة لمناقشة الأطروحة المذكورة أعلاه ، والتي تمت مناقشتها بتاريخ ٢٧/٢/١٤٣٠ هـ ، بقبولها بعد إجراء التعديلات المطلوبة ، وحيث قد تم عمل اللازم ، فإن اللجنة توصي بإجازتها في صيغتها النهائية المرفقة للدرجة العلمية المذكورة أعلاه ...

والله الموفق ،،،،

أعضاء اللجنة

المشرف	المناقش الداخلي	المناقش الخارجي
الإسم : أ. د. عبد الله أحمد باقازي	الإسم : د. محمد عبد الله الزايدي	الإسم : د. عبد الله أحمد العطاس
التوقيع :	التوقيع :	التوقيع : .....

يعتمد
رئيس قسم الدراسات العليا
الإسم : د / محسن العميري
التوقيع : .....

ملخص البحث

الحمد لله رب العالمين والصلاة والسلام على أشرف الأنبياء والمرسلين سيدنا محمد وعلى آلـــه وصحبـــه أجمعيـــن .

وبعد :

قد جاء هذا البحث مكون من ثلاثة فصول تسبقهم مقدمة وتمهيد .وقد ضم التمـــهيد ، الشـــكوى بمفهوميـــها اللغـــوي والاصطلاحي ، وتنامي الشكوى من خلال الزمان ، وقد أشار إلى ذلك تتبع البحث بلمحة عجلى إلى الشكوى في العصـــر الجاهلي ، والعصر الأموي والعصر العباسي ، ثم تناول البحث بشكل أكثر تفصيلاً الشكوى في القرن الرابـــع الـــهجري (عصر المتنبي) .ثم تناول التمهيد في طرفه الأخير حياة الشاعر ،اسماً ،ومولداً ،وحياة ،وشخصية وفقراً ، وثقافة حتـــى وفاته، وتبدو أهمية هذه الإلمامة لما لها من صلة قوية ورابطة متينة بشعر الشكوى .ودخل البحث في رصـــد حـــالات الشكوى مستفتحاً بحالات الشكوى العامة ، فتناول شكوى الزمان والفقر والناس والشعراء والأصدقاء،من خلال فصـــل البحث الأول.وجاء الفصل الثاني ، راصداً لحالات الشكوى الخاصة من خلال الشكوى من المـــوت والمـــرض والليـــل ، والهجر والشيب والغربة والسجن ، وانتهى بما يُوحي بالشكوى من خلال أبيات ومقطوعات تناثرت في أرجاء الديـــوان .وجاء الفصل الثالث كدراسة تطبيقية لما تمّ جمعه في البحث من خلال فصوله السابقة ، فتناول الشكوى وبناء القصيـــدة ، عبر بوابة اللغة الشعرية حيث جاء لغة الشكوى لغة في مجملها يسيرة سهلة لتأثر الشاعر بعمق الشكوى ، وجـــاءت دراسة التراكيب والأسلوب والمعجم شاهداً على هذا الاتجاه .أما الشق الثاني من الفصل الثالث فامتد ليصـــل الصـــورة الفنية ، التي اصطبغت بلون الحزن ، وتدثرت بلباس الألم ، كما كانت الإيقاعات الشعرية متنوعة وثرة بثراء الشـــكوى واتجاهاتها .أما الوحدة الموضوعية فلم تكن بارزة بروز الوحدة النفسية حيث لم تنفرد الشكوى بقصائد خاصة بها بـــل جاءت متوغلة في أغلب قصائد الديوان . والعمل الأدبي صورة صادقة لحالة مبدعه فرحاً وترحاً ، حباً وكرهـــاً ، لمـــا يحمله من شحنات نفسية ، وحمولات دلالية ، تعطي الصورة الواضحة لخفايا حالت الإنسان الشعورية ، التـــي يحـــاول أحياناً سترها بصور أخرى ، لا تزيدها الأيام إلا زوالا !!لذا كانت دراسة الشكوى عند المتنبي من الأمور ، التي شـــغلت الذهني منذ زمن ، والسبب يرجع إلى ما تنادى به المتذوقون لشعر المتنبي من أن الرجل مثالاً للفخر ، والقوة والشـــجاعة ، حين لم يستقر في أذهانهم إلا قوله :

الخيل والليل والبيداء تعرفني **** والسيف والرمح والقرطاس والقلم

وأخذ هذا (التنادي) يستقر في الأذهان ، وينتشر بين طلاب الأدب ، فضلاً عن المتخصصين فيه .

غير أن الدارس لشعر المتنبي يقف على إتجاهات كثيرة ، تصب في ميدان الشكوى !! وهنا نعرف مقدار الخلـــل الـــذي وقع فيه متذوقو شعر المتنبي والشكوى في الشعر العربي غرض قائم بذاته ، وفن مهم من فنون الشعر العربي قديمـــاً وحديثاً ، لأنه يرتبط بالنفس البشرية ، يعكس انكساراتها وانحناءاتها على مر العصور ، وزيادة على ذلك هـــو " هـــم إنساني مستقر في داخل كل مستخلف في الأرض . لذا لم يكن هذا الفن الأصيل ، والهم الثقيل غريباً على شاعر بحجـــم إحساس المتنبي ، وشعوره وشفافيته . لعل هذه الدراسة وقفت على جوانب مخفية وزوايا منزوية ، في حياة المتنبـــي حين نعتبر أن الشكوى أوضح صورة لحياة الإنسان بما يكتنفها من مكابدة ومصارعة .وقد خرج البحث بمجموعة نتـــائج ، لعل من أبرزها .

* بروز الشكوى بشكل جلي ، يلمسه كل من يقرأ ديوان المتنبي وقد أدرك المتنبي ذلك حتى أنه تمنى على نفسه أن ينجز قصيدة خالية من هذا (الغرض) حين صرخ :

ألا ليت شعري ، هل أقول قصيدة *** فلا أشتكي فيها ، ولا أتعتبُ !!؟

*أن الشاعر يكشف في شعره عن شخصية يملؤها الاعتزاز بالذات وهذا ما توحي به قصائد المتنبي ، ولكن الشكوى و ما تعبر عنه من شعور بالضعف والإنكسار تتناقض مع ذلك ، وهذه إحدى مفارقات البحث التي تدعو للتوقف أمامها !!

*إن الشكوى لم تكن موضوعاً مستقلاً ، بحيث تأتي من خلال قصيدة كاملة ، ولكن إذ تجاوزنا قصيدة أو قصيدتين فإنالشكوى منتشرة هنا وهناك بشكل يشي بسيطرتها على عطاءات الشاعر ، وتوغلها في نفسه ، مما يؤكد تفاعل الشكوى مع كل أغراض الشعر عند المتنبي .

* تفاعل المتنبي مع قصائد العصر ، وأحوال الزمان ، فكان في شكواه ملحاحاً على إبراز الهم العام ، والهم الخاص ، من خلال حالات الشكوى التي رصدها البحث .

*ومن خلال مطالع القصائد التي كتبها المتنبي ، أخذت الشكوى والصراخ حيزاً كبيراً من مطالع القصائد ، وقد رصد البحث كثيراً من هذه المطالع !! والله ولي التوفيق ،،،،

الطالب : أحمد عبد الرحمن حسين العرفج

المشرف : أ.د . عبد الله أحمد باقازي

عميد كلية اللغة العربية

د . صالح جمال بدوي

المقدمة

الحمد لله رب العالمين والصلاة والسلام على سيد المرسلين سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم وعلى آله أجمعين .

وبعد ..

اتسم الشعر العربي عبر عصوره المختلفة ، بتعدد أغراضه المتنوعة ، وتباين اتجاهاته مما عكس على هذا الأدب روح الحيوية والامتداد حتى يوم الناس هذا .

لذا ظل الأدب العربي القديم قبلة الباحثين ووجهة الدارسين ، ومن هنا كانت هذه الدراسة التي أرجو أن تكون بمستوى التطلعات .

وقد دأبت الدراسات الأدبية ، والأطروحات النقدية على استقصاء أغراض شعرية ، وموضوعات أدبية ، أصبحت في واجهة الحركة الشعرية ، حين حظيت بكثير عناية وكثير اهتمام من حصة الدارسين .

ولكن تبقى في باحة الأدب زوايا مجهولة ، وأغراض مختفية ،على الرغم من ظهور آثارها في النص الأدبي .

ومن هنا كانت هذه الدراسة بعد الاتفاق مع المشرف ، واتفقنا على أن تكون { شعر الشكوى عند المتنبي } .

ودراسة من هذه الفئة تتجه مباشرة إلى (النص) ،لأنه منبثق الضوء ، الذي ينير طريق الدراسة ، ويرشد الدارس إلى شعاع السبيل .

يضاف إلى هذا أن الشاعر المتنبي يُعتبر من أبرز الأسماء الشعرية، ليس في القرن الرابع فقط، بل في ديوان الشعر العربي بكل عصوره.

ويمكن أن نقول إن الشكوى عند المتنبي ليست بذلك الوضوح بحيث تشكّل هماً وغرضاً يحفر في عطاءات المتنبي الشعرية.

ويضاف إلي هذا كله أن الدراسات [الكثيرة] التي أنجزت عن المتنبي ليس فيها ما يشير إلى ظاهرة الشكوى عند المتنبي كظاهرة ملحة وبارزة بحيث تُفرد بدراسة مستقلة.

هذا وغيره دفعني إلى الشروع في هذا الموضوع متمنياً من الله التوفيق والسداد.

وقد جاء البحث في ثلاثة فصول قبلها مقدمة وتمهيد ...

وضم التمهيد الشكوى مفهوماً ودلالة ، ومكانتها في الشعر العربي قبل المتنبي وظهورها كغرض من أغراض الشعر القليلة التي تبرز هنا وهناك عند كل شاعر بمقدار قلّ أو كثر.

ثم تعرض التمهيد إلى المتنبي مولداً وحياة وموتاً وشعراً .

وجاء الفصل الأول رصداً لحالات الشكوى العامة ، مشتملاً على الشكوى من الواقع المحيط، ومن الزمان والفقر والناس والشعراء .. وغير ذلك من اتجاهاتها .

أما الفصل الثاني فتناول حالات الشكوى الخاصة ضاماً الشكوى من الموت والمرض والليل والهجر والشيب والمكان وغير ذلك من اتجاهات الشكوى الخاصة .

وفي الفصل الثالث جاءت الشكوى وأثرها في بناء القصيدة من خلال اللغة الشعرية،وبروز المعجم الشعري وشكل التراكيب ، وتكوين الصور ، وحجم الإيقاع ، و وضوح الوحدة الموضوعية واختفائها . وبعد : هذا لابد لي في مقام الشكر من إرجاع الفضل لأهله مزجياً الشكر لجامعة أم القرى ممثلة بمديرها معالي الدكتور / سهيل قاضي ، هذه الجامعة التي صقلت أدواتي المعرفية ، وأذكت فيّ روح العلم .

كما أشكر عمادة الدراسات العليا بالجامعة ممثلة بسعادة الدكتور / أحمد الحمد

ومادمت في مقام الشكر ، كان لزاماً عليّ أن أشكر كلية اللغة العربية بالجامعة ممثلة بعميدها السابق سعادة الدكتور / حسن باجودة ،

وعميدها الحالي سعادة الدكتور / صالح بدوي ، كما أشكر قسم الدراسات العليا بالجامعة ممثلاً برئيسه سعادة الدكتور / محسن العميري وإذا كان هذا البحث حليفاً للتوفيق ورفيقاً

للنجاح،فما ذاك – بعد فضل الله – إلا بفضل سعادة الاستاذ المشرف الدكتور/عبدالله أحمد باقازي ، الذي كان كريماً في صبره ، وسخياً في وقته ، وصادقاً في توجهه .. فجزاه الله عني خير الجزاء.

بقي في النهاية أن أعترف أن هذا البحث يضل – ككل عمل إنساني – قابلاً للزيادة ، معرضاً للنقصان ، ولم يكن هدف هذا البحث الاستقصاء والجمع وإغلاق الطرق أمام الأخرين ، بل هو إضاءة متواضعة في طريق الأدب العربي عامة ، وشعر المتنبي خاصة .. والله الموفق إلى سواء السبيل .

التمهيد

التمهيد :

أ- الشكوى في الشعر العربي .

١- مفهوم الشكوى.

٢-الشكوى قبل القرن الرابع .

أ- العصر الجاهلي.

ب- العصر الأموي.

ج- العصر العباسي.

٣-الشكوى في القرن الرابع .
(عصر المتنبي)

ب- المتنبي شاعراً .

١-اسمه ومولده .

٢-شخصيته .

٣-فقره .

٤-ثقافته .

٥-شاعريته .

٦-وفاته .

مدخل :

الشكوى حالة شعورية ، تقوم على وجع داخلي يلمُّ بالمرء خلال موقف يستوجب التعب والصراخ ، والضعف و أحياناً البكاء .

والشكوى تصدر من متوجع يجد نفسه أمام أتعاب أو عذابات أو جراح ، أو ظلم ،أو أسقام لا يملك لها رداً إلا اللغة فيذهب إلى ألفاظها معبراً عن دواخل نفسه ، وأنين شكواه .

قال تعالى على لسان يعقوب عليه السلام" قَالَ إِنَّمَا أَشْكُو بَثِّي وَحُزْنِي إِلَى اللَّهِ وَأَعْلَمُ مِنَ اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ [1]

فالحزن والشكوى والبثُّ حالات من حالات الإنسان تتكون بتأثيرات داخلية أو خارجية لترسم الضعف والإنكسار ، الذي يعتري المرء طالما أنه يحيا على هذه الأرض .

---

[1] الآية ٨٦ سورة يوسف.

أ – مفهوم الشكوى :

الإنسان خلق في كبد ، وهو ليس في حالة واحدة مستقرة ، بل ينتابه الألم والمرض والظلم ، لذا كانت الشكوى هي الثوب الذي يضم أوجاع المرء وأحزانه .

لذا صارت الشكوى عاطفة ، قوامها الإحساس بالظلم أو الحرمان ،عاكسة لروح المرء الحزينة والمتألمة والمحبطة ، التي ينتابها الضعف والإنكسار .

إن الحرمان والتعب والظلم كلما عصفت بالمرء زادته حسرة وشكوى ، " ونتيجة لما أحدثته الأيام ، فما عاد للسعادة طعم عند الناس حتى وإن عرفوا الاستقرار في يوم من الأيام " [١]

ولعل الشكوى من أصدق الفنون الشعرية التي تعبر عن حالة الإنسان الضعيفة والمتعبة ، لذا تعكس - صراحة – واقع المرء ومعاشه ، وتفصح عن أشجانه وآلامه كمعطىً للتناقض أو الحزن أو الإنكسار الذي يواجهه خلال سيره في مناكب الأرض .

وهو بطريقة أخرى صدى لضعف الإنسان وعجزه أمام طاقة قوية لا يقدر على الصبر عليها فضلاً عن ردها .

وباعث الشكوى إضافة لما سبق ، ربما يكون إحساس الإنسان بالعجز عن الوصول ،أو تحقيق ما يطمح إليه ،أو ما يستحقه على أحسن الأحوال . لذا تصبح الشكوى متنفسه الوحيد ،ونافذته إلى البوح الخارجي العاكس للألم الداخلي " فالشكوى تخفف الهم وتزيل الألم " [٢]

وغني عن القول أن الشكوى تختلف عن المدح والفخر ، وباقي أغراض الشعر العربي ، لأنها خالية من الافتعال ،وتأتي مجردة من التصنع ،والتكلف ،بل إنها فوق ذلك تأتي ضّاجة بالمعاناة وممزوجة بالحزن وممتلئة بالصدق والتعبير الحقيقي عن العواطف المشحونة بالتعب .

ونادراً ما تأتي الشكوى باردة فاترة متكلفة ،بل إنه" لا بد أن يتوافر في التجربة صدق الوجدان فيعبر الشاعر فيها عمّا يجده في نفسه ويؤمن به " [٣]

---

[١] م "الشكوى من العلة في أدب الأندلسيين" د/عبد الله بن علي ثقفان/مكتبة لتوبة / الرياض/ الطبعة الأوللى ١٤١٧هـ ص. ٦.

[٢] م "محاضرات الأدباء" الراغب الأصبهاني، المجلد الأول ص. ٢/٤٣٨.

[٣] م "النقد الأدبي الحديث" د/محمد غنيمي هلال، ص. ٣٦٦.

ويتميز شعر الشكوى أنه يمتلك خاصية " الصدق"، يشاركه في ذلك شعر الرثاء، " لأنه يصدر عن مؤثر داخلي عميق باللوعة والفقد ، فليس هناك حوافز خارجية تدعمه مثل شعر – المديح مثلاً – " [1] يضاف إلى ذلك أن الشكوى تنفجر في الشاعر نفسه لقربها من محيطه و وجدانه لتأتي محملة بالمعاناة ، التي يشعر بها ، ويلمسها ، وأحياناً ينصهر في أتونها وبقدر المعاناة يكون الصدق شامخـاً في التجربة وبارزاً في الألم ، لذا كان " أقدر الناس تعبيراً عن الشقاء ،من كان الشقاء في نفسه ، وأقدرهم تعبيراً عن الغضب من استطاع أن يملأ بالغضب قلبه "[2] والشكوى مفردة تمثل الألم والحزن والتوجع ، كمـا يشير إلى ذلك جذر المادة " شكا " وذكر اللسان أن " الاشتكاء : إظهار ما بك من مكروهٍ أو مرضٍ ونحوه " ، وقال : " الشكاية والشكية إظهارُ ما يصِفُك به غيرُك من المكروه " ، و " أشكيتُ فلاناً إذا فعلتُ به فعلاً أحوجه إلى أن يشكوك " و " يُشاكي الرجلُ أميره هو فاعلٌت من الشكوى ، وهو أن تخبر من مكروه أصابك " و " قال الفراء أشكى إذا صادفَ حَبيبه يشكو،وروى بعضهم قولَ ذي الرُّمة يصف الربع و وقوفه عليه :

وأشكيه ، حتى كاد مما أبثه
تكلمني أحجاره وملاعبُه

قالوا معنى أشكيه أي أبثه شكواي وما أكابدُه من الشوق إلى الظاعنين عن الربع "[3]

ومن تقليب كل الدلالات اللغوية للكلمة يتضح أنها تُصاحب معنى التوجع والألم والتعب والمرض وتصب في دائرة الحرمان والشقاء والإحباط والضعف .

ومن غير الشعر يجسد هذه المعاناة الدائمة بين الإنسان وأهدافه ،فالشعر مجال فسيح للتعبير عن الرغبات والإنكسارات والأماني لأنه " فيض تلقائي لمشاعر قوية " [4]

والشاكي في أعمق تجربته يبتغي الوسيلة النبيلة ،والهدف الأسمى ،بأثواب شفافة تلمح وتصرح وتوضح ولا تفصح ،لأن يشع بضيائه على المناطق المظلمة في مساحة المد الاجتماعي ، مركزاً على اضـطراب

---

[1] م "رثاء النفس في الشعر العربي" د/ عبد الله أحمد باقازي/ دار الفيصلية ص. ٣٧٣.

[2] م "فن الشعر" لأرسطو / ترجمة وشرح وتحقيق عبد الرحمن بدوي ص. ٤٨.

(٣) م "لسان العرب" لابن منظور ـــ مادة شكا ـــ ص. ١٤/١٣٩/ دار الفكر/ الطبعة الأولى ١٤١٠هـــ بيروت.

[4] م "نظرية الأدب ومناهج الدراسات الأدبية" د/ عبد المنعم إسماعيل/ مكتبة الفلاح/ الكويت/ الطبعة الأولى ١٤٠١ هـــ، ص. ٢١٨

الثوابت ، لأن الأدب رحب " كرحابة الحياة الإنسانية بما تحفل به من صراع وتضارب،من تناقضات تنشأ عن الصراع بين رغبة الذات وبين شعورها بالمسئولية وما يستقر في أعـماق هذه الـذات من دروب والتواء وتعقيد "[1]

ومن هنا تكون الشكوى إضاءة في اتجاهين ، أحدهما تعبير عن أنين داخلي متأجج في ذات معذبة منثورة على حروف ظمأى ، والآخر انعكاس لواقع مرير ، ومجتمع مُحيط ، وأحـداث ومواقف ، تثـير الألـم ، وتذكي الوجع ، فالشاكي هنا يتجرد من وجعه ليصور وجع الآخرين في عمـلية كبرى هي الواقع المحيط الذي يموج بالتناقضات المختلفة ، وحينها يصبح الشاعر الشاكي ، مفـرداً يصوغه الجمع ،وما شكواه إلا أصوات فردية من أجل المجموع الغائب صوته الحاضر في ألمه .

---

[1] م " حول الأديب والواقع" د/ عبد المحسن طه بدر/ دار المعارف/ الطبعة الثانية، ص. ١٨.

ب – الشكوى قبل القرن الرابع الهجري:

مدخل :

ينطلق الشعر العربي من حقول مختلفة ،وتتجاذبه فنون شتى ،ليصب في قوالب منها المدح،ومنها الفخر ، ومنها الغزل ، ومنها الرثاء ، ومنها الشكوى .

والشكوى مصاحبة للإنسان منذ وجد وسار على الأرض منتثراً في مشارقها ومغاربها ،ضارباً في مناكبها لذا يمكن أن يكون فن الشكوى من فنون الشعر العربي ، التي ظهرت والإنسان في وقت واحد .

وقد ارتبط بالشعراء خاصة ،وصوّر انفعالاتهم ،وعواطفهم وجراحهم ومواقفهم إزاء كل خلل يصيب الحياة السياسية أو الاجتماعية ، أو يصيب الذات الشاكية .

إن الوجع والسخط والألم إفرازات دائمة،لذا كان ظهورها في كل عصر أمر من البروز بمكان وإن كانت تختلف باختلاف معطيات العصر السياسية والاجتماعية وحتى الاقتصادية ، مما يصاحبه اختلاف كذلك في المعنى والمبنى .

١– العصر الجاهلي :

لم يكن شعر الشكوى في هذا العصر يبرز كاتجاه منفرد ،بمعزل عن الفنون الأخرى، ولم يكن يحمل دلالة تمثل ظاهرة منفصلة عن باقي مجالات المعنى في القصيدة ، بل كان يأتي مصاحباً لغيره، من رثاء وفخر ومديح ، وتكاد الشكوى تظهر بشكل يسير ،وإن كانت متأصلة في فن قول الشعر " وقد ذكر امرؤالقيس سلفاً له في الشكوى والبكاء على الأطلال ، يدعى : ابن جذام " [1] حيث قال أمرؤ القيس:

عوجا على الطلل المحيل لأننا
نبكي الدّيار كما بكى ابنُ حِذَام

ولو حاولنا التماس سبب لوجود الشكوى في القصيدة على هذا النحو من القلة،لأرجعناه إلى طبيعة الإنسان العربي الذي يحبذ الصبر ، ويميل إلى ستر ضعفه ، وكأن الشكوى تمثل له شيئاً من مظاهر الخنوع والضعف والإنكسار .

وكل ما وُجد من شعر يدل على الشكوى في صفحات الأدب الجاهلي مرده إلى ساعة ضعف تمر على المرء يجد نفسه أمامها مضطراً للبوح ولو على سبيل التخفيف والمواساة .

إن الإحساس العميق بالألم أو الضعف أو الظلم يخرج الإنسان عن صمته ، وهذا ما حدث مع الشاعر

---

[1] م " تاريخ الأدب العربي " كارل بروكلمان ، ترجمة د/عبد الحليم النجار /دار المعارف / الطبعة الخامسة القاهرة صـ ١/٦٠ .

الجاهلي الذي وجد نفسه إزاء حياة لا يملك معها إلا البوح والبثّ ،فهو مثلما مدح وافتخر ووصف واستعلى " فإنه قد تظلم حينما شعر بالظلم ، وشكا حينما أحسّ بالحيف " [١].

والشاعر الجاهلي في شكواه ، بل في كل أشعاره ينطلق من صدق التجربة ، والإخلاص لفنه ، وذلك " لإبتعاد الجاهلي عن المبالغات المفرطة التي يلفظها الحسّ الصادق والابتعاد عن التكلف الثقيل على النفس والتصنع المنفر للحسّ والمبعد عن الطبع "[٢]

وهو حين يشكو لا يتجاوز واقعه المعُاش ،مرتكزاً على مواصفات يدركها وتجارب عاشها،وما كان الشعر الجاهلي بكل ما يحفل به من قيم فنية ، ومعايير اجتماعية ،ومظاهر سلبية إلا " تصويراً مخلصاً وفيا لبيئة الجاهليين وحياتهم ونفسياتهم بكل ما كان فيها من محاسن ومساوئ وكل ما حددها من حدود مادية فكرية واجتماعية "[٣]

أما موضوعات الشكوى في الشعر الجاهلي فيأتي في مقدمتها شكوى الزمان " فما من أديب ولا عالم قال الشعر إلا وشكا من سوء حظه وعتب على الزمان وأنحى على الدهر بالذم "[٤]

كما يأتي شكوى القريب وسوء الحال والشيب والحبيبة بدرجات متفاوتة ،وكمثال على الشكوى من القريب يقول طرفة بن العبد :

وظلم ذوي القربى أشد مضاضة
على المرء من وقع الحسام المهند [٥]

كما أن شكوى الدهر ، أخذت حيزاً كبيراً من صفحات الأدب الجاهلي ، وما ذلك إلا لأن الشاعر الجاهلي وجد نفسه أمام سر الحياة والموت ، دون أن يعرف المغزى منهما ،نظراً للعقيدة الفاسدة التي يعتنقها ،

---

[١] م " الشكوى في الشعر الجاهلي " د/قحطان رشيد التميمي / مجلة كلية الآداب /بغداد العدد ١٣ /١٩٧٠م صـ١٤٠ .

[٢] م " الجانب الخلقي في الشعر الجاهلي " د/زهدي صبري الخواجا / دار الناصر /الرياض / الطبعة الأولى ١٤٠٤هـ صـ٣٧ .

[٣] م "الشعر الجاهلي منهج في دراسته وتقويمه" د/ محمد النويهي، الدار القومية للطباعة والنشر، بدون تاريخ، ص. ٣٧.

[٤] م " مجلة المنار " الشعر في شكوى الزمان / العدد رقم ٤١ تاريخ ١٣١٦ / صـ٨١٦ .

[٥] ديوان طرفة بن العبد، تحقيق سيف الدين الكاتب، ص. ٢٥، دار مكتبة الحياة ـ بيروت ـ "بدون تاريخ".

والتي وصفها القرآن الكريم بقوله عز وجل" وَقَالُوا مَا هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا الدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا يُهْلِكُنَا إِلَّا الدَّهْرُ وَمَا لَهُم بِذَٰلِكَ مِنْ عِلْمٍ إِنْ هُمْ إِلَّا يَظُنُّونَ ﴿٢٤﴾ "(١)

فالشاعر الجاهلي يعتمد في شكوى الزمن على النظرة التي تؤدي إلى تفسير خاطئ للموت والحياة ، فالجاهليون " رسموا الزمن في أذهانهم قوة قادرة على الإهلاك "(٢)

ولعل أبرز صورة لما يصدر معاناة الشاعر الجاهلي من الدهر ، ومن الأيام ،بل وحتى أهل الزمان،وأقارب الشاعر الذي تحولوا عنه ، لعل أبرز هذه الصورة ما قاله عنترة بن شداد :

أَعَاتِبُ دَهْراً لاَ يَلِينُ لِعَاتِبِ
وَأَطْلُبُ أَمْناً مِنْ صُرُوفِ النَّوَائِبِ
وَتُوعِدُنِي الأَيَّامُ وَعْداً تَغُرُّنِي
وَأَعْلَمُ حَقاً أَنَّهُ وَعْدُ كَاذِبِ
خَدَمْتُ أُنَاساً ، اتَّخَذْتُ أَقَارِباً
لِعَوْنِي ، وَلَكِنْ أَصْبَحُوا كَالْعَقَارِبِ (٣)

والشعر الجاهلي كان وثيقة،عن حياة أهله ،وحالتهم النفسية ،والاجتماعية، لذا أنحوا باللائمة على الزمان في كل ما يعتريهم من أحداث ومواقف " فالشعر الجاهلي في مجمله هو تعبير عن عواطف صادقة "(٤)

---

(١) الآية ٢٤ سورة الجاثية.

(٢) م "الزمن عند شعراء العرب قبل الإسلام" عبد الإله الصائغ/ وزارة الثقافة والإعلام، مطابع دار الشئون الثقافية العامة، ١٩٨٦م ص. ١٣٠.

(٣) م "شرح ديوان عنترة بن شداد"/ تحقيق بدر الدين حاضري ومحمد حمامي/ دار الشرق العربي/ بيروت/ الطبعة الأولى ١٤١٢هـ، ص. ١٣٠.

(٤) م "الجانب الخلقي في الشعر الجاهلي" د/ زهدي صبري الخوجا، ص. ٣٧.

٢- عصر صدر الإسلام ، والعصر الأموي :

جاء الإسلام ، وجاءت معه معالم الإصلاح ، وترتيب حياة البشر ، ولم يهتم الإسلام بالعقيدة فحسب،ولم يخاطب القرآن الكريم المسلمين بإخلاص الدين والخلوص من الشرك فقط ، " بل رسم لهم أيضاً طريق الفضيلة وما ينبغي أن يتحلوا به في سلوكهم وأخلاقهم ،حتى ينالوا رضا ربهم ومحبته "[١]

وبمجيء الإسلام نهض العرب لإعتناق الدين ، ليرتفعوا إلى الحياة السعيدة ، التي كفلها لهم الإسلام ،الذي " يرفع من شأن المسلم اجتماعياً وعقلياً وروحياً ، وهو ارتفاع من شأنه أن يسمو بإنسانيته "[٢]

إنه مثال ناضج ، رسمه الإسلام لسمو البشرية ، إذ أقر مبدأ العدالة الإجتماعية ،حين " أخذ الإسلام يُرسي القواعد الاجتماعية لهذه الأمة،بحيث تكون أمة مثالية يتعاون أفرادها على الخير آمرين بالمعروف وناهين عن المنكر ، يسودهم البر والتعاطف ، حتى لكأنهم أسرة واحدة مُحيت بين أفرادها كل الفوارق القبلية والجنسية "[٣]

لم يسع الشعر إلا أن ينساح في الإسلام وتعاليمه ، ونبله ، وعدالته ، لذا جاءت قصائد الشعراء واضحة بأثرها بالقرآن الكريم ، ومستجيبة لبلاغة الحديث النبوي الشريف .

غير أنه أصاب الشعر في هذه الفترة بعض الركود والفتور،لإنشغال الناس ببلاغة القرآن الكريم وفصاحة السنة المطهرة ، ولقد حدد القرآن الكريم موقفه من الشعراء ، وكأنه يوجه الشعر و الشعراء إلى توظيف هذا المعطى الفكري في سبيل مناصرة الدعوة ومعاضدتها ،

قال تعالى " أَلَمْ تَرَ أَنَّهُمْ فِي كُلِّ وَادٍ يَهِيمُونَ ﴿٢٢٥﴾ وَأَنَّهُمْ يَقُولُونَ مَا لَا يَفْعَلُونَ ﴿٢٢٦﴾ إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَذَكَرُوا اللَّهَ كَثِيرًا وَانْتَصَرُوا مِنْ بَعْدِ مَا ظُلِمُوا وَسَيَعْلَمُ الَّذِينَ ظَلَمُوا أَيَّ مُنْقَلَبٍ يَنْقَلِبُونَ ﴿٢٢٧﴾ "(٤)

---

(١) م " تاريخ الأدب العربي – العصر الإسلامي " د/شوقي ضيف / دار المعارف /مصر /الطبعة السابعة بدون تاريخ صـ١٤ .

(٢) م المصدر السابق، ص. ٢٢.

(٣) المصدر نفسه، ص. ١٩.

(٤) آية ٢٢٥ – ٢٢٧ من سورة الشعراء.

وببزوغ فجر الإسلام ، الذي جاء بنظم إنسانية ، وتعاليم سماوية ، ونهضة فكرية، تصدت لجاهلية الفكر، وعبثية الحياة ، وتخلف المجتمع ، كانت النقلة في المجتمع بمقدار ما كان يعاني من أعباء ومصاعب، فغير المجتمع ، ونهض بأفكاره وتعامله ، وسلوكه ،بل حتى بألفاظه ،ومعانيه ، وكان الشعر أكثر الفنون الأدبية استجابة " ولا غرابة في ذلك لأن الشعر هو التعبير عن مشاعرالناس والتجسيد لأفكارهم ،وقد تمثل تأثير الإسلام في كل الفنون الشعرية التي كانت تسود عصر صدر الإسلام والدولة الأموية وفي خصائص الشعرالفنية من حيث الألفاظ والمعاني والأفكار والصور والأخيلة "[1] وتمثلت إستجابة الشعراء من خلال ألفاظ الشعر ومعانيه،حين استعاضوا عن الألفاظ الجافة والمعاني اليابسة ،التي حفل بها العصر الجاهلي،والتي أملتها عليهم الصحراء وقسوة الحياة الصحراوية ، بألفاظ رقيقة ،وكلام واضح وأسلوب سهل ، كل ذلك كان لما " ضرب الإسلام بجرانه ، واتسعت ممالك العرب ، وكثرت الحواضر ونزعت البوادي إلى القرى وفشا التأدب والتظرف واختار الناس من الكلام ألينه وأسهله ،وعمدوا إلى كل شيءٍ ذي أسماء كثيرة اختاروا أحسنها سمعاً وألطفها من القلب موقعاً "[2]

ونظرة إلى شعر الشكوى في هذه المرحلة تعطينا مقدار التأثر الذي أحدثه الدين في المعاني والألفاظ ،حين نهى الإسلام عن الفواحش وزور القول ، ولحنه ، والبعد عن السباب والإلحاد والكذب والدجل ، نلمح ذلك من أشعار تلك الفترة ، فنجد التأثر جلياً واضحاً .. يقول الشاعر

عمرو بن أحمر الباهلي-حين مرضه :

إليك إله الحق أرفع رغبتي
عياذاً وخوفاً أن تُطيل ضمانيا[3]
فإن كان بُرءاً ، فاجعلْ البرُء نعمةً
وإن كان فيضاً ،فاقضْ ما أنت قاضيا[4]

---

[1] م " الإسلام والشعر " د/سامي مكي العاني /المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب / الكويت / مطابع الرسالة / الكويت ١٩٨٣ صـ٥ .

[2] م " الوساطة بين المتنبي وخصومه " للقاضي علي بن عبد العزيز الجرجاني ، تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم وعلي محمد البجاوي ، منشورات المكتبة العصرية / صيدا بيروت – بدون تاريخ صـ١٨ .

[3] الضمان: ما يصيب الإنسان في جسده من مرض أو زمانه راجع اللسان/ مادة ضمن ص. ١٣/٢٦٠.

[4] م "تاريخ الأدب العربي"/ العصر الإسلامي/ د/شوقي ضيف، ص. ٧٥.

وتحول مسار الشكوى في هذا العصر إلى مجالات هي أقرب إلى الدين الإسلامي ، والإيمان به حين اتجه بعض الشعراء إلى الله عز وجل في شكواهم ،لأن الدين علمهم أن الشكوى لا تكون إلا لله سبحانه وتعالى وحتى إذا كان الشاعر بصدد الشكوى من حبيبته،فهو لا ينسى أن الشكوى لله وحده ، يقول جميل بثينة:

إلى الله أشكو ، لا إلى الناس حبّها
ولابّد من شكوى حبيب يروّع
ألا تتـــقيّن الله فـــيمن قتـــلته
فأمسى إليكم خـــاشـــعاً يتـــضرع[1]

وامتد الدين الإسلامي ليصبغ بتصوره للحياة والموت معاني الشعراء،حين أزاح عنهاالمعتقدات الجاهلية وقلب المفهوم الخاطئ الذي كان يسيطر عليهم ، وإن الدهر يملك قوة خارقة،وهو الذي يُهلك ويُفنـــي ، رسم الإسلام صورة نقية واضحة،ترتقي بالفرد المسلم فيما يخص الحياة والموت ومن بعدهما البعـــث والحساب والجنة والنار .

واتضح ذلك من خلال شعر الرثاء ، فهذا أحد الشعراء يرثي فقيده ،بعد أن أيقـــن أن الله هو الذي يصرّف الأمر ، وبيده المحيي والممات يقول :

إلى الله أشكو لا إلى الناس فقده
ولوعة حزن أوجع القلب داخله[2]

" إن الشعر بصوره العديدة الجوانب يكون تعبيراً صادق الإحـــساس ، عميق الدلالة على كل ما يجري في المجتمع ، ومن ثم يتأثر الشعر نشاطاً وكسلاً واندفاعاً وتراخياً ورقة وخشونة ورفقة وضِعة بما يجري في مجتمعه "[3]من هنا برزت شكوى جديدة في هذا العصر تمثلت في الحنين إلى الوطن والأهل،الشكوى من الغربة ،وابتعاد المسلمين ،الذين ذهبوا للجهاد،وقاموا بالفتوحات الإسلامية في مشارق الأرض ومغاربها ،

---

[1] م "شرح ديوان جميل بثينة" شرح وتقديم/ مهدي محمد ناصر الدين/ دار الكتب العلمية ـــ بيروت/ ط١/ ١٤٠٧هـــ.

[2] هو المشمردل ابن الشريك اليربوعي من شعراء العصر الأموي/ م/ ترجمته في الأغاني تحقيق إبراهيم الآبياري ١٣/٤٨٦٣ وشعره في المصدر نفسه ص. ١٣/٤٨٦٥.

[3] م "رحلة الشعر من الأموية إلى العباسية" د/ مصطفى الشكعة، عالم الكتب/ بيروت ١٩٧٩ ص. ٢٣.

وذلك تلبية واستجابة لدعوة الجهاد ، ونشر الدين الإسلامي ، يقول مـــالك ابن الريب التميمي حين حانت وفاته ، مشفقاً على أهله :

وبالرمل منا نسوة لو شهد ننـي
بكين ، وفدين الطبيب المداويا
فمنهن أمي وابنتاها وخالتي
وباكية أخرى تهيج البـــواكيـــا (١)

كما كان هناك شكوى أخرى تتمثل بالشكوى من والولاة،والعمال القائمين على الأمصار حين أخذ الشعراء يرفعون شكواهم إلى الخلفاء ، عندما لحقتهم الإساءة والظلم و الجور من بعض الولاة،وما يصاحب ذلك من الحيف ، وأخذ أموال الآخرين ، والشعراء في شكواهم من هـــذا الظـــلم إنما يتكئون على " روح الإسلام وتعاليمه التي تؤكد الأمانة ، وتحث على النزاهة وعفة اليد واللسان " (٢)

ولعل خير من يجسد هذه الشكوى ، ويعبر عنها " الراعي النميري " (٣)حين رفـــع شكـــواه إلى الخليفة/عبد الملك بن مروان ، موضحاً فيها إجحاف الضرائب ، وقسوة الجباة ، وظلم السعاة ،مما زاد مـــن فقر قومه ، قال :

أبلغْ أمير المؤمنين رسالة
شكوى إليك مظلة وعويـــلا
من نازح كثرتْ إليك همومه
لو يستطيع إلى اللقاء سبيلا (٤)

---

١ – م "رثاء النفس في الشعر العربي " د/ عبد الله باقازي / المكتبة الفيصلية /مكة المكرمة صـــ٨٦ /وهو مالك بن الريب التميمي / شاعر إسلامي – أديب ظريف ، نشأ في بادية تميم بالبصرة – كان لصا ثم تنسك واشترك في جيش سعيد بن عثمان بن عفان ، يقال أنه لدغته أفعى ، فلما أحس بالموت / انظر " رثاء النفس في الشعر العربي " د/ عبد الله باقازي /صـــ ٨٣ ، وكتاب " الإختيارين " ضعة الأخفش الأصغر / تحقيق د/فخرالدين قبادة / الطبعة الثانية / مؤسسة الرسالة /١٤٠٤/صـــ٦٢٠ .

٢ – م " الإسلام والشعر " د/سامي مكي صـــ١٠٥ .

٣ – هو محمد بن عبدالله بن نمير بن خرشفة الثقفي النميري ، من شعراء العصر الأموي مات في نحو ٩٠هـــ ،انظر سيرته في الأعلام للزركلي / الطبعة الثالثة / بدون تاريخ صـــ٧/٨٩.

٤ –م " شعر الراعي النميري " تحقيق د/نوري حمودي القيسي ، وهلال ناجي ، مطبعة المجمع العراقي سنة ١٤٠٠ صـــ٥٤ .

ثم يحدد الشكوى بقوله :

إن السعاة عصوك حين بعثتهم
وأتوا دواعي لو علمت وغولا (١)
إن الذين أمرتـــهم أن يـــعدلوا
لم يفعلوا ممـــا أمـــرت فـــتيلا (٢)

ويظهر أثر الإسلام ، حين يواصل شكواه ، طالباً من الخليفة رفع الظلم ، يقول :

أوليّ أمر الله إنّا معشر
حنفاء نسجد بكرة وأصيلا
عرب نرى الله في أموالنا
حق الزكـــاة منزّلا تنزيلا
فادفع مظالم عيّلت أبناءنا
عنا ، وانقذ شلونا المأكولا (٣)

من هنا نلحظ أن الشعر جاء موافقاً ،للمستجدات والمتغيرات التي تلّون العصر بها،بعد أن جدّد الإسلام دماء الناس ، وطهّر نفوسهم ، وهذب أخلاقهم ، فاتجه الشعر لطريق الاستقامة و الخير والمعروف .

كما جاءت قصائد الشعراء نابضة بحياة الناس،ومنبثقة من همومهم،وكأن قصائد الشعراء هموم ومعاناة الناس ،وأتعاب العصر الذي يعيشون فيه حين أخذوا " يعرضون فيها على مسامع أولى الأمر ما يشـــكو الناس منه ، لعلّهم يعملون على إصلاحه " (٤) كل ذلك كان استجابة سريعة من الشعراء"على نحو ما تصوّر ذلك شكوى الراعي التي وجّه بها إلى عبد الملك بن مروان" (٥)

١-الغول / المشقة والخيانة / راجع " لسان العرب لابن منظور " / مادة (غول) صـــ٥٠٩ /١١ .

١- م " شعر الراعي النميري " صـــ٦١ .

٣-المصدر السابق صـــ٥٧ .

٤-م "حياة الشعر في الكوفة إلى نهاية القرن الثاني للهجرة "د/يوسف خليف،دار الكاتب العربي للطباعة والنشر/ القاهرة/١٣٨٨هـــ صـــ٤٩٣.

٥-م " تاريخ الأدب العربي / العصر الإسلامي " د/ شوقي ضيف صـــ٢٠٩ .

٣- العصر العباسي :

حفل هذا العصر بمتغيرات كثيرة ، على صُعدٍ مختلفة مما أضفى على الحياة عامة ، الأدب خاصة لوناً من التنوع ، نتيجة للفتوحات وامتزاج الثقافات،وحركة الترجمة غير أن الجانب ،الذي يتعلق بالثورات ، كان من أبرز ما يمكن أن يميز العصر العباسي ، ومن قبله الأموي فالرافضون للواقع المعاش يضج بهم المكان ، لكن القائمين على الأمر استطاعوا " أن يكبحوا جماح الثائرين ،خائضين إلى ذلك بحاراً من الدماء ، متخذين من القضاء على كل ثائر وأنصاره نكالاً مَنْ يحاول الثورة على نظمهم السياسية والاجتماعية " (١) ولم يسع هذه الاضطرابات ، التي شملت مناحي الحياة بعامة إلا أن تلقي بظلالها على الشعر إن في جانب الثورات أو في جانب الانفتاح والتطور الفكري ، والتشرب من حضارات الأمم الأخرى ،على نحو ما حصل من حركة للترجمة في الفلسفة والفلك والرياضيات والآداب التي تنتجها الشعوب الأخرى .

لذا كان واضحاً ،مقدار تأثر الشعر والشعراء بالثقافات المجاورة،ويكفي على ذلك أن المستقرئ هذا العصر " يقطع بأنه لا يوجد شاعر في العصر إلا وقد أذعن للثقافات المتنوعة،واتخذ منها غذاءاً لعقله وقلبه وكأن شاعراً لا يستطيع منها فكاكاً ولا خلاصا " (٢)

بدأت الشكوى تأخذ بالاتساع كاستجابة لمعطيات العصر،واتسعت معانيها وتجددت ألفاظها،وأخذت مقطوعات الشكوى وقصائدها تستقل بمفردها لتأتي قصيدة شكوى،لا تضم معها غرضاً آخر .

بل حتى موضوعات الشكوى ، ضمت إلى جانب موضوعاتها القديمة ، موضوعات أخرى جديدة أملتها الحياة المعاصرة ، ومعاناتها ، حين وجدت في العصر مناطق وآفاقاً جديدة لنشوء شكوى مغايرة ولكن بقيت شكوى الزمان ، وأهله ، وسوء الحال ،وسخط الإنسان وفقره هي الطابع العام ، لتدخل عليها شكوى

١- م " تاريخ الأدب العربي / العصر العباسي الأول " د/شوقي ضيف / دار المعارف / القاهرة / الطبعة الثامنة صـ٩ .

٢- م " تاريخ الأدب العربي / العصر العباسي الثاني " د/شوقي ضيف / دار المعارف / القاهرة ١٩٨٦ / الطبعة السادسة صـ١٩٥ .

الطبيعة ، والمكان، والتشاكي مع الأخوان موضوعات جاءت مع هذا العصـــر ،ولعـــل أبا تمـــام والبحتري وابن المعتز وابن الـــرومي خير من يمثل هذه الموضوعات .

وانبثق مع هذا العصر استخدام الصنعة اللفظية ، والإسراف في استعمال البديع ، وارتكز على الجمع بين التأمل والعمق والاستنتاج والتكلف ، وقد يميل في بعض نواحيه إلى الرمز والفلسفة وهذه تتفاوت من شاعر لآخر ، وهذا كله من أثر الانفتاح الذي حصل والحضارة الجديدة التي مازجت شعر هذا العصر ،وقد ظهرت جلية في شعر الشكوى ،ولعل قول دعبل الخزاعي،حين اشتكى من قلة الناس وكثرتهم تمثل الاتكاء على النظرة الفلسفية والتلاعب اللفظي ، يقول :

ما أكثر الـــناس ، لا بـــل ما أقلـــهم
والله يـــعلم أني لـــم أقل فندا
إني لأفـــتح عـــيني حـــين أفتـــحها
على كثير ، ولكن لا أرى أحدا (١)

إن الشاعر هنا حين يفتح عينه لا يرى أحداً ، رغم وجود الناس أمامه ، وعن يمينه وشماله ، ولكن نظراً لأن ظن الشاعر خاب فيهم ، فهم كُثر وقلائل !!

ومثل هذه الشكوى تعطي صورة واضحة عن الثقافة الجديدة ، وتلاقح جلي من الحضارات الأخرى .

وتبعاً لمستجدات العصر،أخذ تيار الشكوى يتنامى بشكل تدريجي مستجيباً والحالة العامة لوضع الشعراء ومجتمعهم .

وبحـــلول العصر العباسي الثاني ، – أي العصر الذي عاش فيه المتنبي – وهو ما يوافق الـــقرن الرابع ، تطورت الشكوى ، وتعددت ، وتوســـعت ، لذا يقول شوقي ضيف " وشاعت مع الفخر الشكوى من الدهر ومن الناس ،وهي شكوى قديمة ،غير أنها اتسعت في هذا العصر سعة شديدة،لما شاع فيه من كثرة البؤس والضنك في حياة الشعب،فضلاً عن الشعراء" (٢)وقد شعر الكثير من الشعراء بالظلم ، خاصة أولئك الذين نالوا حظاً كبيراً من العلم ، في مجتمع لم يقـــدر مثل هذه المواهب ، وقد ظهرت هذه الشكوى بشكل

١–م " ديوان دعبل الخزاعي " تحقيق وجمع د/ محمد يوسف نجم ، نشر دار الثقافة / بيروت / ١٩٦٢ صـــ٥٧ .و الفند : الكذب

٢–م " تاريخ الأدب العربي / عصر الدول والإمارات " د/شوقي ضيف / دار المعارف / القاهرة / الطبعة الثانية صـــ٥٩٦/ ٥٩٧ .

كبير في هذا العصر ، " يصور ذلك من بعض الوجوه عبد القاهر الجرجاني صاحب كتابي دلائل الإعجاز وأسرار البلاغة،وهما أروع ما صُنّف في البيان العربي وكان مقصد الطلاب في عصره من كل فجّ ، ومع ذلك يرى عشرات من دونه يعلونه في نعيم الحياة مخلّفين له البؤس والشظف ،مما جعله يهتف بمثل قوله:

هذا زمان ليس فيـــ ـــه سوى النذالة والجهالة

لـــم يَرْقَ فيه صاعدٌ إلا وســـلّمـــه الـــنـــذالة (١)

وكان لانتشار الفقر الشديد ، والبؤس المدقع ، إفرازاته حيث وجد اللصوص بشكل ظاهر ، وأضحى قطاع الطرق ينتشرون في أماكن متعددة ، طلباً للقمة العيش ، ومحاربة للفقر ، وكأن الأمر بعيداً عن حالة الفقر الظاهرة ، وسوء الحالة الاقتصادية .

"وقد تتحول الشكوى من الزمان وأهله إلى ضرب من التشاؤم الشديد فالزمان كله بؤس وتعاسة والناس ليس فيهم فاضل ولا كريم،بل كلهم أخسّاء أنذال،حتى ليقول الفضل بن إسماعيل التميمي الجرجاني :

ما في زمانك ماجـدٌ
لو قد تأمّلت الشواهدْ
فاشهد بصدق مقالتي
أولا فكذّبني بواحـدْ (٢)

وقد تخلل هذا العصر انقسام الدولة الإسلامية إلى دويلات هنا وهناك ، مما زاد الكوارث والفقر والـــتسلط والظلم ، وقد ارتفع صوت الشكوى معبراً عن مظاهر الفساد والفقر وسوء المعيشة والشعراء – بطبيعة الحال – كانوا " أسرع الناس تعبيراً عمّا يعتمل في نفوسهم ، وفـــي نفوس الآخرين من الألم والشعور المحض " (٣)

١–م " تاريخ الأدب العربي / عصر الدول والإمارات " د/شوقي ضيف صـــ٥٩٧ .

٢–نفسه صـــ٥٩٧ .

٣–م " اتجاهات الهجاء في القرن الثالث الهجري " قحطان رشيد التميمي /دار المسيرة /بيروت (بدون تاريخ) صـــ١٥٦ .

المتنبي شاعراً :

أولاً : اسمه ومولده :

"هو أحمد ابن الحسين بن الحسن بن عبد الصمد الجعفي الكندي الكوفي ولد بالكوفة سنة ثلاث وثلاثمائة في محلة تسمى كندة ، فنسب إليها ،وليس هو من كندة التي هي قبيلة ،بل هو جعف القبيلة – بضم الجيم وسكون العين – وهي جعفي بن سعد العشيرة بن مذحج – واسمه مالك – بن أدد بن زيد بن يشجب ابن عريب بن زيد بن كهلان ، نشأ بالكوفة " (١) غير أن الغموض يكتنف قبيلة المتنبي ، وقد قال " أنا رجل أخبط القبائل ، وأطوى البوادي وحدي ، ومتى انتسيتُ لم آمن أن يأخذني بعض العرب بطائلة بينه وبين القبائل التي انتسبت إليها .وما دمتُ غير منتسب إلى أحد فأنا أسلم من جميعهم ويخافون لساني " (٢) ويؤكد المتنبي نفسه – شعراً – ذلك بقوله :

لا بقومي شرفتُ بل شرفوا
بي وبنفسي فخرتُ لا بجدودي (٣)

ويؤكد عن طريق آخر ، بقوله :

ولست بقانع من كل فضلٍ
بأن أعزى إلى جدّ هُمام (٤)

أما والد أبي الطيب المتنبي ، فقد كان سقاءً بالكوفة ، " وإلى هذا أشار بعض الشعراء في هجو المتنبي حيث قال :

أيُّ فضل لـــشاعرٍ يطلب الفضل
من النـــاس بكـــرة وعشيّا
عاش حيناً يبيع في الكوفة الماءَ (م)
وحينـــاً يبـــيع مـــاء المُحيا (٥)

١–م " ديوان المتنبي " وضعه عبد الرحمن البرقوقي / دار الكتاب العربي / بيروت ١٤٠٧هـ صـ١/٣ .

٢–م " المتنبي مالئ الدنيا وشاغل الناس " د/ محمد التونجي / عالم الكتب /١٤١٣هـ / الطبعة الثانية صـ١٧ .

٣–م " ديوان المتنبي " صـ٤٦ / ٢ .

٤–المصدر السابق صـ٢٧٥ /٤ .

٥–شرح ديوان المتنبي صـ١/٣ .

و ولادة المتنبي كانت في عصر ، عمت فيه الفوضى ، والاضطرابات السياسية ، ويكفي هنا أن طه حسين يقول : "ولد المتنبي في بيئة كان الدم يصبغها من حين إلى حين.كان الدم يصبغها ثم لا يكاد يجف حتى يسفك دم آخر . ولم يكن الدم وحده يصبغها،وإنما كان يصبغها صبغ آخر ليس أقل نكـــراً من سفك الدم ، هو النـــهب والسلب ، واستباحة الأعراض وانتهاك الحرمات ، ولاستخفاف بقوانين الخلق والدين " (١)

أما كنيته ،فهي " أبو الطيب " ،و "تقف حائرين أمام كنيته . لماذا كُني " بأبي الطيب " ؟ ومن هو " الطيب" هذا ؟ لم يكن اسم أبيه ولا جده طبعاً ، أكان صفة لأحدهما ؟ ولماذا لم يكنَّ باسم ابنه " المحسَّد " ؟ . ربما كان " الطيب " أخا المحسَّد الأكبر ، وربما صفة أطلقت على الشاعر" (٢)

ثانياً : شخصيته :

يعطي الديوان الشعري لأي شاعر صورة مشرقة ، لمكونات هذه الشخصية ، ومستوياتها وآمالها ،وطموحها ، ويأسها ، وكـــأن الديوان سيرة شعرية لصاحبه ، بحيث يضم معالم شخصية صاحبه "وهذه الشخصية ظاهرة في شعر المتنبي كله في حكمته وتشاؤمه ونعني بها شخصية الطامع المغامر المعتد بنفسه : فهو يتغزل كما يفخر ويصف ويشكو أو يتهكم " (٣) والمتنبي في أطوار حياته ملازمٌ للطموح ، فهو الذي عايَشَ وعاصَرَ وعايَنَ الأحداث والأزمات " فشخصيته المتفردة كان القلق ميزة من ميزاتها . فقد نشأ وهو يحمل أزمات عصره وأحداثه ، وظل القلق لديه يكبر كلما كبر،ويتسع كلما اتسعت حياته ، ولازمه وكأنه جزءاً من طبيعته حتى آخر أيامه " (٤)

هذا القلق جعله في حل وارتحال ، ولعل ديوانه يحفل بالشواهد التي تعضد هذا الحزن ، وذاك القلق ،اللذان يصرآن على التنقل والرحيل ،وتحثان الشاعر على تجاوز ما يسكنه من إخفاق وإحباط (٥)

١-م " مع المتنبي " د/ طه حسين / دار المعارف / الطبعة الثانية عشر صـــ١/٣٢ .

٢-م " المتنبي مالئ الدنيا وشاغل الناس " د/ محمد التونجي صـــ١٨ .

٣-م " مجلة الهلال " المجلد العاشر /جمادى الأولى سنة١٣٥٤ / مقال بقلم / عباس محمود العقاد صـــ١١٢٤ .

٤-راجع " أبو الطيب المتنبي وظواهر التمرد في شعره " د/زهدي غازي زاهد /عالم الكتب / بيروت / الطبعة الأولى ١٤٠٦هـــ صـــ٣٦ .

٥-الإحباط " احبط فلان عمل فلان أبطله ، وجعله يحقق ،ويذهب سدى ،ويرادفه الخيبة والإخفاق ويقوم الإحباط على حرمان المرء التمتع بنتائج عمله ، أو على صده عما يؤمل الحصول عليه ،أو يتوقعه " راجع " المعجم الفلسفي " د/جميل صليبا /دار الكتاب اللبناني/بيروت/١٩٨٢صـــ١/٤١

قال المتنبي :

كأن الحزن مشغوف بقلبي
فساعة هجرها يجد الوصالا
كذا الدنيا على من كان قبلي
صروف لم يدمن عليه حالا
أشد الغم عندي في ســـرور
تيقن عنه صاحبه انتقـــالا
ألفت ترحلي ،وجعلت أرضي
قتودي والغريريَّ الجُلالا
فما حاولت في أرض مقاما
ولا أزمعت عن أرض زوالا
على قلق ،كأن الريح تحتي
أوجهـــها جـــنوباً أو شـــمالا (١)

إن الهم الذي سيطر على شخصية المتنبي " وكـــان من همومه المبكرة همّ العيش ، ولعل هذا الهم وهو شيءٌ أساسي في حياة شاعر مرهف يحب الحياة ، أن يكون مصدراً ذا شأن للهجة الشكوى وذم الزمان التي طبعت بها أوائل أشعاره " (٢) ، وقد نص المتنبي على أهمية المال بقوله:

فلا مجد في الدنيا لمن قلَّ مالهُ
ولا مالَ في الدنيا لمن قلَّ مجده (٣)

إن المال والمجد قواما حياة المتنبي ، لهما يناضل ، وحولهما يدور ،في سبيلهما تحولت حياته إلى صراع طويل مع الزمان والمكان،لذا أصبحت الحياة لديه جزء من معركة حفلت بهاأشعاره " وبعض القطرات من خضّم حياته المضطربة الهائجة التي لم تهدأ إلا بالموت " (٤)

١–م " ديوان المتنبي " صـــ٣٤٠ – ٣٤١ / ٣ .

٢–م " موجز ديوان المتنبي " شرح اليازجي ،اختصره سليمان العيسى /دار طلاس /دمشق /بدون تاريخ صـــ٢٠ / ٢١ .

٣–م " ديوان المتنبي " صـــ٢/١٢٣ .

٤–م " قصة المتنبي " أحمد الجندي / دار طلاس /دمشق ١٩٨٣ /صـــ١١.

وجدير بالملاحظة أن الناس اختلفوا " في أمر أخلاق المتنبي قديماً وحديثاً ، فمنهم من يعتبره قوال فضائل فعال رذائل ، ومنهم من يراه قؤولاً لما قال الكرام فعولاً " (١)

وشعره ، حافل بالمطامح البعيدة ، وحماسه المتقد ، ورغبته القوية في الوجاهة وجمع المال ، قال في صباه-معبراً – عن آماله وطموحه :

أين فضلي إذا قنعت من الدهـ
ـر بعـيش معـجل التنكـيد
ضاق صدري وطال في طلب الرزق
" م "
قيـامي ،وقـل عنه قعودي
أبداً أقـطع البـلاد ، ونجمـي
في نحوس ، وهمتي في سعودْ
عش عزيزاً أو مت وأنت كريم
بين طعن القنا وخفق البـنود
لا كما قد حييت غير حميـد
وإذا مـت مـت غـير فقيـد (٢)

وشخصية المتنبي ، قد لا تكون واضحة مثلما هي جلية في شعره ، وهذا قد يكون أصح الطرق للباحث، حين يتلمس شخصية الشاعر من خلال نصوصه،لذا تبدو شخصية المتنبي مليئة بالأمل – في صباه وشبابه – يقول منددا بمن لا يعرفون قيمته الحقيقية :

ويجهل أني مالك الأرض معسر
وأني على ظهر السماكين راجل
تحقر عند همتي كـل مطـلب
ويقصر في عيني المدى المتطاول
ومن يبغ ما أبغي من المجد والعلى
تساوى المحايى عنده والمقـاتل (٣)

ثم يواصل ترفعّه عن الآمال ، التي لا تقترن بالفعل ، والإقلال وعيشة الكفاف ،معانداً ومكابراً على كل من

١–م " المحصول الفكري للمتنبي " تأليف سهيل عثمان ، منير كنعان / دار الإرشاد / بيروت /الطبعة الأولى ١٣٨٩ صـ١٧٩ .

٢–م "ديوان المتنبي" ٤٤–٤٥ .

٣–"ديوان المتنبي " صـ٢٩٢،٢٩٣،٢٩٤/٣.

يقف في طريقه ، يقول :

ليس التعلل بالآمال من أربي
ولا القناعة بالإقلال من شـــيمي
ولا أظن بنات الدهر تتركني
حتى تسد عليها طرفـــها هممي
سيصحب النصل في مثل مضربه
وينجلي خبري عن صمة الصمم
ردي حياض الردى ، يانفس واتركي
حياض خوف الردى للشاء والنعم (١)

ثم يدلل على بعد مرماه ، وسمو مبتغاه ، يقول :

واقفاً تحت أخمصي قدر نفسي
واقـــفاً تحت أخمصيَّ الأنام
أقـــراراً ألـــذ فـــوق شـــرار
ومراماً أبغي ، وظلمي يرام
دون أن يشرق الحجاز ونجد
والعرقان ، بالقنا والشآم (٢)

ويؤكد علو همته ، في طلبه ، إذ يقول :

فسرت إليك في طلب المعالي
وسار سواي في طلب المعاش (٣)

ويكـــاد هذا الهاجس – هاجس الرقعة – يسيطر على طموحه وآماله ، لذلك لا يكاد يفارق قصائده ،يقول أيضاً :

وفي الناس من يرضى بميسور عيشه
ومركبه رجلاه والثوب جلده
ولكـــنَ قلبـــاً بين جنبـــي مـــالـــه
مدى ينتهي بي في مراد أمده (٤)

م" ديوان المتنبي " صـــ١٥٥، ١٥٦،١٥٧،١٦٠/٤

٢- نفسه صـــ٢١٨/٤

٣-نفسه صـــ ٣٢٥ /٢ .

٤-"ديوان المتنبي " صـــ ١٢٣ / ٢ .

ثالثاً: فـقــره :

نشأ المتنبي فقيراً معدماً ، وذاق طعم الفاقة ، وعرف أن المجد مقترن بالمال ، فــلا مجد في الدنيا لمن قل ماله،لذا سعى ،منذ صباه معللاً ركضه خلف المال والرفعة، يقول :

لَم الليالي التي أخنت على جِدتي
برقة الحال ، واعذرني ، ولا تلُم (١)

وقد وصل الفقر به حداً ، بحيث لم يملك ثمناً لجوادٍ يركبه ، ولا جمل يقطع به الصحاري ، يقول :

لا ناقتي تقبل الرديفَ ، ولا
بالسوط يوم الرهان أجهدها (٢)

كانت هذه النشأة مسوغاً لطلب المال ، حيث " مدح ورجى الممدوحين صراحة أن يغدقوا عليه عطاياهم ، واعترف بأنه أسير فضلهم ومطوق بمعروفهم كل عمره ، حتى إنه كان يصل إلى ما ينقص من كبــريائه الشديدة إمتياحاً للفضل ، وبعد أن يكون في قمة الفخر يهوي إلى السؤال " (٣)

وقد يصرح المتنبي بالفقر ، مثل قوله :

فسرت ، نحوك لا ألوي على أحدٍ
أحثُّ راحلتيّ الفقر والأدبا
أذاقني زمني بلوى شرقــتُ بــها
لو ذاقها لبكى من عاش وانتحبا (٤)

وقد كان يلقى كل عنت وتعب ومشقة في رحلة طلب المال،بعد أن ألفَ الترحل والسفر،يقول:

أواناً في بيوت البدْو رَحْلي
وآونةً علــى قتــد البعــير
أعرّض للرماح الصمّ نحري
وأنصب حُرَّ وجهي للــهجير
وأسري في ظلام الليل وحدي
كأني منــه في قمرٍ منير (٥)

١-"ديوان المتنبي " صـــ١٥٦ /٤ .

٢-نفسه صـــ٢٦ /٢ .

٣-م " الحصول الفكري للمتنبي " سهيل عثمان و منير كنعان صـــ١٨٧ .

٤-م " ديوان المتنبي " صـــ٢٤٨ /١ .

٥-ديوان المتنبي صـــ٢٤٦ / ٢ .

ونتيجة ذلك صار التجوال ديوان المتنبي ، متنقلاً من بلد لآخر ، سائلاً هذا وطالباً ذاك ، قال :

غنيٌّ عن الأوطان ، لا يستفزني
إلى بلدٍ سافرتُ عنه ، إيابُ (١)

ويرسم صورة للضياع الحاصل من تجواله ، وترحاله ، يقول :

بم التعلل ، لا أهل ولا وطن
ولا نديم ولا كأس ولا سكن ؟ (٢)

ولكن يقول أحد الباحثين عن شخصية المتنبي "هذه الشخصية الطموحة،والتي ساقتنا آمالها معها ولو إلى حين ، نلمس فيها نقطة ضعف حساسة،بل لعلها النقطة الأسّ التي ينهدم بها كل ما بناه،ويسعى إلى بنائه ، فالذي نعجب له هذه الأزدواجية في شخصيته ، فنرى واحدة هي الفخورة الطمّاحة التي ترفع بصاحبها إلى أعلى علّيين ،في حين نرى الثانية،وهي الراغبة في التكسب والاستجداء – أو العكس – لتنزل بهذا الطموح إلى أسفل سافلين " (٣)

ولعل الشواهد الشعرية ، تؤيد مثل هذا التذلل،والترخص ، يقول في باب مديح بعضهم، متحولاً هـــو إلى مستكين وخانع :

وأسمعُ من ألفاظه اللـــغة التي
يلذُّ بها سمعي ، ولو ضُمنتْ شتمي (٤)

١–ديوان المتنبي صـــ ٣١٦ / ١ .

٣–نفس المصدر صـــ٣٦٣ /٤ .

٤–راجع " المتنبي مالئ الدنيا وشاغل الناس " د/محمد التونجي صـــ٥٢ .

٥–راجع " ديوان المتنبي " صـــ١٧٢ /٤ .

بل إنه يعطي حكمة سائرة ، وكأنه يبرر ترخصه ، وتذللـــه ، وقيامه بأفعال لا يقتنع بها ، يقول :

ومن نكد الدنيا على الحر أن يرى
عدواً له ما من صداقته بُدُّ (١)

" فالمتنبي الذي عرّف نفسه بأنه صاحب العزة والإباء ،وصاحب الجد العلاء ،يتنازل فجأة عن كل شموخه ويقبل صداقة العدو !! " (٢)

وقد اتهم المتنبي بالبخل ، " وطبيعي لمن يطلب عطاء الممدوحين أن يُرمى بهذه الـــتهمة ، وأن يعـــامله الناس على أنه اعتاد الأخذ لا العطاء " (٣) ولكن يبدو أن الرجل أدرك قيمة المال ، ومكانته بين الناس ، لذا كان حريصاً على الحفاظ عليه ، معتنياً بأمر إنفاقه ، لأن هذه الثروة ، التي جمعها تعب معنوياً ومادياً في تحصيلها .

أما بخله الذي شاع وانتشر ، وتحدثت عنه بعض كتب الأدب ، فيمكن أن يُبرر ، بأن الرجل كان مقبلاً على الحياة ، " وقد جرّب تحقيق الأماني بالقوة ففشل ، ورأى ما للمال من هيمنة وقدرة على تحويل مجرى الأمور ، فغدا طموحه الأميري دافعاً لطلب المال " (٤) ويؤكد هذا قوله :

فلا مجد في الدنيا لمن قلّ مالهُ
ولا مالَ في الدنيا لمن قلّ مجده (٥)

وقد ناقش المازني هذا البخل ، واستبعده (٦) ،وناقشه غيره (٧) " وقد توهم أحد الباحثين (٨) ،فاعتبر قول المتنبي :

الجـــود يفـــقر والإقـــدام قـــتالُ

١- م " ديوان المتنبي " صـــ٩٣ /٢ .

٢-م " المتنبي مالئ الدنيا وشاغل الناس " د/محمد التونجي صـــ٥٣ .

٣-م " المحصول الفكري للمتنبي " سهيل عثمان ومنير كنعان صـــ١٨٨ .

٤-م/ المصدر السابق صـــ١٨٧ .

٥-م "ديوان المتنبي " صـــ١٢٣ /٢ .

٦-م " حصاد الهشيم " لإبراهيم المازني / المطبعة العصرية / القاهرة / الطبعة الخامسة سنة ١٩٥٧ /صـــ١٢٦-١٥٤ / وخلاصة رأيه (أنه رجل له غاية معينة ،يريد أن يوفر لها الوسائل ،وأن يحشد لها المال ،في غير كزازة ،إذا كان المال أقوى أداة وأمتن) .

٧-م " ذكرى أبو الطيب بعد ألف عام /عبد الوهاب عزام/ دار المعارف /القاهرة /الطبعة الثانية /١٩٥٦ صـــ٢١٤-٢٢٨ .

٨-م " أبو الطيب المتنبي ،حياته وخلقه وشعره وأسلوبه " محمد كمال حلمي /مطبعة الشباب /القاهرة /١٩٢١ صـــ٨٨-١٢٦ .

دليلاً كبيراً على البخل والجبن ، ولكن البيت كاملاً ينفي هذا الوهم ، يقول المتنبي :

لولا المشقة ساد الناس كلهم
الجود يفقر والإقدام قتالُ (١)

فالبيت هنا يتحدث عن المفاضلة بين الناس ، فالفضيلة تحتاج إلى بذل المشقة ، والسعي والطموح ، وعلى من يريدها أن يبذل لها النفس والنفيس . فالبيت دعوة عميقة إلى الشجاعة والكرم والبذل .

وصورة الشحيح قريبة من ذهن المتنبي ، لذا ذكرها في إحدى قصـــائده الغزلية ، مما يؤكد علاقة الرجل بالبخل ، يقول : بليتُ بلى الأطلال إن لم أقف بها
وقوفَ شحيح ضاع في التُّرب خاتمه (٢)

من هنا تكون علاقة المتنبي بالبخل علاقة غامضة فلا يمكن أن ننفي صفة البخل عنه ، " ولكن المـــبالغة شئ آخر ، وهذا ما جعلنا نفكر تفكيراً ثانياً في هذه القضية " (٣) .

رابعاً: ثقـــافته :

من تتبع شعر أبي الطيب وجد آثاراً شتى تدل على ثقافة الرجل ، إذ تشع بين قصائده ألوان متفرقة من العلوم اللغوية والأدبية والتاريخية والدينية والجغرافيا والطبية ، وغيرها من المعارف المتاحة في ذلك العصر .

ولعل المتنبي يعطينا مفهوماً خاصاً للحياة حين يجعل قطبيها القوة و الثقافة أو القراءة ،لأن العلم يمكن أخذه بالمشافهة ، لذا قرن بينهما في بيت بقوله:

أعزُّ مكان في الدنى سرج سابح
وخير جليس في الزمان كتاب (٤)

والكتب التي تعرضت للمتنبي ذكرت شيئاً كثيراً عن ثقافته (٥) ، وقيل " أن أباه سافر به إلى بلاد الشام ، فلم يزل ينقله من باديتها إلى حَضَرها ، ومن مدَرها إلى وبرها حتى توفي أبوه " (٦)

١–م " ديوان المتنبي " صـــ٤٠٦ / ٣ .

٢–م " ديوان المتنبي " صـــ٤/٤٦ .

٣–م " المتنبي مالئ الدنيا وشاغل الناس " د/محمد التونجي صـــ٢٨ .

٤–م " ديوان المتنبي " صـــ١/٣١٩ .

٥–للاستزادة / م " شرح ديوان المتنبي " لأبي العلاء المعري – تحقيق د/عبد المجيد ذياب /دار المعارف / القاهرة / المقدمة .

٦–م " المتنبي مالئ الدنيا وشاغل الناس " د/محمد التونجي صـــ٥٥ .

أ – الناحية اللغوية :

عُرف المتنبي بمعرفته اللغوية ، وكان من المكثرين من نقل اللغة ،والعارفين بحواشيها وغريبها " لا يُسأل عن شيءٍ إلا واستشهد فيه بكلام العرب من النظم والنثر ، حتى قيل إن الشيخ أبا علي الفارسي صاحب الإيضاح والتكملة قال له يوماً : كم لنا من الجموع على وزن " فَعْلِى" ؟ فقال المتنبي في الحال : حِجْلَى وظِرْبَى . قال الشيخ أبو علي : فطالعت كتب اللغة ثلاث ليالٍ علّي أجد لهذين الجمعين ثالثاً فلم أجد " (٤)

وقد بلغ وعي المتنبي باللغة بأن حفظ جسم الإنسان ودقائقه والحيوان وغرائبه ، والنبات وعجائبه .

ب – الناحية الأدبية :

وهي لا تقل أهمية عن النواحي الأخرى ، بل تكاد تكون أهم النواحي لعلاقتها القوية بالعمل الشعري ، وكثيراً ما يدخل في شعر المتنبي معنى آية كريمة ، أو حديث شريف أو مثل سائر ، مما يتطلّب من قارئ شعر المتنبي الوعي ، والثقافة والعمق " وكثيراً ما يواجهه الإرهاق والدوار قبل أن يهتدي إلى معرفة فكرة البيت والمعنى الذي قصد إليه الشاعر ، وقد لا يهتدي إلى مراد الشاعر أبداً ما لم يستعن بالمصادر القديمة التي توفرت على دراسة شعر المتنبي ومتابعته ،الأمر الذي اصطلح عليه دارسو المتنبي باسم " المشكل في شعر المتنبي " (٢)

ومن أمثلة تعمقه بالقرآن الكريم قوله :

إِنَّ السُّيُوفَ مَعَ الَّذِينَ قُلُوبُهُمْ
كَقُلُوبِهِنَّ إِذَا الْتَقَى الْجَمْعَانِ (٣)

وهذا مقتبس من قوله تعالى" إِنَّ ٱلَّذِينَ تَوَلَّوْا۟ مِنكُمْ يَوْمَ ٱلْتَقَى ٱلْجَمْعَانِ إِنَّمَا ٱسْتَزَلَّهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ بِبَعْضِ مَا كَسَبُوا۟ ۖ وَلَقَدْ عَفَا ٱللَّهُ عَنْهُمْ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ حَلِيمٌ ﴿١٥٥﴾ "(٤)

١– م " المتنبي مالئ الدنيا وشاغل الناس " د/محمد التونجي صـــ٥٥ – ٥٦ .

٢–م " مجلة المورد " العدد الثالث / المجلد الخامس / دار الحرية / بغداد /١٩٧٧ صـــ٢٩ .

٣–راجع " ديوان المتنبي " صـــ٣١٦ /٤ .

٤– سورة آل عمران الآية ١٥٥ .

وتظهر ثقافته الأدبية في قوله :

أحنُّ إلى أهلي وأهوى لقاءَهم
وأين من المشتاق عنقاء مُغرب (١)

جـ – الناحية الدينية :

حفل القرن الرابع بتعدد الإتجاهات المذهبية ، وتضارب الديانات المختلفة لذا كان المتنبي ضليعاً في الثقافة الدينية بكل أشكالها ومناحيها ، ومن ذلك قول المتنبي :

كأن كل سؤالٍ في مسامعه
قميصُ يوسفَ في أجفان يعقوب (٢)

حيث يشير إلى قصة يوسف وأبيه يعقوب عليهما السلام ، التي ذكرها القرآن الكريم .

كما أنه على دراية ببعض الأديان غير السماوية المدعاة ، مثل قوله :

وكم لظلام الليل عندك من يدٍ
تخبرّ أنّ المانويّة تكذب (٣)

فالممدوح يعطي في الظلام ، وهذا يبين أن المانوية تكذب (٤)

د – الناحية التاريخية :

حفل ديوان المتنبي بصور تاريخية كثيرة ، عدا عن أنه صورة حية للحروب التي شهدها وعاصرها ، ويهمنا ما يشير إلى التاريخ القديم ، وهو واضح وبارز في شعره، من ذلك قوله :

أجارَ على الأيام حتى ظننتهُ
يطالبهُ بالردّ عادٌ وجرهمُ (٥)

فقد أورد المتنبي خبر قومي عاد وجرهم اللذين هلكا في غابر الأزمان .

١–م " ديوان المتنبي " صـ٣٠٧ / ١ .
جاء في معاني العنقاء (إنها طائر عظيم لا ترى في الدهور) راجع لسان العرب لابن منظور صـ٢٧٦ /١٠ .
٢–م " ديوان المتنبي " صـ٢٩٥ /١ .
٣–م " ديوان المتنبي " صـ٣٠٢ /١ .
٤–المانوية : (أصحاب ماني – القائل بالنور والظلمة،وأن الخير كله من النور والشر كله من الظلمة) م "شرح ديوان المتنبي "للبرقوقي صـ٣٠٢ /١.
٥–م " المصدر السابق صـ٤/٧٣ .

هـ –الناحية الجغرافية :

انعكست رحلات المتنبي وتنقلاته على شعره ، بحيث عرف الأمكان وخبر النواحي، ويزيد على ذلك بمعرفته طرق الصحراء،وأدغال البادية،بل إنه أدرك طرفاً من علم الأنواء وتحرّك النجوم. وقد صرّح بمعرفته بالأرض ، حين قال :

كأني دحوت الأرض من خبرتي بها
كأنيَ بنّى الإسكندر السدّ من عزمي (١)

وقد قدم أحد الباحثين موضوعاً واسعاً حول الأماكن و الأودية و المياه ، التي ذكرها المتنبي . (٢)

وقد تمتع المتنبي بثقافة غزيزة ، ووعي تام بمواقع الكلام ، وهو عندما يدخل المعلومة ، إنما يدخلها في مكانها المناسب فهو " إنما جاء – ويجئ – بهذه المعلومات بما يناسب المقام الذي ينشد فيه " (٣)

والقارئ لشعر المتنبي يدرك بوضوح تلك الخلفية الواسعة ، والثقافة العريضة التي اكتسبها المتنبي من الزمان والمكان والمطالعة والنظرة الواعية في فنون المعرفة

وقد تصل ثقافته إلى الفنون ، من ذلك ما ورد من إشارات فنية ، في مثل قوله :

بضربٍ هاجَ أطرابَ المنايا
سوى ضرب المثالث (٤) والمثاني (٥)

أما الثقافة الحربية ، فقد حفلت سيفيات المتنبي بالكم الهائل من الوعي الحربي والثقافة التي تُسقى من أرض المعركة . وتنبع من الكر والفر " ولعلنا لا نبتعد عن وجه الحقيقة إذا وصفناه بأنه الشاعر الفارس المثقف " (٦) ، ويؤكد ذلك المتنبي نفسه حين قال :

الخيل والليل والبيداءُ تعرفني
والسيف والرمح والقرطاس والقلم (٧)

١–م " ديوان المتنبي " صـ٤/١٧١ ، والاسكندر هو /ذو القرنين الذي بنى السد بين يأجوج وبين سائر البلاد .

٢–م " المورد / العدد الثاني / دار الحرية / بغداد / ١٩٧٧ صـ١٣ – ٢٢ .

٣–م " المتنبي مالئ الدنيا وشاغل الناس " د/ محمد التونجي صـ٦١ .

٤–المثالث والمثاني / من أوتار العود .

٥–م " ديوان المتنبي " صـ ٤/٣٩٣ .

٦–م " المتنبي مالئ الدنيا وشاغل الناس " د/ محمد التونجي صـ٦٥ .

٧–م " ديوان المتنبي "صـ٨٥ / ٤ .

خامساً: شاعريته :

شاعرية المتنبي ملأت الدنيا وشغلت الناس ، حيث أصبح مدراراً لدارسي التاريخ والأدب ويشير إلى ذلك الثعالبي بقوله " مجالس الدرس عُزيت بشعره ، ومجـــالس الأنس تغنت بقوله . وجرى على لسان الخطباء والمتكلمين أبرز أقواله .واشتغل به المؤلفون ،وانشغل معهم الناقدون ،وكثرت التآليف في تفسير قصائده ، وحل مشكله وعويصه ، فتفرقوا فرقاً بين محباً هائم ، أو معتدل ، وبين قادح جائر ، أو ناقد صادق . ولا يهتم النقاد عادة إلا بالمشهور وبمن طبق الآفاقَ خبره " (١)

ولو رحنا نتابع شاعريته وأهمية شعره وتأثيره وما أثاره من مناقشات ، لأخذ ذلك منا الكثير من الورق ، ولكن هذا ليس موضع هذه المناقشات ،بل يهمني ،ما جلبته هذه الشاعرية ،وتلك النفس من حسد وغبطة وغيرة في نفوس الآخرين الذين سعوا للإيقاع به ، مما أذكى نار الشكوى ، وزاد وقود المعاناة .

والشواهد الشعرية التي بين أيدينا ، تنضح بالألم الذي كان يعانيه المتنبي من هؤلاء ، الحساد ، غير أن الجدير بالملاحظة أن المتنبي أسهم بشكل ، أو بآخر في جلب العداوات ، واستعداء الآخرين له ،حين يقول في بلاط سيف الدولة :

سيعلم القوم مما ضمّ مجلسنا
بأنني خير من تسعى به قدم (٢)

ومثل قوله :

وما الدهر إلا من رواة قصائدي
إذا قلت شعراً أصبح الدهر منشدا (٣)

ومثل قوله :

ودع كل صوت غير صوتي فإنني
أنا الطائر المحكي ، والآخر الصدى (٤)

١–م " يتيمة الدهر في محاسن أهل العصر " لأبي منصور الثعالبي ، تحقيق محمد محي الدين عبد الحميد ، الطبعة الثانية ، دار الفكر / بيروت ١٣٩٣هـ صـــ١١١ / ١ .

٢–م " ديوان المتنبي " صـــ٢٥٠ مختصر شرح اليازجي دار طلاس – دمشق والملاحظ بأن البيت لم يرد في شرح البرقوقي .

٣–المرجع السابق صـــ٢/١٤ .

٤–نفسه صـــ١٥ / ٢ .

بل إنه يترفع – أحياناً – حتى على الشعر والشاعرية ، حين يقول :

وفؤادي من الملوك ، وإن كا
ن لساني يُرى من الشعراء (١)

" فهو يكاد يضيق بلقب شاعر ... بالمفهوم والإعتبار القديمين للشاعر الذي كان ينظر إليه على أنه إنسان متكسب ، متسلق " (٢)

بل إنه يتعالى على الآخرين ، مازجاً ذلك بشيءٍ من التوبيخ ، مثل قوله :

أنا صخرة الوادي إذا ما زوُحمت
وإذا نطقت ، فإنني الجوزاء
و إذا خفيتُ على الغبي فعاذر
ألاّ تــرانــي مقلــةٌ عمــياء (٣)

ويهمنا هنا أن ندرك أن المتنبي كان يركز على الثناء على نفسه ، والتعرض للآخرين ، مثل قوله :

أراكضُ مُعْوصَاتِ الشعر قسراً
فأقتلها ، وغيري في الطراد (٤)

هذا التفوق الذي يشعر به المتنبي ،أعطى الآخرين الفرصة ، لحسده ،والكيد له " وشعر المتنبي مملوء بذكر هؤلاء الكائدين الذين تعقبوه في كل مكان ، وطاردوه في كل بلد ذهب إليه " (٥)

هذا الإحساس (٦) ،الذي يكنه الآخرون للمتنبي ، ضايق الشاعر ، وجعله ، لا يستقر في وطن ، ولا يبقى على حال ، يقول : لا تُنكرن رحيلي عنك في عجلٍ
فإنني لرحيلي غيرُ مختار
وربما فارقَ الإنسان مهــجتَه
يوم الوغى غير قالٍ خشية العار
وقد منيتُ بحساد أحاربهم
فاجعلْ نداك عليهم بعض أنصاري (٧)

١–م " ديوان المتنبي " صـــ١/١٥٩ .

٢–م " المتنبي / خليل شرف الدين / دار الهلال / بيروت ١٩٨٧ صـــ٩٦ .

٣–م " ديوان المتنبي " صـــ١٤٤ /١ .

٤–م " ديوان المتنبي " صـــ١١٨ /٢ .

٥– م " المتنبي والقرامطة " د/ محمد محمد حسين /دار الرفاعي / الرياض / الطبعة الأولى / ١٤٠١هـ صـــ٤٤ .

٦–الإحساس : (ظاهرة نفسية متولدة من تأثر إحدى الحواس بمؤثر ما) راجع " المعجم الفلسفي صـــ٤٣ .

٧–م " ديوان المتنبي " صـــ٢٤٥ / ٢ .

وقد يدرك المتنبي أن أفعاله ومكانته ، جالبة للحسد والكيد ، مثل قوله :

وللحساد عُذر أن يشحو
على نظري إليه ، وأن يذوبوا
فإني قد وصلت إلى مكانٍ
عليه تحسُدُ الحدقَ القلوبُ (١)

بل إنه قد يلتمس له العذر ، ويحتمل له التبرير ، حين يجد نفسه متفوقاً عليهم ، فهم لا يفهمون ، وكأنهم من دواب الأرض ، يقول :

حولي بكلِّ مكان منهم خلِقٌ
تُخطى إذا جئت في استفهامها بمن
إني لأعذرهم ممّا أعنفهم
حتى أعنّف نفسي فيهم وأنيّ
فقرُ الجهول بلا قلب إلى أدب
فقر الحمار بلا رأسٍ إلى رسن (٢)

ويجيب عن السؤال بشكل آخر ، فالحسد يشكّل هاجساً (٣) في ذهن المتنبي ، يقول على سؤال الحسد :

وكيف لا يحسد امرؤ عَلَمٌ
له على كل هامة قدمُ (٤)

والشعر، الذي ينظمه المتنبي من أكبر دواعي الحسد، لذا كان من يسمع شعر المتنبي يغار ويحسد، يقول:

إن هذا الشعرَ في الشعر مَلَك
سار فهو الشمسُ والدنيا مَلَكْ
فإذ مرّ بأذني حاسدٍ
صار ممّن كانَ حياً فهَلَكْ (٥)

١-م " ديوان المتنبي " صـ٢٠٤ /١ .

٢-م " ديوان المتنبي " صـ٣٤١ - ٣٤٢ / ٤ .

٣-الهاجس : استجابة عصابيّة تتميز بالاهتمام البالغ والمستمر بالحالة الصحية أو ببعض الأغراض الجسمية الوهمية أو الخفية ، التي لا تثير مثل هذا الاهتمام البالغ أو القلق لدى الرجل السوي " راجع المعجم الفلسفي صـ٥١٧ / ٢ .

٤-م " ديوان المتنبي " صـ١٨٠ / ٤ .

٥-م " ديوان المتنبي " صـ١١٣ - ١١٤ /٣ .

ويقول في موضع آخر :

أرى المتشاعرين غرُوا بذميّ
ومن ذا يحمد الداءَ العــضالا
ومن يكُ ذا فم مُرّ مريضٍ
يجد مُراً بــه المــاءَ الــزلالا (١)

ويقول أيضاً :

قليل عائدي سقم فؤادي
كثير حاسدي صعب مرامي (٢)

والحساد ، الذين اشتكى منهم المتنبي كثر ، منهم الشعراء ، ومنهم اللغويون ، ومنهم الوزراء ، ومنهــم الأمراء ، وقد أوضح المتنبي ذلك بقوله :

ورائي وقدامي عُداة كثيرة
أحاذر من لغيٍّ ومنكِ ومنهمُ

ونجده أحياناً يستنجد بالآخرين ، لإزالة هذا العدد الهائل من العداة والحساد ، يقول :

أزلْ حسدَ الحساد عني بكبتهم
فأنت الذي صيّرتهم لي حُسّدا (٣)

هذا ما كان بين المتنبي وحساده ، ومن هنا نجد تفسيراً صحيحاً لمعاناة الشاعر من طائفة الحاسدين

" ولعله لم يخطئ إذ عبر عن نفسه بتسمية ابنه " المحسّد " وتكنيته به " (٤)

سادساً: وفــاتـــه :

كان للعداوات التي استجلبها المتنبي لنفسه آثار عدة ، بدأت بمضايقة المتنبي ، وانتهت بقتله .

" وإذا رجعنا إلى شعر المتنبي وجدنا فيه قصائد هجائية، كان من الممكن أن تــسبب له هدر دمه فعلاً "(٥)

١–م " ديوان المتنبي " صـــ٣٤٤/ ٣ .

٢–م " ديوان المتنبي " صـــ٢٧٦ / ٤ .

٣–م " ديوان المتنبي " صـــ١٣ / ٢ .

٤–م " المتنبي مالئ الدنيا وشاغل الناس " د/محمد التونجي صـــ٢٦٧ .

٥–م "المتنبي مالئ الدنيا وشاغل الناس " د/محمد التونجي .

ومن أشعاره التي هجا بها ، وتجاوز فيها الحد ، قوله :

وارفق بنفسك إن خَلقك ناقصٌ
واستر أباك فإن أصلك مظلمُ (١)

وهجاؤه لكافور (٢)

والحقيقة أن محاولات قتل المتنبي ،ظهرت إرهاصاتها مبكرة ، منذ كان في مقتبل العمر ، و " منها أنه لما أنشد الأمير سيف الدولة :

كم تطلبون لنا عيباً فيعجزكم
ويكرهُ الله ما تأتون والكرمُ

اضطرب المجلس ، وقال أبو الفرج السامر (٣) ، وقال " دعني أسع في دمه " فرخّص له في ذلك ، وفيه يقول أبو الطيب المتنبي :

أ سامـــرىُّ ضـــحكة كل راءٍ
فطنتَ ، وكنتَ أغبى الأغبياءِ (٤)

وقد كانت نهاية المتنبي على يد فاتك بن أبي جهل الأسدي (٥) حيث اعترضه في الـــطريق إلى بغـــداد " وقرب دير العاقول في مكان يُعرف بالصافية ، عرض له فاتك في عدة من أصحابه ،ولم يكن مع المتنبي غير إبنه وبعض الغلمان فقاتلوهم ، حتى قتل المتنبي وابنه المحسّد وغلامه المقرب مُفلح " (٦)

وقد كان ذلك قبل ذلك في شهر رمضان من عام ثلاثمائة وأربع وخمسين للهجرة المحمدية (٧) . وبوفاته طويت صفحة مهمة من صفحات الأدب العربي ، إن لـــم تكن من أهم صفحـــاته ، وقد كان بوسع المتنبي الفرار ، لكن الإلتزام بمضمون القول ، قد حرمه من الهروب ، فقد قال صاحب العمدة :

١- م " ديوان المتنبي " صـــ٢٥٤ / ٤ .

٢- سوف نتحدث بشيء من التفصيل في الفصل الثالث من هذا البحث عن هذا الموضوع .

٣- هو أبو الفرج السامري نبطي من كبار كتاب سيف الدولة راجع شرح ديوان المتنبي صـــ١٦٩ /١ .

٤- م " المتنبي مالئ الدنيا وشاغل الناس " د/محمد التونجي صـــ١٥٦ .

٥- هو فاتك بن أبي جهل الأسدي لص كان يتربص لأبي الطيب إنتقاماً لإبن أخته ضبة بن يزيد الذي هجاه أبو الطيب م/ شرح ديوان المتنبي صـــ٦٥ / ١ .

٦-م " المتنبي مالئ الدنيا وشاغل الناس " د/محمد التونجي صـــ١٥٣ .

٧-م " في مقتله " مع المتنبي " د/طه حسين صـــ٣٧٤ وما بعدها .

أن أبا الطيب " لما فر ورأى الغلبة قال غلامه : لا يتحدث الناس عنك بالفرار أبداً ، وأنت القائل :

الخيل و الليل والبيداء تعرفني
والطعن والضرب والقرطاس والقلم (١)

فكر راجعاً فقتل ، كان سبب ذلك هذا البيت " (٢)

١-يروي عجز هذا البيت هكذا : (والسيف والرمح والقرطاس والقلم).

٢-م " العمدة في محاسن الشعر وآدابه ونقده " لابن رشيق محمد محي الدين عبد الحميد/ دار الجيل / بيروت / بدون تاريخ صـــ١/٧٥ وقد قام المحقق بذكر رواية البيت هكذا (والسيف والرمح والقرطاس والقلم) .

توطئة :[٢١]

عاش شعراء القرن الرابع الهجري أوضاعهم المعاصرة لهم ،سياسياً، واجتماعياً ، وتفاعلوا مع واقعهم بكل متناقضاته واضطراباته .

وعاشوا في تضاعيف زمانهم بكل الأبعاد وعكسوا معاناتهم ومأساة مجتمعهم وعبّروا عن ذلك بالشكوى الحزينه ، فالشعراء في كل زمان ومكان هم مرآة عصرهم في عكس نبض الناس ، وحزنهم ، وفرحهم وهمهم .

ولقد تنوعت الشكوى في هذا القرن بالقدر الذي تسمح به ثقافة الشاعر ، ومقدرته الشعرية في تناول شكواه ومعاناته .

ولعل –الواقع المعاش – في القرن الرابع أول مايبرز في مجموع شعر هذا القرن ،ولعل المتنبي من أصدق الشعراء في وصف هذا الواقع المضطرب والمرتبك .

ولعل هذا الواقع نجده ماثلاً في كل شعراء هذا القرن ، وقبل أن نتناول المتنبي نذكر شاهداً على وصف الأمور ، والأحوال في ذلك العصر الذي قال عنه المعري متبرماً ، ومتشائماً من الدنيا ومن الزمان :

يسوسون الأمور بغير عقل
فينفذ أمرهم فيقال ساسه
فأف من الحياة ،وأف منّي
ومن زمن رئاسته خساسه (١)

وللمعري نصوص كثيرة في هذا المجال ، تعطي دلالة على معطيات العصرالذي كان هوأحد نزلائه ،وحتى تتضح صورة هذا القرن أكثر نذكر مثالاً آخر يصف فيه المعري وضع الأمة شاكياً من الجور وغمط الرعية حقها بقوله :

ملّ المقام ,فكم أعاشر أمة
أمرت بغير صلاحها أمراؤها
ظلموا الرعية ،واستجازوا كيدها
فعدوا مصالحها ،وهم أجراؤها (٢)

١–اللزوميات / .لأبي العلاء المعري تحقيق أمين الخانجي منشورات مكتبة الهلال بيروت ١٣٤٢هـ صـ ٢/ ٣١ .
٢– المصدر السابق صـ١/ ١٤٤ .

وإذا قلبنا شعر المتنبي نجد فيه صوراً شتى لمثل هذه الحالة الشاكيةالبائسة،وشكوى المتنبي تجنح إلى الجرأة والكلمة عنده تأخذ بعدها الكامل ، وتميل – أحياناً – إلى السخريةوالإستهانة بمن حوله من خاص وعامة ، يقول:

فــؤاد ما تسلــيه المــدام
وعــمر مثل ماتهب اللئام
ودهر ناسه نــاس صــغار
وإن كانت لهم جثث ضخام
وما أنا منهم بالعيش فيهم
ولكن معدن الذهب الرغام
أرانــب غــير أنــهم ملــوك
مفــتحة عــيونهم نيام
بأجــسام يحــر القتل فيها
ومــا أقرانــها إلاالطعام (١)

فالمتنبي رسم صورة ساخرة لحكام زمانه بحيث تميل إلى الحكمة علاوة على اصطباغهابالسخرية ،" ولعل تلك الأعباء الثقيلة التي ألقت بوزرها على الشعراء ،فذاقوا مرارة العيش مع عامة الناس في ذلك العصر ، قد انطقتهم بالحكمة التي اطلّوا منها على الحياة وتعقداتها ، والمتنبي يُعد من أبرز الشعراء الذين استطاعوا أن يضمّنوا حكمهم حصيلة وافرة من شكوى الواقع السياسي ، فالمتنبي يأتي بالحكمة الساخطة حيناً ، والواقعة الحزينة حيناً آخر وهو بين النقمة والحزن " (٢)

وانمتنبي في صدارة شعراء القرن الرابع الهجري في استيعاب الحكمة ،ولم يُعرف شاعر في هذا القرن يوازيه إلا ما كان من أبي العلاء المعري " (٣)

١-ديوان المتنبي صـــ٤/١٩٠ /١٩١ . شرح عبد الرحمن البرقوقي طبعة ١٤٠٧ هـــ

٢-م/ ذكرى أبي الطيب بعد ألف عام لعبد الوهاب عزام صـــ٢٠٠

٣-م/ الفن ومذاهبه في الشعر العربي .د/شوقي ضيف صـــ٢٤٣

وقدتناول أحد الدارسين الحكمة بين المتنبي والمعري " (١)

يقول المتنبي في بيت مفرد ناقماً:

ذو العقل يشقى في النعيم بعقله
وأخو الجهالة في الشقاوة ينعم (٢)

ومما يزيد في شكوى المتنبي وألمه وحزنه ماكان يتملكه من ضعف مجتمعه ،وتقاعس الناس عن القتال وهجرهم للنزال ، في حين أن الأسياف تشكو الظمأ ، والطير جائعة ، يؤنب شجاعة القوم ، ويحثهم على العزيمة والعزة القعساء والمجد المؤثل :

أيملك الملك ،والأسياف ظامئة
والطير جائعة لحم على وضم (٣)

ويواصل خطابه إلى نفسه مرة ، وإلى قومه أخرى حتى وهو في شكواه الخاصة يدخل في مجموع الهم العام ، تلمس ذلك من نداءاته إلى نفسه بقوله :

إلى كـــم ذا التخلّف والتواني
وكم هذا التمادي في التمادي؟!
وشغل النفس عن طلب المعالي
يبيع الشعر في سوق الكساد!! (٤)

والمتنبي في أكثر شكواه ، يطمح لعيش أرغد وحياة أنعم لأمته وقومه محاولاً في ذلك تجاوزالإنكسارات والإنهزام يقول مثلاً:

حتّام نحن نساري النجم في الظلم
وما سراه على خف ولا قدم (٥)

ولا ينسى المتنبي في شكواه من الواقع المحيط أن يشير إلى الدخلاء ، الذين لانصيب لهم من المعرفة

١-يراجع في هذا المبحث كتاب "موازنة بين الحكمة في شعر المتنبي والحكمة في شعر أبي العلاء المعري " د/زهدي صبري الخواجا

٢-م ديوان المتنبي صـــ٤/٢٥١

٣-م ديوان المتنبي صـــ٤/١٦١

٤-م ديوان المتنبي صـــ ٢/٧٧

٥-م ديوان المتنبي صـــ٤/٢٨٥

ولا مقدار لديهم من الأدب ، فيقول :

أفعال من تلـــد الكرام كريمة
وفعال من تلد الأعاجم أعجم! (١)

والشواهد في هذا المضمار واسعة ، والمادة وافرة غير أنها يتداخل حابل العام بنابل الخاص ،بحيث يكون النص مفتوحاً ينطبق عليه أية قراءة ، فهو شكوى ذاتية إن قلت ذاتية ،وهو شكوى عامة إن قلت شكوى عامة ، ويمكن أن يدخل في هذا المجال قول المتنبي :

أظمـــتني الدنيا فلما جئتها
مستسقياً،مطرت عليّ مصائبا (٢)

وهكذا يسجل المتنبي الواقع الذي عاصره ، ويرصده رصداً دقيقاً،مضمناً شكواه بالحكمة ، ومصمعاً ألمه بروح الكبرياء ، راسماً لنفسه واقعاً فوق الواقع المزري الذي كان يدور حوله .

١-م ديوان المتنبي صـــ٤/٢٦١.

٢-م ديوان المتنبي صـــ١/٢٥٢.

الفـــصـــل الأول

حـــالات الشكـــوى العامـــة

١- شكوى الزمان.
٢- شكوى الفقر وقلة ذات اليد.
٣- الشكوى من الناس.
٤- الشكوى من الشعراء.
٥- الشكوى من الأصدقاء.

١- شكوى الزمان :

كتب الأدب العربية ملأى من شكوى الزمان ،فما من أديب ، ولا عالم قال شعراً إلاوشكى من سوء حظه وعتب على الزمان ، وأنحى على الأيام باللائمة . وعاتب الزمن على رفع الجهلاء ، وإهمال حق الفضلاء والقرن الرابع حفل بشكوى الزمان ،وجدد في تناولها ولا تجد شاعراً من شعراء هذا القرن إلاوأخذ نصيبه من معاتبة الزمن ، وشكوى الأيام .

ويعد هذا النوع من الشكوى إفرازاً طبيعياً لقسوة الحياة ، وإرتباك الأوضاع العامة بداية من الواقع العام وانتهاءً بالواقع الخاص .

ومواجهة الشعراء لشكوى الزمان تحمل إنعكاساً لما ولدته المعطيات المترديه للحياة في القرن الرابع الهجري فلما رغبوا في بث الألم وذم الواقع المعاش ، والتعبير عن السخط على افرازاته "لم يستطيعوا أن يكونوا صرحاء في مواجهة الظالمين بظلمهم خوفاًمن البطش والتنكيل لهذا تجاهلوا مصدر الفساد الحقيقي وكنّوا عنه بالزمان أو الدنيا " (١)

ولعل أحد شعراء هذا الزمان يعطينا صورة صادقة لما يحمل ذلك القرن من أتعاب وهموم لذا يقول الشاعر الخبزأرزي : (٢)

وكان الصـــديق يزور الصـــديق
لشـــرب المدام ،وعزف القيان
فصار الصـــديق يزور الصـــديق
لبث الهموم ،وشكوى الزمان

فهذه صورة صادقة عن واقع القرن الرابع الذي امتلأ بالظلم والمآسي ، وتغير الزمان بحيث أن النـــاس انصرفوا عن لذاتهم إلى شكوى الزمان .

والمتنبي استوعب شكوى الزمان من شعره مساحة عريضة ،حتى لقد أصبح الزمان رمزاً لمحنة المتنبي ، وحقلاً لأستنبات أوجاعه ، ومكاناً لبث مواجعه ، وتطبيب آلامه .

١-الأدب في ظل بني بوية ص٢٤٣

٢-هو أبو القاسم نصر بن أحمد بن نصر البصري من شعراء اليتيمة ت٣١٧ .انظر ترجمة في وفيات الأعيان صـــ٥/٣٧٦

وتنوع الخطاب عند المتنبي للزمان بحيث يأخذ أشكالاً شتى ،منها الزمن ومنها الأيام ومنها الدنيا ،ومنها الليالي – وقد أفردت فرعاً خاصاً بالليالي– لكون الليل يعطي الشكوى بُعداً آخر ،سأوضحه في موضعه . والزمان عند المتنبي رمز للتعبير عن تطلعاته، وآماله،يطل منه متخذاً إياه دلالة على رفض الواقع العام، حين يصف الدنيا بأخذ ما تعطي ،يصف ذلك من خلال أسلوب يمتلئ بالحكمة والدراية :

أبــداً تســترد ما تــهب الدنيا
"م"
فيــاليت جــودها ، كــان بخلا (١)

وتتحول هذه النظرة إلى نظرة فيها الطموح ،المشوب بالتعب والمصاعب :

لحى الله ذي الدنيا مناخاً لراكبٍ
فكل بعيد الهم فيها معذب (٢)

وتنتقل النظرة لماهية العلاقة بين المتنبي وبين الدنيا حين كان حظ الشاعر منها الحرمان واليأس ،وكل ما أراد منها الاقبال عليه منحته المصائب والمشقة والتعب :

أظمتني الدنيــا ، فــلما جئتــها
مستسقياً ،مطرت عليّ مصائبا (٣)

وتأخذ الدنيا بزمام المتنبي بمعطياتها . لتجعله يدرك أن الدنيا هكذا ،حتى على الذين من قبله ،لا تدوم على حال لذا سايرها المتنبي ،وترك الاستقرار وأنما أصبح على قلق مستقر ،من مكان لأخر : (٤)

كذا الدنيا على من كــان قبــلي
صر وف ،لم يدمن عليه حالا
فما حاولــت فــي أرض مــقاما
ولا أزمعت عن أرض زوالا
علــى قلــق كــأن الريح تحتي
أوجــهها جــنوباً أو شمالا

١–م ديوان المتنبي صـــ٣/٢٥٠

٢–م ديوان المتنبي صـــ١/٣٠٤

٣–م ديوان المتنبي صـــ٢/٢٥٢

٤– م ديوان المتنبي صـــ٣/ ٣٤١

ويؤكد هذا المعنى بقصيدة أخرى،من خلال معنى آخر ،فالدنيا لاتديم الحبيب الحاضر ،فكيف ترد الحبيب الغائب :

أبى خلق الـــدنيا حبـــيباً تديمه
فما طلبي منها حبيباً تردّه (١)

ثم تأخذ صورة الدنيا طبع القمع ،فهي لا تنجب إلا النجلاء واللئام ،تساوى فيها الشريف و الوضيع :

أمـــا في هـــذه الدنيـــا كريم
تزول به عن القلب الهموم
أمـــا في هـــذه الدنـــيا مكان
يـــسر بأهـــله الجار المقيم
تشـــابـــهت البـــهائم والعبّدى
عليـــنا والـــموالي والصميم

ويدخل في هذا الألم دائرة سؤال رغم كل ما يلقى و لقى – والعجب أنه محسود على ما يبكي هو عليه:

ماذا لقيت من الدنيا ،وأعـــجبه
أنـــي بما أناباك منه محسود (٢)

ويأخذ الزمان مسمى آخر عند المتنبي بحيث يعطي دلالة جديدة للإطار الوقتي الذي يعيش فيه ،لذلك تجد كلمة "الدهر" حاضرة في شعره الشاكي ،حين تمتزج هموم القلب بمعطيات الدهر ورجاله ،الذين يحملون عقول صغيرة في جثث كبيرة في مشهد ساخر :

فـــؤاد ما تسلـــيه المـــدام
وعمـــر مثـــل ماتهب اللئام
ودهـــر ناســـه نـــاس صغار
وإن كـــانت لهم جثث ضخام (٣)

والدهر في سيره –عند المتنبي –لايستحق كل هذا العناء ،واللهاث خلف الأمل،بأن ترجى منه حياة كريمة، بل لايتحمس فيه الإنسان للاستخلاف في الأرض ،بأن ينجب الولد ،لأن غاية فيه التعب والحسرة :

وما الدهرأهل أن تـــؤمل عـــنده
حياة وأن يشتاق فيه إلى النسل (٤)

١–م ديوان المتنبي صـــ٢/١١٩
٢–م ديوان المتنبي صـــ٢/١٤٢
٣–م ديوان المتنبي صـــ٤/١٩٠
٤ –م ديوان المتنبي صـــ٣/١٧٩

وفي صورة أخاذة ممزوجة بالتعب واليأس من كثرة ما يرمى الدهر على الشاعر اجتمعت المصائب في

وفي صورة أخاذة ممزوجة بالتعب واليأس من كثرة ما يرمى الدهر على الشاعر اجتمعت المصائب في

فؤاده فأصبحت الأرزاء تتكسر فوق بعضها :

رماني الدهر بالأرزاء حتـــى
فـــؤادي في غشاء من نبال
فصرت إذا أصابتني ســـهام
تكـــسرت النصال على النصال ! (١)

ويتساوى المتنبي بأن يكون خصماً لبنات الدهر في محاولة منه لإبعاد هذه الشدائد عن طريقه بهممه

العالية ونفسه الطموحه.

ولا أظن بنات الـــدهر تتركـــني
حتى تسد عليها طرقها هممي

وتصل الأمور عند المتنبي ،وتستمر الشكوى ومصادقة الأيام حتى يعجب الدهر من بأس الشاعر ،وقوة

جسمه ، وشدة تحمله :

الـــدهر يعجـــب من حمـــلي نـــوائبه
وصـــبر جسمي على أحداثه الحطم (٢)

والأيام إحدى مسميات الزمان عند المتنبي ،وفي هذا الأسم تأخذ الشكوى بعداً آخر يتمثل في إحدى جوانبه

في مخاطبة الأيام والشكوى إليها ،وما ذاك إلامن ابتعاد الأحباب ،لذا يرجو من الزمان الانصاف بحيث

يجمعه مع أحبابه ،وهذا مالا تريد الأيام ،فهي جند للفراق :

أودّ مـــن الأيـــام مـــالاتـــوده
وأشكـــو إليها بيـــننا وهـــي جـــنده (٣)

وهذه الأيام التي تمر على المتنبي حملت الحلوو المر، والمتناقضات من سهولة وصعوبة ،ورفاهية وتعب ،

لكن لإنقضائهما ، وسرعة حدوثهما ،كأن الشاعر لم يذق شيئاً منهما:

قـــد ذقـــت شـــدة أيـــامي ولـــذتـــها
فمـــا حصـــلت علـــى صاب ولا عسل (٤)

١-م ديوان المتني صـــ٣/١٤١ . ٢-الديوان نفسه صـــ٤/٢٩٥ . ٣-الديوان نفسه صـــ٢/١١٩ .
٤-الديوان نفسه صـــ٣/٢٠١.

وتحمل الشكوى من الأيام ، الحنق على أهل الزمان ، فهم أحد معطياته ، فهم أبناء الأيام إذا ظفروا به لم يرحموه وإن تركهم طال عليهم وماتوا حتف أنوفهم ،فلا مناص من قتلهم بلا رحمة :

ومن عــرف الأيام معــرفتي بــها
وبالــناس روىّ رمحه غير راحم
فليس بمــرحوم إذا ظــفروا بــه
ولا فــي الردى الجاري عليهم بآثم (١)

وتكون الأيام بمواجهة الشاعر ,وتصادمه في رغباته ،وتعكس أمنياته ،فهي تقرب البغيض ،وتبعد الحبيب عندها يتمنى أن تغلط الأيام ،وتأخذ الإتجاه المرغوب :

أمــا تــغلط الأيــام فــيّ بأن أرى
بغــيضاً تنــائى أو حبــيباً تَقرّب

والزمان أو الزمن (٢) أبرز المسميات عند المتنبي لمخاطبة الوقت ،لذا يكون ضداً له ، بل أن المتنبي تحدى الزمن نفسه أن يتحمل ما ذاقه المتنبي منه من الغربة والفقر والبلوى ،ولو ذاق ذلك لبكى وتضجر:

أذاقني زمنــي بــلوى شــرقت بــها
لو ذاقها لبكى ماعاش وانتحبا (٣)

وفي صورة أخرى يجمع المتنبي الأزمان والأيام والدهر في لوحة تفيض بالتصادم والتكبر ،والتكبر لايكون إلا لمواجهة الأمور الكبيرة، فالزمان ضيق،والأيام أصغر من أن تكبت مايمليه الشاعر،فضلاً عن أن تدركه وتعلمه ، والدهر لا يرتجى منه حياة كريمة ، واشتياقاً للإنجاب .

وما تسع الأزمان علمي بأمــرها
ولا تحــسن الأيام تكتب ما أملي
وما الدهر أهل أن تؤمل عنده
حياة ,وأن يــشتاق فيه إلى النــسل (٤)

ويلح المتنبي على فكرة الزوال السريع للأمور ،وبخاصة ساعات اللهو،وأوقات السعادة ،ليأتي مرة أخرى

١-م "ديوان المتنبي" صـــ٤/٢٣٨ .

٢-جاء في لسان العرب (الزمن والزمان : اسم لقليل الوقت و كثيره ،وفي المحكم :الزمن والزمان العصر)لسان العرب لابن منظور صـــ١٩٩ ج١٣.

٣-م ديوان المتنبي صـــ١/٢٤٨ .

٤- م ديوان المتنبي صـــ٣/١٧٩.

مؤكداً هذه الفكرة ،فلا سرور دائم ،ولا سعادة كاملة للإنسان فالزمان جامح :

للهـو آونـة تـمـر كـأنهـا
قـبل يـزودهـا حبيب راحـل
جمـح الزمان فما لـذيذ خـالـص
مما يشوب ،ولا سرور كامـل (١)

والزمان بكل أعنائه ،وشجاعته ،ومعطياته ،لايُرهب المتنبي ،ولا يخيفه وتظهر صورة التحدي .باعلان الحرب عليه – لو أمكن ذلك – :

ولـو بـرز الـزمـان إليّ شـخصاً
لخضـب شعر مفرقه حسامي (٢)

والزمن –عند المتنبي – رمز لمعاندة الكبار ،أصحاب الهمم العالية ،وأرباب الفضائل ،والمتنبي واحد منهم – :

أفاضل الناس أغـراض لـذا الزمن
يخلو من الهم أخلاهم من الفطن

واشكالية الزمن مع المتنبي بأنه يريد أن يبلغ فوق ما يبلغه الزمن نفسه وإن لاقى في ذلك كل ما لاقى – فلا يكترث ولا يهتم ،فلا سرور يدوم ،ولايرد الحزن ما راح من السعادة :

أريد من زمني ذا أن يبـلّغني
ماليس يبلغه من نفسه الزمن
لاتلق دهرك إلا غير مكترث
ما دام يصحـب فيه روحك البدن
فما يدوم سرور ماسررت به
ولايـرد عـليك الفائت الحزن (٣)

وكأن الشاعر يستأنس بقدوم التعب والشكوى من الزمن ، فهو هكذا طبعه ، وقد ذهب الأوائل – وهـم مهتمون به – وعناهم التعب والشأن الذي نحن فيه ،و قد تحسن الأيام إلى البعض ، ولكن سرعان ما تنقلب :

صحـب النـاس قبـلنا ذا الزمانا
وعنـاهم مـن شأنه ما عنانا
وتولّوا بغصة كـلهم مـنه
"م"
وإن سـر بعـضـهم أحـيانا
ربما تحسن الصنيع لياليـه
"م"
ولـكـن تـكـدر الإحـسانـا (٤)

١–م ديوان المتنبي صـ٣/٣٧٠ .

٢– م ديوان المتنبي صـ ٤/ ١٦٣ .

٣–م ديوان المتنبي صـ٤/٣٦٤ .

٤– م "ديوان المتنبي" صـ ٤/٣٧٠

"ولكن أبا الطيب تناول فكرة الزمن تناولاً أقرب إلى تناول المحدثين لها ،ولنتأمل تلك المقطوعة التي يمكن أن نسميها " لوحة الزمن " :لأن الشاعر صور فيها دبيب الزمن على نفسه كما صور عاديات الأيام ،وتخيل الزمن كياناً مستقلاً ،وراح يحل فيه ويصحبه ،ويذوق من خلاله الغصص والآلام التي يسببها للناس،ويدرك – في لحظات خاطفة –الإشراق الذي يلم بالناس ،ثم الظلام الذي يلم بهم بعد ذلك " (١)

ويعلل المتنبي " جفاف الزمان " ،وعدم منحه اللذات ،لأن المتنبي وأمثاله الطامحين ،قد جاءوا الزمان وهوفي شبابه المفرح ، أما نحن نحن فقد جئناه ،وهو قد كبر وخرف:

أتى الزمان بنوه في شبيبته
فسرّهم ،وأتيناه على الهرم (٢)

هكذا يرسم المتنبي محنته ،ليأخذ الزمن بعداً تأملياً ،فمرورالأيام عنده من أسباب شكواه وتعبه ، لذا يرىالزمن يمضي دون أن يحقق آماله ،حتى وإن عبّر بروح الطامح بقوله :

أريد من زمني ذا يبلّغني
ما ليس يبلغه من نفسه الزمن (٣)

مع كل هذا فهو يحس بالشكوى والإنكسار ، "وتزلزله فكرة الزمن ،وزحف الأيام ،وصراع الحياة " (٤)

١– "في عالم المتنبي " د/عبد العزيز الدسوقي صـــ٨٤

٢– راجع ديوان المتنبي صـــ٤/٢٩٦ .

٣–راجع الديوان صـــ٤/٢٦٤ .

٤– "في عالم المتنبي "د/عبد العزيز الدسوقي صـــ٨٣ .

٢-شكوى الفقر وقلة ذات اليد :

توطئة :

شهد القرن الرابع موجة من الفقر ، نتيجة للتناقض الطبقي الحاد بين أفراد المجتمع ، وقد أسهم الوضع السياسي العام الذي لا يقوم على مرتكز قويم وأساس اجتماعي عادل ،بحيث أنتج الجشع والطمع ومصادرة أملاك الغير ، أنتج أنتشار الفقر ، وظهور الفاقة ، وبـــروز الطبقـــة الفقيرة أو المعدمة ،التي كانت تمثل شريحة كبيرة من المجتمع ، وهكذا فقد ظهرالجوع والفقر .

وشعر الشكوى من الفقر في القرن الرابع الهجري أخذ بعداً كبيراً ، ومساحة واسعة من متون الأدب في ذلك القرن ، ولعل أقرب صورة من صور هذا الحال ، ما يعكسه ابن الحجاج (١) ،من حال سيئة حين فرّ من موطنه – طلباً للقوت – وعاتبه القوم في فراره ، مرتكزاً على فرار نبي الهدى صلى الله عليه وسلم لغار حراء يقول :

هربتُ من موطني إلى بلدٍ
قد صقر الجوع فيه منقاري
يقول قومٌ فرّ الخســيس ولو
كان فتىً كان غير فرّار
لا عيب ،لا عيب في الفرار فقدْ
فرّ نبيُّ الهدى إلى الغار

وهذا بن سُكرّة (٢) ، يعطي صورة أخرى لحالة القرن الرابع ، تحمل في ثناياها روحه المرحة ، فيمتزج فيها الحزن بالسخرية ، والشكوى بالضحك ، والجد بالهزل ، حين مر على باب ورأى الكلاب التي أعدت للصيد تلتهم لحوم الحملان الطرية اللذيذة قال :

مــررت على كلاب الصيد يوماً
وقد طرح الأجير لها سخالا (٣)
فلــو أنــي ومــن تحــويه داري
كلابك لم نخف أبداً هزالا
فقل ما شئت في شيخ شــريف
يكون الكلب أحسن منه حالا (٤)

١-ابن الحجاج هو : أبو عبد الله الحسن بن أحمد الحجاج ،شاعر كبير من شعراء القرن الرابع ،راجع اليتيمة ج٣صـــ٣٥ / وصـــ٥٧

٢-ابن سكرة هو :أبو الحسن محمد بن عبد الله بن محمد ابن سكرة الهاشمي، من شعراء القرن الرابع الكبار ،شاعر متسع الباع،راجع اليتيمة ص٣/٣ج

٣-السخال :جمع سخلة :[ولد الشاة من المعز والضأن]راجع لسان العرب /١١صـــ٣٣٢ .

٤-م " الحماسة الشجرية " صـــ٢/ ٩٣٨

،وهذان الشاهدان إتخذا مدلولاً أحادياً ، إلا أنهما يصلحان للشمولية ،والتعبير عن المجموع ، لأن المآسي والأحزان والفقر والمحن التي خيّمت على ذلك العصر ، وألقت بظلالها على أهله ، كانت باعثا لشكوى العديد من شعراء ذلك العصر ، ويمكن اسقاطها على فئة عريضة من المجتمع .

ويبدو أن العصر الذي عاش فيه المتنبي ،غلبت على أهله الفاقة ،والجوع والألم ،والمآسي ،لذ أصبح تفضيل الموت على الحياة في ذلك المجتمع – القرن الرابع – تياراً يشكل ظاهرة انتشرت بين شعرائه ، بعد أن ضاقت بهم السبل ، وسدت طرق العيش في وجوههم فهذا الوزير المهلبي (١) يقول قبل أن يصبح وزيراً وقد بلغ حالة من البؤس ،بحيث يشتهي الطعام فلا مالاً ليبتاع به ،لذا يتمنى الموت الذي يخلصه من العيش الكريه :

ألا موت يباع فأشتريه
فهذا العيش مالا خير فيه
ألا موت لذيذ الطعم يأتي
يخلّصني من العيش الكريه
إذا أبصرت قبراً من بعيد
وددت لو أنني مّما يليه
ألا رحم المهيمن نفس حرّ
تصدّق بالوفاة على أخيه (٢)

وفي مجتمع مثل مجتمع القرن الرابع ، كان لزاماً أن يشيع شعر الشكوى من الفقر ، وتتعالى أنات الفقراء والمعدمين ، نظراً لما ضم هذا القرن من تمزق في جسد الأمة العربية الإسلامية ، وتسلط الدخلاء عليها.

والمتنبي كان شاعراً ذا طموح ، ونفس كبيرة ، وقد قال في إحدى قصائده :

فلا مجد في الدنيا لمن قلّ ماله
ولا مال في الدنيا لمن قلّ مجده (٣)

وحياة المتنبي في صباه ، تعكس أموره المالية " ومن جملة ما عرفوه ، أن والده كان سقّاء يبيع الماء ، وإلى هذا يشير أحد منتقدي الشاعر بقوله يعيّره أصله ، وتعاطيه فن المديح :أي فضل لشاعر،يطلب الفضل من الناس بكرة وعشيّا عاش حيناً في الكوفة يبيع الماء،وحيناً يبيع ماء المحيّا " . (٤)

١–الوزير المهلبي هو :أبو محمد الحسن بن محمد المهلبي ،أديب وشاعر كان وزير معز الدولة توفي ٣٥٢هـ انظر ترجمته في "وفيات الأعيان" صـ٢/١٢٤

٢– "شعر الوزير المهلبي " جمع جابر عبد الحميد الخاقاني صـ١٦٢ .

٣–م ديوان المتنبي صـ٢/ ١٢٣.

٤– م " المتنبي ، دراسة عامة " لجورج غريّب صـ٤٣

والمتنبي إلى جانب فقره ، وحرفة أبيه ، وضِعة نسبه ، أدرك أهمية المال ، فحرص عليه ، وقد أجاب عن ذلك بقوله :

إن للبخل سبباً ، وروى حادثته مع بائع البطيخ ، الذي أبى أن يبيعه الخمسة بطاطيخ بخمسة دراهم، لأنها ليست من أكله ، مع أنه باعها لأحد التجار بدرهمين وحملها إلى داره بنفسه ، وليس لذلك سبب إلا لكون هذا التاجر يملك مائة ألف دينار ، نرى أن أبا الطيب لم يتبع الحزم إلا ليسمع الناس يقولون . أنه قد ملك مائة ألف دينار " (١)

وطفولة المتنبي طفولة صبي معدم ، فقد " نشأ فقيراً معدماً " (٢)

استمر حاله ، " وظل يشكو ألم العدم طيلة بقائه في الكوفة ، وتجوله في البادية " (٣)

ثم أخذ يطرق أبواب الرزق ، بحثاً عن لقمة العيش ، وسد الحاجة " محترفاً صنعة الأدب ، مصراً على العيش منها .

وكان كثيراً ما يكرر في سفره أنه يتوقُ إلى قوت يومه... وهو القائل :

لَم الليالي التي أخنتْ على جدِتي
برقةِ الحالِ ،واعذرني ولا تلمِ (٤)

وكان يقيّض هممه ، مسافراً في شرق البلاد وغربها ، " وينتقل من حومة إلى حومة ، بحثاً عن اللقمة ، حتى ضاق ذرعاً ، ومل التجوال فقال في صباه :

ضاق صدري وطال في طلب الرزق
" م "
قيـــامي ، وقـــلّ عنه قُعودي
أبـــداً أقطـــع البـــلاد ، ونجـــمي
في نُحوسٍ ، وهمـــتي فـــي سُعودِ (٥)

واستمر وضع المتنبي على هذه الحالة ، يسير شرقاً وغرباً حتى " وصل إلى إنطاكية . دخلها وهو يحثّ الخطا بحثاً عما يسدّ به الرمق ، إلى أن وقف على باب المغيث بن علي العجلي ، فقال له :

١–م " المتنبي ،دراسة عامة " لجورج غريّب صـــ٢٨ .

٢– م " المتنبي مالئ الدنيا و شاغل الناس "د/محمد التو نجي صـــ٣٤ .

٣– م " المتنبي مالئ الدنيا و شاغل الناس "د/محمد التو نجي صـــ٣٥ .

٤–م " المتنبي مالئ الدنيا و شاغل الناس "د/محمد التو نجي صـــ٣٤.

٥– المصدر السابق صـــ ٣٤ .

لما أقمت بإنطاكية اختلفت
إلي بالخبر الركبانُ في حلبا
فسرت نحوك ، لا ألوي على أحدٍ
أحثّ راحلتي : الفقر والأدبا (١)

ثم يشتكي المتنبي من قلة ذات اليد ، ومن ضيقة الفقر ، وقد أراد أن يجازي ممدوحه بالمال ، ولكن دون ذلك العدم والفقر ، يقول مخاطباً نفسه :

لا خيل عندك تهديها ولا مال
فليسعد النطق ، إن لم تسعد الحال (٢)

ويبث شكواه إلى بدر ابن عمار ، في محاولة لطرد الفقر وتحسين الحال يقول :

رجاء جودك يطرد الفقر
وبأن تُعادى ينفدُ العمر
ما يرتجى أحد لمـــكرمةٍ
إلا الإلـــه ، وأنت يا بدر (٣)

ثم يخاطب محمد ابن زريق ، شاكياً له بعد المسافة ، وإن الزاد نفد والدار بعيدة :

وقد قصدتك والترحال مقترب
والدار شاسعة والزاد قد نفدا (٤)

والمتنبي لا يطلب المال فقط ، بل له مطلب آخر يتمثل في ولاية أو ضيعة ، وقد قالها صراحة لكافور :

أبا الملك ، هل في الكأس فضلٌ أناله
فإني أغني منذ حينٍ وتشرب
إذا لم تنط بي ضيعة أو ولايةً
فجودك يكسوني وشغلك يَسْلُبُ (٥)

ثم صدم في كافور ، فقلب ظهر القصيد ، عليه ، وهجاه هجاءً مراً ، في محاولة لإظهار يأسه وتذمره ، وشكواه :

أمسيت أروح مثر خازنـــاً ويداً
أنا الغني ، وأموالي المواعيد
إني نزلت بكذا بين ضـــيفهم
عن القرى ، وعن الترحال محدود (٦)

١- م "المتنبي مالئ الدنيا وشاغل الناس"/ محمد التونجي، صـــ٣٥ .
٢- م ديوان المتنبي صـــ٣/٣٩٤ .
٣- م ديوان المتنبي صـــ٢/٢٤٤ .
٤-م ديوان المتنبي صـــ٢/ ٦٩ .
٥-المصدر السابق صـــ١/ ٣٠٦ .
٦- م ديوان المتنبي صـــ٢/ ١٤٢ .

وقد استمر المتنبي – في تسوله – من الأمراء والوزراء ، والخلفاء ، وهو كثير ، في ديوانه منها قوله مخاطباً سعيد ابن الحسين الكلابي :

حتى وصلت بنفس مات أكثرها
وليتني عشت منها بالذي فضلا
أرجو نداك ، ولا أخشى المطال به
يامن إذا وهب الدنيا فقد بخلا (١)

والمتنبي مع ذلك عُرف عنه البخل والشح"ولم يكن فيه ما يشينه ويسقطه إلا بخله وشرهه على المال" (٢)

والقرن الرابع الذي عاش فيه المتنبي ، عصر يعج بالشكوى من الفقر ، لذا لا نعجب من تنقل المتنبي من أجل المال ، فقد كان للعامل الاقتصادي أثره الكبير في حياة المتنبي وشكواه ، ولقد أصبحت الشكوى من قلة ذات اليد ظاهرة أفرزت جماعة من المكدين الطوافين في ذلك العصر

" مما هو عظيم الدلالة أننا لا نجد في الشعر العربي مكاناً للمكدّين الطوافين قبل القرن الرابع " (٣)

وبهذا يكون المتنبي أمضى حياته ، طارقاً الأبواب ، سائلاً الأمراء عطاياهم

" والظاهر أن حالة المتنبي المالية لم تتحسن إلا بعد أن استقر به المقام في أرض الشام ، لأنه حتى في أ ول عهده بالشام يشكو الفقر وسوء الحالّ " (٤)

ويؤكد هذا الرأي ما قال المتنبي – مخاطباً – سيف الدولة ، متباهياً بأن ترك الرحيل لطلب المال ، وأنه من الإثراء بحيث ينتعل الذهب هو وفرسه :

تركتُ السُّرى خلفي لمن قل ماله
وأنعلت أفراسي بنعماك عسجدا (٥)

١–م ديوان المتنبي صـــ١٧١/٣

٢–م " المتنبي ، دراسة عامة " لجورج غريّب صـــ٢٨ .

٣–م "الحضارة الإسلامية في القرن الرابع " آدم متز صـــ٤٩٤ .

٤–م المتنبي بين ناقديه في القديم والحديث "د/عبد الرحمن شعيب صـــ٢٢ .

٥–م ديوان المتنبي صـــ١٥/٢ .

٣- الشكوى من الناس:

توطئة:

" إن الاجتماع الإنساني ضروري ، ويعبّر الحكماء عن هذا بقولهم : " الإنسان مدنيٌّ بالطبع " ،أي لا بد له من الاجتماع الذي هو المدنيّة في اصطلاحهم وهو معنى العمران " (١)

فالاختلاط بالناس ، والاحتكاك معهم شرط من شروط الاستخلاف في الأرض ، بل ضرورة ملحة لاستمرار الحياة ، وسير شؤونها .

لا يمكن أن يبرأ أي مجتمع من التناقضات التي تتصادم في داخله حيناً ، وتتآلف حيناً آخر ، لذا ينتج عن هذه العلاقة المتحركة ، والمتقلبة بين الحب والبغض ، ما يكدر الصفو ، ويرسل الشكوى ، ويبعث الحزن.

" وطبيعة العمل الأدبي مرتبطة كل الارتباط بالبيئة التي نشأ بين ظهرانيها ، والأرض جاء وحيه من أديمها . فإذا ما أحسن الدارس التعرف على بيئة "ما " كان من اليسير عليه أن يصدر أحكاماً أقرب إلى الصواب ، وأدنى إلى الصحة على الأعمال الفنية ، ومنها الشعر ، التي تنشأ في هذه البيئة أوتلك " (٢)

ومجتمع القرن الرابع كغيره من المجتمعات ، وكغيره من البيئات نمت داخله التناقضات التي أثمرها الواقع السيء ، وتمثل في تسلط الحاكم الأجنبي ، وتردي الأوضاع الاقتصادية ، وخاصة في العراق التي شهدت طفولة المتنبي .

" وعندما يكون الوضع السياسي والظلم الاجتماعي فإن الألحان تتسم بالحدة والسخط والحزن " (٣)

وإن كان هناك ما يفسد العلاقة بين الناس ، فيدفع الشعراء إلى التضجر ، والشكوى والتبرم ، فإن البعض منهم ، قد جاوز الحد في ذلك التبرم والتشكي مجاوزة عظيمة ، فبمجرد أن يتضايق من صديق ، أو يشكو من غدر قريب ، أو خدعة صاحب ،حتى يعمم شكواه ، وينقل سخطه على الناس أجمعين ، فيمسون مدانين بجريرة غيرهم ،" إذ ليس كالعربي من يحول القضايا الشخصية إلى قضايا عامة،والقضايا العامة إلى قضايا شخصية " (٤)

١- م "مقدمة ابن خلدون "صـــ٤٦ .

٢-م "أبو الطيب المتنبي في مصر والعراقين "د/مصطفى الشكعة صـــ١٠٥ .

٣-دراسات في علم الجمال .د/عدنان رشيد صـــ٢٧٣ .

٤-م "سأخون وطني "لمحمد الماغوط صـــ١٣٤ .

وفي شعر المتنبي الكثير من هذه النماذج ، التي تعكس معاناته الشخصية في المجتمع ، والشعور بقلة المساعدين ، مما جعله يشعر بالغربة بين الناس :

أمـــا في هذه الدنيا كريم
تزول به عن القلب الهموم
أمـــا في هذه الدنيا مكان
يسر بأهله الجار المقيم (١)

ونجد في شعر المتنبي في هذا الغرض نماذج تدعو إلى معالجة جانب تربوي في المجتمع ، وبناء علاقات تطمح إلى الكمال .

فهو شعر موجه نحو القيم العالية ، والأخلاق الفاضلة ، لأنه يريد لإنسان عصره ، أن يتجاوز المثالب ويطمح إلى المناقب ، لذا فهو يشكو تخاذل الناس وتقاعسهم عن الكمال :

ولم أرى في عيوب الناس عيباً
كنقص القادرين على التمام (٢)

وتتضح شكوى المتنبي من الناس ، ونقمته عليهم – وهو المجرب – لما يمارسونه من الخداع الممزوج بالود ، والتدين المخلوط بالنفاق :

إذا ما الناس جـــرّبهم لبيب
فإني قد أكـــلتهمُ ، وذاقا
فلم أر ودهـــم إلا خـــداعاً
ولم أر دينـــهم إلا نفـــاقـــا (٣)

وأحياناً يُكون أذى الناس للمتنبي دافعاً للفخر ، والتعالي ، والمكابرة ، فالذين رموه من خساس الناس ، منهم من عابه بما فيه ، ومنهم من لم يؤثر فيه لحقارته ، فهو كمن يرمي قطعة قطن ، لذا فهو جاهل بقدر المتنبي ، وجاهل بهذا الجهل ، فهو وإن ملك الأرض ، واعتلى فوق السماء ، كان ذلك دون مقتضى همته:

رماني خساس الناس من صائب استه
وآخر قطن من يديه الجنادل
ومن جاهل بي ، وهو يجهـــل جهله
ويجهل علمي أنه بي جاهل
ويجهل أني مالك الأرض معـــسر
وأني على ظهر المساكين راحل (٤)

١–م ديوان المتنبي صـــ٢٨٢/٤ .

٢–م ديوان المتنبي صـــ٤/ ٢٧٥ .

٣– م ديوان المتنبي صـــ٤٧/٣ .

٤– م ديوان المتنبي صـــ٢٩٢/٣ .

وقد يصل الأمر بالمتنبي أن يذم أهل الزمان كلهم ويستثني نفسه فهم صغار ، وإن كانت لهم جثث ضخام ، وهو وإن كان معهم إلا إنه يختلف عنهم ، كما تضم الأرض التراب والذهب :

ودهـــر ناســـه نـــاس صغار
وإن كانت لهم جثث ضخام
وما أنـــا منـــهم بالعيش فيهم
ولكن معدن الذهب الرغام (١)

" وكان المتنبي برماً بتلك الأوضاع ، فنقم على الناس ، وكون لنفسه مذهباً متميزاً عن البشر ... ورأى أن لا ينخدع أحد بابتسامات الخداع .

ولكنه كان يكتم شكواه عن غيره ، حتى لا يشمت به حاسد ، واستخلص من هذا المنطق رأياً فيه حكمة ترتاح إليها النفوسُ (٢) فقال ناصحاً ، واعظاً :

ولا تسلوّ إلى خلق فتشتمه
شكوى الجريح إلى الغربان والرّخم
وكن على حذر للناس تســتره
ولا يغـــرك منهم ثغـــر مبتسم
غاض الوفاء فما تلقاه فـــي عـــدة
وأعوز الصدقُ في الأخبار والقسم (٣)

فالمتنبي بالرغم أنه ينهي عن الشكوى للناس ، لأنها مثل شكوى الجريح للطير التي ترقب موته لتأكله ، إلا أنه متضجر تضجراً يخفي خلق شكوى وحسرة وحزن ، فالوفاء نقص ، والكذب صار منتشر بين الناس .

وأبرز معطيات الشكوى من الناس لدى المتنبي ، تتمثل في الحسد والحساد ، ويلقي باللائمة في سبب هذا الحسد على سيف الدولة مرة ، فهو الذي فتح الباب للحساد لما منحه للمتنبي من نعمة وعطاء :

أزل حسد الحساد عني بكبتهم
فأنت الذي صيّرتهم لي حُسّدا (٤)

وتضطرب جدلية الحسد والمتنبي فتأخذ مناحي شتى منها ما يصدم بطموحه وتعاليه ، وشعوره الذاتي

١-م ديوان المتنبي صـــ٤/١٩٠ /١٩١ .

٢-م "الموازنة بين الحكمة في شعر المتنبي والحكمة في شعر أبي العلاء " لزهدي صبري الخواجا صـــ٢٩٥

٣-م ديوان المتنبي صـــ٤/٢٩٥ .

٤-المصدر نفسه صـــ٢/١٣ .

بنفسه ، وكأنه البحر من يزاحمه يغرق :

وما كمد الحساد شيـــئاً قصدته
ولكنه من يزحم البحر يغرق (١)

وتأخذ أحياناً طبع الوشاية ، والتحجيم من شأن المتنبي ، فهذه " المذمة " هي الشهادة لكمالي ، وخلوي من النقائص .

وإذا أتتك مذمـــتي من ناقص
فهي الشهادة ليّ بأني كامل (٢)

وتأخذ أحياناً كثرة الحساد ، مسلكاً استجدائياً ، وليطلب العطاء ليغيض به الحساد :

وقـــد منـــيت بحـــساد أحارُبهمْ
فاجعل نداك عليهم بعض أنصاري (٣)

بعد ذلك يدخل المتنبي في ظلام الشكوى ، مازجاً الحساد بها ، فهم يحسدونه على حظه المنحوس الذي لو طلبوه ، لأعطاهم إياه ، فحياة المتنبي " ليست بالشيء الذي يحسد عليه ويرغب فيه لأنها خلو من السرور " (٤) ، لذا يقول :

فلو أنيّ حسدت على نفيس
لَجدت به لِذِى الجد العثور
ولكني حسدتُ على حياتي
وما خير الحياة بلا سرور (٥)

" وحساد المتنبي " عائبون يلاحقونه في كل بلد ، وكل قصر أيضاً ، ولا بد أن فيه شيئاً يبعث على الحسد والغيظ ، كالشخصية ،أو الشاعرية ،أو الشهرة ،أو المكانة " ولولا ذلك لما تكاثف حوله الحساد " (٦) لذا نجده يعذرهم في حسدهم إياه ، لأنهم معاقبون بتقدمه عليهم ، وظهور نقصانهم بزيادة فضله عليهم ، وكيف لا يحسد من له قدم على كل هامة :

إني وإن لـــمت حاسديّ فما
أنكر أني عقوبة لهم
كيف لا يحـــسد أمروٌ عَلَمٌ
له على كل هامةٍ قدَمَ ؟! (٧)

١-م ديوان المتنبي صـــ٣/٥٨ .

٢-المصدر نفسه صـــ٣/٣٧٦ .

٣-م ديوان المتنبي صـــ٢/٢٤٥ .

٤-م شرح ديوان المتنبي " للبرقوقي صـــ٢/٢٤٨ .

٥-م ديوان المتنبي صـــ٢/ ٢٤٨. ٦- م " المتنبي مالى الدنيا وشاغل الناس "د/محمد التونجي صـــ٢٦٣ . ٧- م ديوان المتنبي صـــ٤/١٨٠ .

ثم تجمعت عليه الأحزان من جهات كثيرة فالزادُ قليل ،والفؤاد متعب ، والحساد كثر،والمراد شاق وصعب:

قليلٌ عائدي ، سقم فؤادي
كثير حاسدي صعب مرامي (١)

" والذي يدعو للعجب أيضاً ، أن الحسد ينمو كالنبات مع مرور الأيام ، ونراهم ضيقي النفس معه، يلاحقونه أسرع من النار في الهشيم " (٢)

والمتنبي يجيد خلق الحساد له ، والعداوات . مع الناس ، مرة باحتقارهم ، وأخرى بالتعالي عليهم

" إنه يولّدُ الحساد في كل قصر ، فأول ما يقوم به في الحِلّ الجديد أنه يتذلف بالدخول ويحتقر الحضور. فيثير حفيظة الناس ، ويعتبرهم أدنياء من أول قصيدة على الأسماع ، فيحل الهرج والمرج بين الحفل ، ويصبح اسمه على كل لسان ،وهذا ما يريد ،فيعمد إلى استغلال هذا الموضوع باحتقارهم ورفع نفسه" (٣)

وهكذا أخذ المتنبي يرسم الناس والشكوى منهم ، والحسد الذي لقيه من جراء طموحه وعلو نفسه ، وقد كان أحد الأسباب المؤدية إلى نشوء مثل هذه المقالب والرذائل التي تعرقل مسيرة العلاقات الاجتماعية والإنسانية الصادقة . وهذا يفسر تسمية ابنه باسم " محسّد "

٤- الشكوى من الشعراء:

توطئة:

ازدهر الشعر في القرن الرابع الهجري ، واتسعت دائرته ، فقد ضم كوكبة من أبرز الأسماء في خارطة الشعر العربي ، أليس هذا القرن هو الذي ضمّ المتنبي وأبا فراس الحمداني والشريف الرضي،وابن سكرة ، والسري الرفاء ، وكشاجم ، والصوري ، وأبا هلال العسكري ، وأبا الفتح البُستي ، والوأوأ الدمشقي ، وابن لنكك وغيرهم كثير (٤) .

ولا محال أمام مجتمع يزخر بمثل هذا العدد من الأسماء الشعرية من نشوء لحاسد ، وتنافس ، وتسابق مما كان له أكبر الأثر في إذكاء نار الغيرة ، واشتعال جذوة التنافس على الإجادة ، والإبداع ، مما يزيد

١-المصدر السابق صـــ٤/٢٧٦ .

٢-راجع" المتنبي مالئ الدنيا وشاغل الناس "د/محمد التونجي صـــ٢٦٣ .

٣-م " المصدر السابق "صـــ٢٦٤ .

٤-لمزيد من الشعراء في القرن الرابع يراجع"يتيمة الدهر " الجزء الثاني فقد ذكر عدد هائل من الشعراء وقطعاً من إنتاجهم .

الأمر أهمية ، أن الشعر أصبح وسيلة للعيش ، وطريقة للتكسب .

والمشهد الأدبي في القرن الرابع مشهد امتلأ بالخصومات والمسابقات بين الشعراء فيما بينهم ، لذا وجدت الشكوى لها مجالاً بأن تنبت فيما كانت هذه الخصومة والشكوى مدفوعة بالغيرة مرة ، والحسد مرة أخرى .

وقد ساهم الأمراء والولاة أنفسهم في اتساع دائرة الخلافات والمنافسات بين الشعراء ، إذ شاهدوا فيها "متعة نادرة يستغلونها ، لذلك فهم إن لم يكونوا يحرّضون الشعراء فيما بينهم ، فهم في تقريبهم لبعضهم ونفورهم من بعض آخر ، يسهمون إسهاماً كبيراً في خلق مثل هذه الأجواء المشحونة .بالمهاترات اللفظية التي تنز بالحسد والغيرة " (١)

ولعل المتنبي من أبرز الشعراء ، الذين شكوا من ظاهرة غيرة الشعراء ، ومضايقتهم له .

فبعد أن استقر به المقام في رحاب سيف الدولة وتنفس هواء الاستقرار ، وشعر بطعم الراحة ، فأخذ ينشد في حضرة سيف الدولة " سيفياته " ، التي تعتبر من عيون شعره ، ويرافقه في حروبه ذاكراً مناقبه وصفاته ، وأخلاقه ، وبعد كل هذا ، " ما أقسى على الشاعر – خاصة – أن يطغى عليه شاعر آخر في بلاط واحد !! إن نار شهرة المتنبي أحرقت – بل أذابت – جذوة سائر الشعراء . وليس ببعيد أن ينهض هؤلاء ، ويسعون ، بما أوتوا من سبيل ، إلى إخماد سعير هذه النيران ، التي سيطرت عليهم وبهرتهم بأشعتها ، وقد كان سلاحهم في ذلك الحسد ، والتشهير ، وإبراز العيوب ، والكذب ، وتلفيق الكلام ، والتندر بتباهيه ، والتشكيك في تفاخره ومحبته : سعياً وراء إفساد ما أصلحه الدهر بين الأمير والشاعر" (٢)

ومما يزيد في إذكاء جذوة العداوة ، ويرفع من لظاها تعالي المتنبي على سائر الشعراء ، عندما ينشد أشعاره التي تشعّ بالتحدي ، وتصادر الآخرين وأشعارهم ، إذ لم يأتوا إلا بأشعاره " المرددة " ، والدهر أول راوٍ لها :

وما الدهر إلا من رواة قصائدي
إذا قلت شعراً ، أصبح الدهر منشدا
أجزني إذا أ نشدت شعراً ، فأنني
بشعري أتاك المادحون مردداً

١– م " المجتمع العراقي في شعر القرن الرابع للهجرة "لعبد اللطيف الراوي صـــ٧٢ .

٢– م " المتنبي مالئ الدنيا وشاغل الناس "د/محمد التونجي صـــ١٠٢ .

ودع كل صوت غير صوتي ، فإنني
أنا الطائر المحكيّ ، والآخر الصدى (١)

ثم يلتفت إلى الحساد – من الشعراء – مخاطباً سيف الدولة ، بعد أن طلب منه أن يعطيه مكافأة

التي هي من مسلوخة من أشعاره ، يقول :

أزلْ حسد الحساد عنّي بكبتهم
فأنت الذي صيرتهم لي حسّدا (٢)

ولكن الحساد – وأبو فراس منهم – ما كان ليرضيهم مثل هذا المشهد ، فلم يسكتوا ، بل صمموا على الإطاحة والكيد بالمتنبي .

" ففي الصبح بلغ المتنبي أن أبا فراس قال لأبن عمه : " إن هذا المتشدق كثير الدلال عليك ، وأنت تعطيه

كل سنة ثلاث آلاف دينار على ثلاث قصائد . ويمكن أن تفرّق مئتي دينار على عشرين شاعراً يأتون بما هو خير من شعره " (٣) .

وهكذا أخذت الحكايات والوشايات ، تأخذ طريقها إلى فؤاد سيف الدولة ، حتى وصل الحال إلى مفترق

الطريق ، لتطلع بوادر الرحيل ، والسفر من جانب المتنبي حين جرح بقوله – متضايقاً – من ضغوط

الحسد ، ومضايقة الشعراء :

إن كان سرّكم ما قال حاسدُنا
فما لجرح إذا أرضاكم ألم (٤)

ثم يشير إلى السفر ، متحسراً على الفراق :

يا من يعــزُّ عليــنا أن نفارقهم
وجداننا ، كل شي بعدكم عدمُ (٥)

وصراع المتنبي مع الشعراء وحسدهم له كثير ، وكتب الأدب مليئة به، وما هذا الذي ذكرت إلا نماذج فقط

وترتفع شكوى المتنبي من الشعراء ، حين يمزج الوجع بالسخرية ، ففي كل يوم يخرج له " شو يعر " لا

قوة له ، ولا حول ، بحيث يستطيع المتنبي حمله تحت إبطه من خفته :

أ في كل يوم تحت ضبني شويعر
ضعيف يقاومني ، قصير يُطاول (٦)

١–م ديوان المتنبي صـــ١٤/٢ /١٥ .

٢–م ديوان المتنبي صـــ١٣/٢ .

٣– م" المتنبي مالئ الدنيا وشاغل الناس "د/محمد التونجي صـــ١٠٣ .

٤– م ديوان المتنبي صـــ٨٧/٤ . ٥– المصدر السابق صـــ٨٧/٤ . ٦– المصدر السابق صـــ٢٣٧/٣ .

" إنهم تحاملوا على المتنبي مسوقين بعوامل عدة منها أنه رزق الشهرة وحظي بالمكان العالي ، وأنه جوّد في كثير من شعره ، حتى سار سيرورة الأمثال .

ثم إن غير واحد من الرؤساء قد دفع هؤلاء إلى أن يتعرضوا لشعره بالنقد والتجريح . ومن غير شك أن الوزير المهلبي والصاحب ابن عباد قد شاركا في دفع النقاد والشعراء إلى النيل من المتنبي والحط من شعره وتهجينه ، وبيان سقطاته ، ومساوئه .

وقد أشار المتنبي إلى هذا " (١) فقال :

أرى المتشاعرين غروا بذمي
ومن ذا يحمد الداء العضالا (٢)

وتعالي المتنبي على الشعراء ، وإحتقاره لهم ، لا يغادر قصائد المتنبي ، فهو يخاطب سيف الدولة بأن لا يُبالي بالشعراء بعد شعره ، فقد أفسدوا الشعر ، حتى يحمد الصمم على سلامة الذوق :

ولا تــبال بشعر بعد شاعره
قد أفسد القولُ حتى أحُمد الصممُ (٣)

وتبرز فكرة " حرفة الأدب " كوظيفة من وظائف القرن الرابع الهجري ، لعل الحرمان أبرز العوامل التي أظهرت هذه الحرفة ، حيث نجد الشاعر الصوري (٤) ، الذي أتعبه طرق أبواب الوجهاء ، عارضاً بضاعته الكاسدة من الشعر ، فكان بيع الشعر بالثمن الرخيص أكثر ما يؤلمه ، ويبعث شكواه يقول :

وإلى كم أسير في الأرض كي
ألــقى فلانــاً ، واستميح فلانا
تحــت ســوق مــن الــكساد
يباع الشعر فيه مسترخصا مجانا (٥)

والمتنبي في عهد حداثته في السن ، كان يزاول مهنة بيع الشعر بأقل الأسعار ، وأزهد الأثمان ، " ولم يكن يمانع أن يكون ثمن القصيدة طبقاً من الطعام " (٦)

حين يجعل من ممدوحه أسطورة في الكرم ثم يتجاوز في مكافأته دريهمات ، بل وصلت إلى دينار واحد ،

١-مجلة المورد،المجلد السادس ،خريف ١٣٩٧ ،مقال بقلم /د-إبراهيم السامرائي صـــ٧ .

٢- راجع ديوان المتنبي صـــ٣٤٤/٣ . ٣-م ديوان المتنبي صـــ١٤٢/٤ .

٤- هو أبو محمد عبد المحسن بن محمد الصوري ،الشاعر ت٤١٩ هـــ انظر ترجمته في وفيات الأعيان صـــ٢٣٢/٣

٥-ديوان الصوري صـــ٥٩/٢ . ٦-م " المتنبي مالئ الدنيا وشاغل الناس "د/محمد التونجي صـــ١٦٤ .

تلك القصيدة التي سميت بالدينارية، " ولهذا كان يشكو الحالة المزرية التي وصل إليها ، فقد قال يمدح بعض التنوخيين " (١)

إلى كم ذا التـــخلف والتـــواني
وكم هـــذا التمادي في التمادي ؟!
وشغل النفـــس عن طلب المعالي
ببيع الشـــعر في سوق الكساد ؟
أ أرضى أن أعـــيش ، ولا أ كافأ في
عـــلى مال الأمير من الأيادي ؟! (٢)

وهكذا يكون الشعر عند المتنبي ، طريقاً للحسد ، وممراً لعداوات الشعراء ، بل يتجاوز ذلك إلى أن يرمي من كرامة المتنبي بين يدي الممدوحين ، ولا يقف الأمر عند هذا الحد ، بل يتحسر المتنبي ، ويتألم على بيع الشعر في سوق الكساد ، كما مر قبل قليل .

٥- الشكوى من الأصدقاء:

لا نستطيع أن نبرئ أي مجتمع من التداخلات والتناقضات التي تعتمل في ساحته من جراء احتكاك أعضاء المجموعة التي يضمها مكان من الأرض .

والصداقة تبرز كمعطىً اجتماعي ملح تفرضه ديمومة الحياة ، واستمرار إعمارها .

والقرن الرابع – كغيره – من القرون وُجد فيه ما يوجد بين الصديق وصديقه ، من انعدام الود ، وذهاب الصفاء ، وزوال الأخوة الصادقة ، القائمة على التضحية والإيثار .

وكثير من شعراء القرن الرابع ، اشتكوا من الصداقة ، وزوال الود والصفاء ، بين الأصدقاء ، فهذا ابن وكيع (٣) يقول :

فسد الناس كلّهم وانقضى
" م "
الود فما في الورى أخٌ ذو صفاء
وإذا ما الصديقُ عاد عـــدوّاً
فـــهـــو مســـتكره مـــن الأعداء (٤)

---

١ – م " المتنبي مالئ الدنيا وشاغل الناس "د/محمد التونجي صـــ١٦٤ . ٢–م ديوان المتنبي صـــ٢/٧٧/ ٧٨ .
٣–هو أبو محمد الحسن بن علي الضبي ،المعروف بابن وكيع التنيسي المتوفى ٣٩٣ انظر ترجمة "وفيات الأعيان " صـــ٢/١٠٦ .
٤–م "بهجة المجالس ، وأنس المجالس " للقرطبي صـــ٢/٦٧٨

والمتنبي يبحث عن الأصدقاء ، الذين يحبون التضحية ، ويدخلون السرور على الأنفس ، وإشكاليته مع الأصدقاء جزء من معاناة من الناس كافة ، " فالشاعر هنا يشكو قلة الكرم حوله ، حتى توهم الدنيا خالية من كريم يؤنس به ، وتزيل مخاطبته الهموم " (١)

لذا قال :

أمـــا في هـــذه الدنـــيا كـــريمُ
تزول به عن القلب الهموم (٢)

وأحياناً يضيق بالصداقة ذرعاً ، فينفي الصديق ، إذ لا صديق لأحد في الحقيقة إلا نفسه ، وإن كثر التملق وخضع لك بالقول :

خليلك أنـــت لا مـــن قلـــتَ خليٌ
وإن كثُرَ التجمل والكلامُ (٣)

ويضيق ويتبرّم من الصداقة ، معلناً بأنه وحيد لا خل له ، في حالة الحاجة إليه ، لأنها حاجة عظيمة ، وإذا أضيف فقدان الصديق مع مطاردة الليالي له ، فإن الشكوى تكون أكبر ، والحزن أعظم :

أهمّ بشيءٍ ، والليالي كأنها
تطاردني عن كونه وأطارد
وحيدٌ من الخلان في كل بلدة
إذا عظم المطلوب قلّ المساعد (٤)

" ولعل هذه النظرة السوداوية التي وصم بها أخلاق مجتمعه راجعة إلى فقدانه الصديق المخلص" (٥)

ويشتكي أحياناً من قلة الصديق ، في أسلوب حكمي ...، حين تكون الخيل كالصديق قليلة ، مع أنها كثيرة في عين من لم يجرب الحياة بعد ، ولم يغص في مناكبها :

وما الخـــيل إلا كالصديق قليـــلة
وإن كثرت في عين من لا يجرّب (٦)

وتستمر ملاحظة المتنبي ، وشكواه من الأصدقاء ، حين تكون الصداقة ، من ممارسات الناس ، والناس

١-م "المتنبي دراسة عامة "لجورج غريّب صـــ٢٩٤ .

٢-م ديوان المتنبي صـــ٢٨٢/٤ .

٣-المصدر السابق صـــ١٩٢ .

٤-م ديوان المتنبي صـــ١/ ٣٩٢ – ٣٩٣ .

٥-م " المتنبي مالئ الدنيا وشاغل الناس "د/محمد التونجي صـــ٢٢٩ .

٦- م ديوان المتنبي صـــ٣٠٤/١ .

أهل الخداع والممازقة ، فقد أخذ يشك في كل من يصافي ، وكل من يخالل :

فلما صار ودُّ الـــناس خبا
جزيت على ابتسام بابتسام
وصرتُ أشـــكُّ فيمن أصطفيه
لـــعلمي أنه بعض الأنام (١)

ويركز المتنبي في متطلبات الصداقة على الكرم ، وكريم السجايا ، لذا فهو لا ينفر من الصديق والصاحب بل من الأخ والشقيق ،إذا لم يكن من أهل الكرم والجود :

وآنف من أخـــي لأبي وأمي
إذا مالم أجـــده مـــن الكرام (٢)

ولكن المتنبي رغم كل هذا التبرؤ من الأصدقاء ، والتملص منهم ، ونعتهم بأشد النعوت ، الممتلئة بالشكوى والتشاؤم ، واليأس من وجود الكريم من الأصدقاء ، إلا أنه يضطرب في أحكامه ليقرر في أحد قصائده بأن شر البلاد ، هي تلك البلاد التي لا صديق فيها :

شرُّ البلاد مكان ، لا صـــديق به
وشرُّ ما يكسِبُ الإنسانُ ما يَصِمُ (٣)

فالمتنبي يحاول الاستغناء عن الصديق ، والاحتماء بنفسه ، ولكن تظهر شكواه في حاجته الملحة لوجود صديق يعينه على طموحه ، ويآزره على أعباء الحياة ، في حين غياب هذا الوفيّ ، وهنا مكمن شكوى المتنبي ، وآلامه .

١-م ديوان المتنبي صـــ٤/٢٧٤

٢-الديوان نفسه صـــ٤/ ٢٧٥ .

٤- الديوان نفسه صـــ٤ / ٨٩ .

الفصل الثاني

حالات الشكوى الخاصة

١- الشكوى من الموت.
٢- الشكوى من المرض.
٣- الشكوى من الليل.
٤- الشكوى من الهجر.
٥- الشكوى من الشيب والكبر.
٦- الشكوى من الغربة.
٧- الشكوى من السجن.
٨- ما يُوحِي بالشكوى.

توطئة :

يقول الله عز وجل" لَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنسَانَ فِي كَبَدٍ ﴿٤﴾"(١) ، فالإنسان على هذه الأرض رهين المتاعب ، وأسير المكابدة ، يشقى بما يشقي ، ويسعد بما يسعد ، يعيش بين أوهام السعادة ، وأحاسيس الحزن ، موزع نفسه بين الأمل والرجاء من جهة ، واليأس والقنوط من جهة أخرى .

والشكوى الخاصة ، هي ما يلامس ذات الإنسان بعيدا عن المؤثرات الخارجية ، والعوامل الاجتماعية ، وتنتظم في صدود حبيب ، أو انتشار حزن ، أو مكابدة شكوى ...!!

والقرن الرابع أظهر أنماطا من هذه الشكوى ، التي لم تكن للمؤثرات العامة أثر في استنباتها ، أو دور في نتوئها .

وتمثل ما يحثها في دواخل ذاتية ، وهموم خاصة ، وأحزان فردية ، تشكلت بطريقة أو بأخرى ،في القرن الرابع الهجري كما تشكلت في كل المجتمعات على تباين أوقاتها وإختلاف أشكالها .

ولكن رغم الذاتية الفردية التي اتسمت بها هذه الشكوى ، إلا أن هذا لا ينفي أن تكون للمؤثرات الطارئة انعكاسات على شيء من محاورها ، بشكل غير مباشر .

والمتنبي من الشعراء الذين عبروا عن همومهم الذاتية ، وشكواهم الخاصة من خلال رؤيته المنبثقة من موقفه ، والنابعة من تجربته الشعرية الخاصة .

وقد ارتأيت تقسيم الشكوى إلى حالات وفقا لمقتضيات المادة الشعرية .

١-سورة البلد الآية (٤) .

الفـــصل الثـــاني

حـــالات الشكـــوى الخـــاصة

١ –الشكوى من الموت :

توطئة :

يدرك الشعراء قوله تعالى " كُلُّ نَفْسٍ ذَآئِقَةُ ٱلْمَوْتِ "(١) ، ويؤمنون بأنه قدر لا مفر منه ،ينزله الله تعالى على الإنسان ، ليرحل من الحياة الدنيا إلى الحياة الآخرة ، ويجازى إن خيرا فخير ، وإن شرا فشر . إلا أن الموت كزائر ، يلقى بظلاله على النفوس ليبعث الحزن إذا الحدث المؤلم ويولد الشكوى والأسى . ولقد كان موت ذي القربى ، والأجنة ، والأصدقاء ، مرا على قلوب الشعراء – فضلا – عن أنه دلالة حزن ، ومبعث شكوى ، فهو إلى ذلك تحذير للأحياء ، ونذير بموتهم ،خاصة والعصر يعج بالظروف العامة القاسية التي جعلت استقرار الإنسان ومعيشته مهددة بأسباب الموت ، كل هذا جعل من الرثاء شكوى ، والتناقض والجوع والبؤس مؤشرات جديدة تدفع إلى القلق ، والخوف من المصير .

ولعل الشريف الراضي – من أصدق شعراء القرن الرابع – حين كان يرى أن موت صديقه تحذيرا له ، إذ يقول :

تَجَافَى الرَّدَى عَنْهُ ، فَلَمَّا أَفْنَيْتُهُ
سَقَانِي فِيهِ مُرَّ مَا أَنَا ذَائِقُهُ
فَسُرَّ بِهِ قَلْبِي ، فَغَالَ مَسَرَّتِي
زَمَانٌ ظَلُومٌ لِلسُّرُورِ يُسَارِقُهُ
أَرَى يَوْمَهُ يَوْمِي ، وَأَشْعُرُ فَقْدَهُ
بِأَنِّي ، وَإِنْ طَالَ التَّلَوُّمُ لَاحِقُهُ (٢)

والمتنبي إزاء الموت ، مؤمن صادق يدرك أنه " آت " لا محالة والكيس الذي لا يغتر بالدنيا ، وهنا يصبح المتنبي ، كمن ينتظر مصيره ، فهي تفرق إذا جمعت :

نَبْكِي عَلَى الدُّنْيَا ، وَمَا مِنْ مَعْشَرٍ
جَمَعَتْهُمُ الدُّنْيَا ، فَلَمْ يَتَفَرَّقُوا
وَالْمَوْتُ آتٍ ، وَالنُّفُوسُ نَفَائِسٌ
وَالْمُسْتَغِرُّ بِمَا لَدَيْهِ الْأَحْمَقُ (٣)

ولعل هذه الفكرة من أكثر ما يبعث الشكوى ، والحسرة عند المتنبي ، فالدنيا لا تدوم على حال والموت يعقب المسرات فيها .. ، لذا تكون الملذات والسرور ، باعثا للوجع والحزن والغم حين يتيقن

١– سورة آل عمران الآية ١٨٥ .

٢– ديوان الشريف الرضي صـــ٢/ ٣٠٩ .

٣– م ديوان المتنبي صـــ٣/ ٧٥–٧٦ .

صاحبها بأنها منتقلة عنه :

كـذا الدنيـا علـى من كان قبلي
صروفٌ لم يـدمن عليه حالا
أشـد الغمّ عنـدي فـي سـرور
تيـقن عنـه صاحبه انتقالا (١)

وتلح فكرة " الموت " على المتنبي بشكل كبير حيث ترد في شعره بوفرة ، فمرة يخاطبها بالعشق ولكن لا سبيل إلى الوصال ، وقد أعيت من كان قبلنا :

ومن لـم يعـشق الـدنيا قديماً
ولكـن لا سـبيل إلـى الوصـال (٢)

ويؤكد هذا المعنى مرة أخرى بأن الدنيا كلها إلى زوال ، في محاولة لطرد الحزن ، وبث الأمل :

ومـا أحـدٌ يخـلّد فـي الـبرايا
بـل الدنـيا تـؤول إلـى زوال (٣).

والمتنبي دائم الإقناع لنفسه ، بأن الرحيل كمسافر لا بد له من أوبة ، ينتقل من أسلوب التقرير إلى التساؤل مالنا نخاف من الذي لابد من شربه ، فالموت كأس يشربه كل حي ولابد للإنسان من ضجعة في القبر ، لا حراك فيها ، ينسى فيها ما صدر منه من غرور وتيه ، وخيلاء ، وكربة موت ، وبروحه عند احتضاره :

لا بـد للإنـسان مـن ضجـعةٍ
لا تقـلب المضـجع عـن جنبه
ينسى بها ما كـان مـن عُجبه
ومـا أذاق المـوت مـن كربة
نحن بنـو الـموت ، فما بالنا
نعـاف مـا لابـد من شربه (٤)

ومن دلائل ذلك ، أن المتنبي يشعر بالرحيل ، والتغير حتى في حالة عشق ، وساعات عزله ، حين يطلب من محبوبته بأن تزوّده من حسن وجهها قبل تغيره ، وتصله في هذه الدنيا ، فإن المقام فيها يسير ، وهنا

١-م ديوان المتنبي صـ٣/ ٣٤١ .
٢- م ديوان المتنبي صـ٣/ ١٤١ .
٣-م ديوان المتنبي صـ٣/ ١٤٥ .
٤-م ديوان المتنبي صـ١/ ٣٣٦ .

تبرز نظرة المتنبي للموت بأنه لا محالة قادم ، وبسرعة قوية :

زوّدينا من حسن وجهك مادام
" م "
فحسن الوجوه حالٌ تحول
وصلينا تصلك في هذه الدنيا
" م "
فـإن المـقام فيـها قـليل (١)

وحتى يخفف المتنبي من حزنه إزاء الموت ، ومن شكواه من جراء الرحيل ، يعيد فكرة الموت بأنها نهاية كل حي :

إلى مثل ما كان الفتى ، مرجُع الفتى
يعود كما أ بدي ، ويكرى كما أرمى (٢)

ويحاول المتنبي في فكرة الموت ، أن يلتمس المعنى الإيجابي للموت ، للتخفيف من شكواه والتقليل من حزنه ، " وكل تفتيشه عن المعنى الإيجابي للموت آت من شعوره بأنه لابد منه ، وهو تفتيش قصير النفس لا يتابعه ، تحوطه المرارة من تصور العدم والقبر والتراب ، حتى أنه في أغلب مراثي رجولته وكهولته لا يعزي ، بل يزيد الأحزان بما يفجر من التصورات للموت .

بل إننا نستطيع بسهولة أن نفسر البيت :

سبقنا إلى الدنيا ، فلو عاش أهلها
متعنا بها من جيئة وذهوب (٣)

على أنه تصوير للواقع وتعجب من كثرة الأحياء ، وكثرة ما سلب الموت من أرواح ، لا على أنه محاوله تفهّم لحالة الموت الإيجابية " (٤)

والدفن من معطيات الموت ، لذا نجد المتنبي يتحسر من جراء أننا ندفن الأموات ، ونمشي على رؤوسهم بعد الموت ، لا نعتبر بذلك :

يُدفن بعضُنا بعضاً ، وتمشي
أواخرنا على هام الأوالي (٥)

١-م ديوان المتنبي صـ٣/ ٢٦٨ .

٢- م ديوان المتنبي صـ٤/ ٢٢٧ .

٣-م ديوان المتنبي صـ١٧٥ / ١ .

٤-ينظر "المحصول الفكري للمتنبي " سُهيل عثمان ،ومنير كنعان صـ٦٦-٦٧ .

٥-م ديوان المتنبي صـ٣/ ١٥٠ .

غير أن فكرة الموت هاجس المتنبي ،وصورته من خلا لها مضطربة ، فرغم الحرص الشديد على الدنيا ، والتهافت على ملذاتها ، يحاول المتنبي ، أن يقلل من شأن الحياة ، وأمر الدنيا ، حين يقبح أمر البكاء ، زاعماً أننا نتباكى على غير رغبة في البكاء ، فليس في الدنيا ما يستحق ذلك ، وما الزمان وصروفه إلا ا لموت في سبيل الحرص على هذه الدنيا إلا ضرباً من القتل :

نُبكى لموتانا على غير رغبة
تفوت من الدنيا ، ولا موهب جزل
إذا ما تأمّلت الزمان ،وصروفه
تيقنّت أن الموت ضرب من الجهل (١)

وقد ترتفع حدة الشكوى عند المتنبي ، حين يصف الموت بالغادر، وهل أكبر من أن يوصف الموت بالغدر:

غدرت يا موت كم أفنيتَ من عدد
بمن أصبت ، وكم أسكتَّ من لجب (٢)

ولعل المتنبي ، في نهاية الأمر يسلّم بحتمية الموت ، وكل شكوى منه ، هي محض تسلية ، ومجرد استئناس بالأمل ، ولو كان الخلود حق من حقوق الإنسان ، لحُسب الأبطال في المعارك من أضلّ الناس ولكن طالما أن الموت ليس منه مفر ، فمن العيب أن يموت الإنسان جباناً :

ولــو أن الحــياة تبــقى لحــي
لعــددنا أضلــنا الشجعانا
وإذ لــم يكــن من المــوت بُدّ
فــمن العجز أن تكــون جبانا (٣)

ولعل المتنبي يقرر في شكواه من الدنيا ، التي تنتهي بالموت ، في قالب فلسفي ، فهي تأخذ ما تعطي ،وتسترد ما تمنح :

أبداً تسترد ما تهــب الدنيا
" م "
فــيا ليت جودها .. كان بخلا (٤)

وهو يوظف شكواه من الموت في طرائق تفضح عن نظراته لمن حوله ، لذا حين يرثي أبا شجاع (٥)

١- م ديوان المتنبي صـــ٣/ ١٧٧ .

٢-م ديوان المتنبي صـــ٢١٦/١ ،واللجب :الصياح والجبة "اللسان "م / مادة "لجب" لسان العرب صـــ٧٣٥ / ١لابن منظور

٣-م ديوان المتنبي صـــ٣٧٢/٤ .

٤-راجع ديوان المتنبي صـــ٢٥٠/٣ .

٥- هو فاتك أبو شجاع صاحب كافور الإخشيدي ت ٣٥٦ انظر ترجمته في وفيات الأعيان صـــ٢١/٤ لابن خاكان

يعكس نظرته للحياة التي تتوازى مع طموحه ، فهي تصفو لجاهل ، أو لغافل ، وبينما الموت يأخذ مثل أبي شجاع :

تصـــفو الحياة لجاهل أو غافل
عما مضى فيها وما يتوقع
قبحـــاً لوجهك يا زمان فإنه
وجه له من كل قبح برقع
أيمـــوت مثل أبي شجاع فاتك
ويعيش حاسده الخصي الاوكع (١)

"ولعل أوجع صرخة فاه بها الشاعر الجبار في القنوط تلك الحكمة النازفة ، التي افتتح بها إحدى كافورياته حين قال يخاطب نفسه " (٢)

كفى بك داءً أن ترى الموت شافيا
وحسب المنايا أن يكن أمانيا (٣)

وهل هناك شكوى أكثر من أن يتمنى الإنسان الموت ؟!

وهكذا تكون فكرة الموت عند المتنبي ، قد أخذت أبعاداً شتى ، انتهت بالشكـــوى من الحياة ، والشكوى من الموت ، فالبواعث النفسية ، والمشاعر والأحاسيس ، تلعب دورها في شعر المتنبي ، وتكشف دوافعه الصادقة ، كشفاً صادقاً إزاء الموت ليس بقصد انتفاء الإيمان به ، والتسليم بالقضاء والقدر ، وإنما لأن الحزن ، والشكوى ، اللذان يسببهما الموت ، يساعدان على القلق والحسرة وبالتالي افتقاده التوازن النفسي ، والاتزان العاطفي .

٢ – الشكوى من المرض :-

توطئة :

الإنسان في الحياة الدنيا ، لا يسير على وتيرة واحدة من الصحة والعافية ، لذا تنتابه الأمراض وتخلله الأسقام ، وإن كان البشر يتفاوتون في استقبال المرض ، ومتى التعرض له ، أو الشكوى منه .

ويدخل المرض بما يفرزه من شكوى وأوجاع ، وتعب ، وشقاء ، ووهن وقلق ، ليشكل عبئاً نفسياً جديداً فيزيد إلى مصاعب الحياة ثقلاً ، وإلى هموم الشعراء هماً .

١-م ديوان المتنبي صـــ٣/ ١٣-١٩ .

٢-م المتنبي دراسة عامة " لجورج غريّب صـــ١١٩ –١٢٠ .

٣-راجع ديوان المتنبي صـــ٤/ ٤١٧ .

ولعل المرض يتضاعف حين يكون المرض مدخلاً لشماتة الأعداء ، ونيل الحساد ، ولعل ذلك كان واضحاً في القرن الرابع الهجري ، فالسري الرفاء يظهر جلادتـــه ، ويـــبرز صبره ، على مرضه ، ولكن عيادة أعدائه له تزيد من شكواه ،وتفضح حاله :

اصبر على تـــرادف الضـــراء
فلعل ذلك مؤذن بشقاء
ما حال من لعب السقام بجسمه
ظلماً ، فعض نفيسة الأعضاء
حظر الطبيب عليه طيب غذائه
وأباحه مكروه كل غذاء
ويعوده أعداؤه وأشد من
مرض المريض عيادة الأعداء (١)

والشكوى من المرض في شعر المتنبي قليل إذا ما قيس بشعر ، بل لا يتجاوز قصيدة ، أو أبيات ضمن قصيدة ، ولكنه اشتكى من الحمى (٢) ، فضخ فيها كثيراً من الآلام والشكوى والتعب ، واختزل فيها كل الأسقام التي كان صابراً عليها ، وكاتماً لأوجاعه ، وتناول إلى جانب ذلك المآسي التي تنتاب المرض ، وهي فوق ذلك " ليست " تجسيد حالة المريض بالحمى ، ولكنها إلى جانب ذلك تصور نوعاً من الحمى النفسية والفكرية " (٣)

وقد كان هذا الداء الطارئ ، مدخلاً للبوح بشجونه ، وتطلعاته ، والمصاعب التي يواجهها .

" وإذا كان مرض الحمى يرعد جسمه ، ويغسله بالعرق في أوقات محدودة فإن هذا النوع الآخر من الحمى النفسية والفكرية ، قد هز كل فكره وزلزل حلمه ، وهز يقينه "

والحمى التصقت بالمتنبي ، بالقدر الذي افصح عنه الشاعر ، بذل لها المفارش ، والأغطية ، فأبت النوم إلا في عروق المتنبي وعظامه :

بذلت لها المطارف والحـــشايا
فعافتها ، وباتت في عظامي (٤)

وإذا كانت المصائب والنكبات – بنات الدهر –عند المتنبي ، فهو يسأل كيف وصلت الحمى إلى عظامه ،

١–ديوان السري الرفاء صـــ١/ ٢٩٢ تحقيق د/ حبيب الحسني .

٢–كان ذلك في عام ٣٤٨ في مصر .

٣–ينظر "في عالم المتنبي " د/عبد العزيز الدسوقي صـــ٩٩ .

٤–ينظر عالم المتنبي "د/عبد العزيز دسوقي صـــ٩٩ .٢/ الديوان ٤/ ٢٧٦ .

رغم كثرة الزحام :

أبنت الدهر عـــندي كـــل بنت
فكيف وصلت أنت من الزحام ؟ (١)

ولا يعنينا هنا ما قاله المتنبي في وصف الحمى ، بل ما يهمنا هو الآثار المترتبة ، والأسقام الناجمة عن هذا الداء العضال .

والحمى حين تسكن الأضلاع ، وتستوطن العظام ، تجعل المصاب بها طريح الفراش ، عليل الجسم ،عاجز عن القيام ، حين يضيق الجسم عنها ، توسعه بمختلف الأسقام والأوجاع :

وملـــني الـــفراش وكـــان جنـــبي
يمـــلُّ لقـــاءه في كـــل عـــام
عـــليل الجسم ممتنـــع الـــقيام
شـــديد الســـكر من غير المـــدام
يضيق الجلد عن نفسي ، وعنها
فـــتوسعه بأنـــواع الـــسقام (٢)

ومتى فارقت المتنبي غسلته – من خلال العرق – وكأنه مقيم على ما يوجب الغسل ، وكأن هذا العرق دموعها حين الفراق فهي في الصباح تغادر ، ثم تحضر ولا تخلف الميعاد :

إذا ما فارقتني غســـلتني
كـــأنا عـــاكفان عـــلى حرام
كأن الصبح يطردها فتجري
مدامعـــها بأربعة ســـجام
ويصدقُ ، وعدها والصدق شرُ
إذا ألقاك في الكُرب العظام (٣)

وكل ما ذكرت من هذه الأبيات ، التي تتعلق بالحمى ، هي في وجهها الآخر ، تُبين عن الشكوى ، والأنين من وطأة الألم ، فالحمى زائرة ، جرحت كثير الجروح ، لم يبقى مكان في جسده إلا وفيه ما فيه ، وإن سلم فهو يسلم من الموت إلى الموت :

جرحتِ مجرحاً لم يبقَ فيه
مكان للسيوف ولا السهام
وإن أسلم فما أبقى ، ولكن
سلمت من الحمام إلى الحمام (٤)

١–م ديوان المتنبي صـــ٤/٢٧٧ .

٢–م ديوان المتنبي ، والجزء ،ص٢٧٦.

٣–م ديوان المتنبي صـــ٤/ ٢٧٦ – ٢٧٧ .

٤–المصدر السابق ، والجزء صـــ ٢٧٧ – ٢٧٩ .

ومما يضفي على هذه القصيدة ، مزيداً من الأهمية ، أن المتنبي كتبها ، "بعد أن تصرم من عمره ماتصرم فقد تجاوز سنه الخامسة والأربعين " (١)

وقد استطاع المتنبي في هذه القصيدة ، من خلال بيت واحد ، أن يقرن الهموم ببعضها،والطموحات بآمالها الكبار ، حين اشتكى من قلة الزائرين ، ومرض القلب و وفرة الحساد ، ومطالبة الصعاب ،التي زادت الحمى في انكسارها ، وتمزيقها :

قليل عائدي ، سقـــم فؤادي
كثير حاسدي صعب مرامي (٢)

وبهذا تكون الحمى ، قد ثبطت من عزائمه ، وفتت في عضده ،ورسمت له دائرة من الحزن والشكوى، إضافة للدوائر الأخرى ، " ونحن نعلم أن الحزن أحد معالم حياة أبي الطيب في كل مراحلها " (٣)

وقد تزامن هذا المرض مع إقامته بمصر ، فكان مما يضـــاعف الألم ، يقول عمر فروخ " أصيب المتنبي وهو في مصر بحمى الربع ، الحمى الراجعة ، لأنها تعود في كل أربعة أيام مرة " الملاريا " ، فقال يشكو المرض والألم ، وكنى عن الحمى بكلمة " زائرة " ، وليس في هذه القصيدة غير شكواه من المرض ، ومن إقامته في أرض مصر ، لا يحارب ولا يقوم بعمل عظيم " (٤)

ولكن هذا لا يمنعه من التعالي ، والكبرياء لتدل على الصبر والنسيان ، فالمريض يستره الصبر ، وإن حُم جسمه ، فما حُمّ طموحه ، واجتهاده وكفاحه ، لذا قال مصطفى الشكعة " كان الرجل مريضاً بالعظمة أكثر منه مريضاً بالحُمى " (٥)

وقصيدة الحمى ، في شعر الشكوى من المرض عند المتنبي ، تـــمد المتلقي بأكثر من شكوى ، حيث اشتكى في هذه القصيدة من اعتمالات نفسه ، وقسوة الزمان ، لذا " يتخذ المتنبي في خضم آلامه المرضية وضيقه بقسوة الملاريا .. .. وإحساسه بالقلق ، الذي لابد قد اشتد تحت وطأة المرض ، موقف الذي

١-ينظر "في عالم المتنبي " د/ عبد العزيز الدسوقي صـــ٩٨ .

٢- م ديوان المتنبي صـــ٤/ ٢٧٦

٣-ينظر "في عالم المتنبي " د/عبد العزيز الدسوقي صـــ٩٨ .

٤-ينظر "تاريخ الأدب العربي "لعمر فروخ صـــ٢/ ٤٦٨ .

٥-ينظر" أبو الطيب المتنبي في مصر والعراقين " د/ مصطفى الشكعة صـــ٣٢٦

ضاق ذرعاً بالناس جميعاً ، فكلهم في نظره فاسد الأخلاق مخادع ، الأمر الذي جعل منه هو الآخر إنساناً مخادعاً مثلهم " (١)

فلـــما صـــار ودُّ النـــاس خبا
جزيت على ابتسام بابتسام
وصرت أشـــك فيمن أصطفيه
لعـــلي أنـــه بعض الأنـــامْ (٢)

وتبرز الشكوى من الحمى ، بالشكوى من الزمان ومصائبه ، إذ كيف وصل له هذا الداء رغم زحمة المتاعب والمصاعب ، ثم يتساءل هل يعود مرة أخرى لمطاعنة الأيام ، ممسكاً بعنان فرسه " ومن وصف الحمى ينعطف المتنبي إلى شكوى الزمان ، ومصائب الأيام ويتألم ويتعجب ، ويتساءل عما إذا كان مستطيعاً ثانية أن يعود – كما كان – فارساً يركب ويسافر ويحارب ، إن الشاعر يسبغ لوناً من الحكمة على شكواه من الحمى " (٣)

أبنت الـــدهر عنـــدي كل بنت
فكيف وصلتِ أنت من الزحام
ألا يا ليت شـــعَر يدي أتُمسى
تصـــرّف في عنـــان أو زمـــام ؟! (٤)

وقد أكد المتنبي كثرة الأسقام ، ووفرة العلل ، غير أنه لم يشخص لنا إلا الحمى ، وقد ذكر في نص آخر هذا المعنى الذي يدل على أن الرجل ، كان ذا أسقام بحيث لا توجد شعرة في جسده إلا و وهلها الألم والعرض : ومن جسدي لم يترك السقمُ شعرةً
فما فوقها إلا وفيها له فعل (٥)

وتصدر الشكوى من المتنبي ، بلفظها الصريح ،ولكنها شكوى من انتفاء الإحساس بالألم ،لأن هذا لا يتأتى إلا لمن له أعضاء تتألم وتشكو ،وقبل ذلك تحس وتدرك ،فهي شكوى أعضاء تموت ،وجسد يفقد الإحساس

١–نفس المصدر السابق صـــ٣٢٥ .
٢–م ديوان المتنبي صـــ٤/ ٢٧٤ .
٣–ينظر "أبو الطيب المتنبي في مصر والعراقين "د/ مصطفى الشكعة صـــ٣٢٨ .
٤–م ديوان المتنبي صـــ٤/ ٢٧٧ .
٥–م ديوان المتنبي صـــ٣/٢٩٨

من جراء الجهد الجهيد ، والتعب المحض :

وشكيتـــي فقدُ الســـقام ، لأنه

قد كان ، لما كان لي أعضاء !! (١)

وبهذا يكون المرض بما أثاره من شجون وآلام ، ساهم في إذكاء الإحساس بالشكوى ، حين جمع بين شكواه من سقام الجسد ، وسقام النفس ، المهمومة المتطلعة إلى روح الكبرياء ،ويصل البوح بالشكوى الأخيرة،

لدرجة بحيث يستر سقام الجسد وأسقام البدن . ويكون هو الخطاب البارز .

٣- الشكوى من الليـــل :

كان الموضع الطبيعي لشكوى الليل أن تكون داخلة في شكوى الزمان ، على اعتبار أن الليل من معطيات اليوم ، ولكن نظراً لما يلقيه الليل من غلالة سوداء و لون فاحم و إحساس بالخوف ، أحببت أن أجعله في موضع خاص .

فالليل يمثل لمجموعة كبيرة من الشعراء باعثاً للمعاناة والشقاء ، ورمزاً للإحساس بالوحدة والخوف ، لأنه يغيّض بوحشيته ، ويستثير بصمته ، ويشعل بظلامه الكئيب الحزن والألم والشكوى ، فتلهج ألسنة الشعراء بالهم ، وتبوح قرائحهم بالأسى والشكوى ، التي تعكس ما في دواخلهم من كربة ووجع بحرية مطلقة ، بعد أن ساهم الليل بسواده ، وصمته ، وظلامه ، بمرور المشاعر ، وإطلاق الخيال ، كملاذ أمين للتصريح عن اعتمالات الشكوى ، وتداعيات الحزن .

ولعل امرأ القيس إمام الشعراء في التداخل مع الليل ، وطموحه ، والشكوى منه حين قال :

وليل كموج البحر أرخى سدوله

عليّ ، بأنواع الهموم ليبتلي (٢)

وقد استمرت الشكوى من الليل وطوله ، ووصلت إلى القرن الرابع – القرن الذي عاش فيه المتنبي – بل إن الخباز البلدي شبه طول ليله بيوم القيامة ، بما يشكله من وحشة وضجر ، نظراً لإرتباط الليل

١- م ديوان المتنبي صـــ١/ ١٤٢ .

٢-م "ديوان امرئ القيس " تحقيق مصطفى عبد الشافي ص ١١٧ .

بالهموم ، والأحْزان وكذا كان الصنوبري ممن اشتكى وحشة الليل حين قال :

أعــذ عيــني مــن الســهر
أعــذ قلــبي مــن الفــكــر
ومــن لــيــل طــويــل لا
يبــيــع الــطــول بالــقصر
أمــا لليــل من فــجــر
يــضــيء لأعــيــن البــشر
متــى أنــظر إلــى ليلي ال
طــويل حــقــيقــة النظــر
تــعــادل ليــلــهــم ميــلاه
وعنــدي لــمحــة الــبــصر

" يبدو الليل تكثيفاً لسوداوية اللحظة في حياة الشاعر ، فالليل هنا ستار أسود طويل يحجب الشاعر عن الحياة ، وبالتالي يصبح الليل هو " اللحظة " المعتمة التي يعيشها الشاعر بعيداً عن عوامل الإضاءة التي يرنو لها " (١)

وليــل كــواكــبــه لا تــســير
ولا هــو منها يطيــق البراحــا
كيــوم القيامــة فــي طــوله
على من يراقب فيــه الصبــاحا (٢)

وخطاب الليل عند المتنبي يدخل في غيره من الشعراء ، فقد يقترن بقسوة الحبيبة وجفاء زيارتها ،وغدرها فيطول البكاء ، الممزوج بالشكوى ، ويشابه شعرها الفاحم ، والبكاء طال طوال الليل ، والنجوم لا تعرف الطريق ، حتى تذهب لتأتي الفجر " النور " ، وكأنها عمياء :

حكيتَ – يا ليل – فرعــها الــوارد
فاحك نواها لجفني الساهــد
طــال بكــائي عــلى تــذكرهــا
وطُلــت حتى كــلاكما واحــد
مــا بــال هــذى الــنجوم حائــرةً
كأنــها العُمى مالــها قائــد (٣)

والشكوى من طول الليل وقصره في حالاته المختلفة " يقدم لنا وصفاً ضمنياً لحالة الشاعر النفسية " (٤)

١–م شعراء من العصر العباسي الثاني بين الظل والتأثر د/عبد الله باقازي الطبعة الأولى ١٤٠٨ هـ مطابع الصفاء بمكة صـ١٠١ .

٢–انظر "نهاية الأرب في فنون الأدب "للنويري صـ١/١٣٥ .

٣– راجع ديوان المتنبي صـ٢/ ١٧٥ .

٤–ينظر " الزمن عند الشعراء قبل الإسلام "عبد الإله الصائغ صـ٢٧٣ .

واكثر ما يرتبط الليل بالهجر ، والفراق ، والهم ، بل لا يكاد يخرج عن ذلك ، فليله فراق الحبيبة سهر ، وعناد ، وكأن السم الناقع ، أيسر ما يتجرعه الشاعر من قسوة الليل ، والخوف من سواده ، وقد اقترنت بالسهر والطول :

فيـــاليلةَ ، ما كان أطـــولَ ، بثُّها
وسمُّ الأفـــاعي عذبُ ما أتجرع (١)

محبوب يخاف الرقيب ، ولا يقف وصف الليل وثقله ، وطوله إلى هنا ، بل أن الجو نفسه يكابد ما أكابد لذا صار السواد فيه شيء من الشحوب ، والليل يطول معه ، والأجفان متقلبة ، كأنها تعد على الدهر الخطايا والسيئات :

أعزمي : طال هذا الليلُ ، فانظرْ
أمنك الصبح يَفْرَقُ أن يئوبا ؟!
كـــأن الفـــجر حِـــبٌّ مســـتزارٌ
يُراعـــي مـــن دُجُنّته رقيبـــا
كأن الجـــوَّ قاسى ، ما أقاسي
فصـــار ســـواده فـــيه شحوبـــا
كأنّ دحاه يجذبهـــا سُـــهادى
فـــليـــس تـــغـــيب إلا أن يغيبـــا
أقلّبُ فيه أجفانـــي ، كأنـــيّ
أعـــدُّ بـــه علـــى الـــدهر الذنوبا (٢)

والليالي – بكل سوادها وثقلها – تقف حائلاً بين المتنبي ، ومايهمُّ به من أفعال في المستقبل ، وما ينهض في طموحه من آمال ، فهي تطارد أحلامه ، وتطلعاته ، حتى لا يصل إليها ، وهو يطاردها ، حتى لا تقف حاجزاً في طريقه :

أ هُـــمُّ بـــشيء ، والليـــالي كـــأنها
تطاردني ، عـــن كونه ، وأطاردُ (٣)

وقد يجد المتنبي في الليالي ، ما يبرر به فقره ، وذهاب ماله ، وهذا اعتراف منه ، ببروز الشكوى ، التي يلقي بتبعتها على الليل :

لُم الليالي التـــي أخنت علـــى جـــيرتي
برقةَ الحال ، واعذرني ، ولا تلم (٤)

١-راجع ديوان المتنبي صـــ٢/ ٣٤٦ .

٢-م ديوان المتنبي صـــ١/ ٢٦٦ – ٢٦٧ .

٣-المصدر السابق صـــ١/٣٩٢ .

٤-المصدر السابق صـــ٤/ ١٥٦ .

وتمتد شكوى الليل – عند المتنبي – لتصل إلى الشكوى والتعب من سير الليل ، والمسير فيه ،فالسرُى أضعف المتنبي ، وأهزله ، وكأنه سهم تنحته المدية ، حتى يصبح خفيفاً ، بلا لحم ، كذاك النفس الذي يخرج من الفم :

برتني السُرى بري المدى ، فرددتني
أخفُّ على المركوب من نَفَسِي جِرْمي (١)

لعل طول الليل ، عند المتنبي ، هو ما يشكل قطب الرحى في شكوى الليل ، حيث لا يفتأ يذكره في أكثر أحزانه الليلية ، فلياليه متشابهة ، على أن ليل الآخرين يطول ويقصر – باختلاف الفصول – والتشابه بها مرده ، إلى فراغ الليل من الحبيب ، وشرود النوم ، وقلة الخليل ، بل يتجاوز الأمر ذلك ، لأن الليالي تعاكس الرجل ، بأن تعطيه بدر الدجى ، وتمنع منه بدر القلب ، وهو الحبيب :

ليـــالي بعد الظاعـــنين شكـــول
طـــوال ، ولـــيل العاشـــقين طويـــل
تُبنَّ ليَ البـــدرَ الـــذي لا أريـــدُه
ويخفين بـــدراً مـــا إليـــه سبيـــل (٢)

وتمتد خطابه لليل –في هذه القصيدة – ليصل إلى معطيات الليل ، راجياً النجوم السائرات ، وغيرها مما يرشد ويهدي ، ليعلم وقت طلوع الصبح ، ليستريح من طول الليل ، وثقله ، وضخامته ، ولو كان يرى جمال الحبيبة ، وعينيها ، لافتتن بها وعشقها ، وأصابه النحول ، وأدركته رقة الجسم ، فتحسر ، وانكشف ، وقلت مدته :

أما في النجوم السائرات وغيرها
لعيني على ضوءِ الصباح وليـــل
أ لم يرى هذا الليلُ عينيك رؤيتي
فتـــظهر فـــيه رقـــةً ونـــحـــول (٣)

" انظر إليه كيف يتحدث عن الليل والنجوم ، وعن الصبح والحبيب .. .. .. ، فسترى أن شكاة الشاعر مستمرة ملحة ، وأن حزنه عميق بعيد " (٤)

وقد رأى أحد الباحثين ، أن الليالي في هذه القصيدة ، ليست على ظاهر اللفظ ، بل إن "الليالي هنا هي

١–م ديوان المتنبي صـــ٤/ ١٧٠ .

٢– المصدر السابق صـــ٣/ ٢١٧ .

٣–المصدر السابق صـــ٣/ ٢١٩ .

٤–م " مع المتنبي " د/ طه حسين صـــ٢٤١ .

حياة المتنبي وأحلامه وطموحه ... فجأة يحس أن كل شيء ظعن وارتحل وأن لياليه طالت وتشابهت وتجمدت بعد هؤلاء الظاعنين . زمنه النفسي تجمد . وكذلك يتجمد زمن العاشقين عند النوى وظعن الأحباب وارتحال لحظات الأنـــس والتلاقي .

وإذا كان ذلك حال العاشقين ، فكيف بحال الذين يعشقون فكرة كبيرة وحلماً عظيماً وأملاً ضخماً .

ويسارع المتنبي في البيت الثاني من هذا المشهد ليؤكد أن هذه الحبيبة التي ظعنت ، ليست امرأة جميلة ... وإنما هي الفكرة الحلم " ، والأمل العظيم ، الذي عمل في سبيله ، وارتحل في الأفاق كل هذا الارتحال، ولكن في هذه اللحظة يحس أن الوصول إلى هذا الحلم مستحيل ، وأن أيامه ونضاله تبين له البدر الذي لا يريده ، في امرأة جميلة ، أو مال أو عرض مادي مهما كان . وتخفي ذلك الحلم العظيم فليس إليه وصول " (١)

ومثل هذا الرأي ، إن ملك حسن التوجيه ، فلم يملك قوة الدليل ، فهو رأي لا يقوم على شاهد ،ولا تنهض إليه دقة وصواب .

ولا يكتفي المتنبي مع الليل بأن يطول ويسهره، بل إن السهاد يعشق عين الساهر مع ما وجد الهجر بينه، وبين المحبوب طريقاً فيكون وصل السهاد ، مع هجر الحبيب ، الذي يشابه ممدوحه (٢) ،الذي تفوق على الحبيب ، بعد أن جمع بينهما الضياء والعلو والبعد عن الناس ، فهو يشتكي إلى الذي لا يوجد له مشابه، وهذا تصريح بالشكوى ، يقول :

كأن سهاد الليل يشق مقلتي
فبينهما – في كل هجر لنا– وصلُ
أحبُّ التي في البدر منها مَشابه
وأشكو إلى من لا يُصابُ له شكلُ (٣)

وحالة السهر والتعب ، دائمة ، ملازمة ، ولعل السهر من أقوى معطيات الليل وهمومه ، فغاية الشوق أن تكون بهذه الحالة من السهر والتعب والسهاد والإعياء يقول :

١–م " في عالم المتنبي " د/عبد العزيز الدسوقي صـــ٥٦

٢– هو : شجاع بن محمد الطائي المنبجي .

٣–م ديوان المتنبي صـــ ٣/ ٣٠٠ .

أرقٌ على أرق ، ومثلي يأرق
وجوىً يزيد ، وعبرةٌ تترقرقُ
جُهدُ الصبابة أن تكون كما أرى
عين مسهدة ، وقلب يخــفقُ

وقد وصلت علاقة المتنبي بالليل والليالي بحيث أصبح العارف بها ،والمستعد لتقلباتها، والمدرك لصنائعها فمهما دهت من الأمور ، لن يضيف ذلك شيئاً إلى علمه ومعرفته يقول :

عرفتُ الليالي قبل ما صنعت بنا
فلما دهتني ، لم تزدني بها علما (١)

من كل الشواهد السالفة يتضح – بشكل جلي– أن الليل باعث للشكوى ، مثير للحزن ،ومُستدع للهموم ، في جانبه الأول ، أما جانبه الأخر فهو مشعل للحب والشوق ، ونابش للذكريات ، مولد للأسى .. .. .. فكان الليل المعتدي ، الذي دحاه المتنبي هموماً وشحوباً وشكوى .

٤– الشكوى من الهجر :

مدخل :

الحياة اجتماع وافتراق ، وهذا ما يعطي الحياة مذاقاً يتردد بين الحزن والفرح ، والسعادة والغم، والسرور والأسى .

ولا أظن أن هناك عصراً من عصور الأدب خلا من شكوى الصدود ، وقسوة الهجر ، ومرارة الفراق ، وعناء البعاد .

ولعل القرن الرابع – عصر المتنبي –حفل بما حفل به غيره من الفترات الأدبية إذا لم يكن أخذ بحظ أوفر، وقسط أكبر ، لأن الحبيبة في هذا القرن تمثل تطلعاً وحنيناً وحلماً مطلقاً إلى عالم متجاوز الجفاء ، ومحرر من قيود الهجر والصدود ، حتى تخفف من شدة الحياة ، وقسوة ضغوطها على إنسان القرن الرابع .

والمتنبي بكى من الحب ، واشتكى من الهجر ، وهو نوع من الغزل الباكي الحزين ،حيث يلجأ إليه الشاعر للتخفيف مما يعانيه من هجر وحرمان وما يحيك في صدره من حسرة ولهفة .

والشكوى من الحبيبة أول ما يطالعنا في هذا النوع من الغزل الباكي ، فقد كان المتنبي يشتكي من النوى،

١–م ديوان المتنبي صـــ٤/٢٢٩ .

ويبكي ، وأصحابه يتعجبون من البكاء ؟! ولكن هذه حالة حين كان لا يحجبه عنها سوى الستر والحجاب في القرب ، فكيف لا يبكي النوى ، وهو صاحب صبابة لا يحمل أي أمل في لقاء الحبيبة :

أشكو النوى ، ولهم من عبرتي عجب
كذاك كنت ، وما أشكو سوى الكلل
وما صبابـــة مشتـــاق علـــى أمـــل
من اللقاء .. كمشتاق بلا أمـــل (١)

وحالة المتنبي مع الهجر والصدود ،صريحة فهو وإن أفرحه – أي الوصل – بيوم ،أحزنه بعدها بالهجر ثلاثاً ، يقول :

أيّ يوم سررتني بوصـــال
لـــم ترعني ثلاثة بصدود (٢)

وقد ورد هذا الغزل في سياق الخطاب المذكر ، وهذا فن قديم ، بل " تقليد للعصر ولسابقيه ... " (٣) ولكن آدم متز يشير إلى هذه الظاهرة بقوله : " إن الغزل الذي قيل في التوجع من هوى الذكرأن يعادل ما قيل في النساء على الأقل " (٤)

ولكن قول المتنبي هذا يحمل على أنه تقليد لسابقيه من الشعراء الذين كانوا في شكواهم يخاطبون محبوباتهم بصيغة المذكر " فقد تحول النسيب إلى هذا الفن ،وقلّ التشبيب بالنساء أو كاد ،وخفّ خطاب المذكر على ألسن الشعراء ، حتى رأينا من يصف محبوباً وهو يعني محبوبته ، كأن خطاب المذكر أخف في اللغة وأسهل في توجيه الضمائر والإشارات " (٥)

شكوى المتنبي من البين تتلمس أسلوب الحكمة ، فالجماعات تتفرق بعد الاجتماع ، والوقوف للوداع بين العاشق والمعشوق يزيد البث والحزن ، فالأجفان تقرحت من الدموع وحمرة الخدود تحولت بعد البين إلى خدود صفراء شاحبة ، وهذا حال الناس اجتماع وفراق وميت ومولود ومحب وكاره :

١–م ديوان المتنبي صـــ٣/ ١٩٩ .

٢–راجع ديوان المتنبي صـــ٢/ ٤٤ .

٣–ينظر "المتنبي مالئ الدنيا وشاغل الناس " د/محمد التونجي صـــ٢٠٩

٤–ينظر " الحضارة الإسلامية في القرن الرابع الهجري " لآدم متز صـــ١٦٦/٢

٥–ينظر" النثر الفني في القرن الرابع "د/ زكي مبارك صـــ١/ ١٩٧ وللتوسع في هذا المجال يراجع "تاريخ الشعر العربي من دخول بني بويه إلى نهاية العصر العباسي "د/ محمد عبد العزيز الكفراوي ط ١–القاهرة صـــ١٣٢ / ٣ .

هو البين حتى ما تأتى الحزائق
ويا قلب حتى أنت مـــن أفارق
وقفنا ومما زاد بثـــاً وقـــوفنا
فريقي هوىً منا مشوقٌ وشائق
وقد صارت الأجفان قرحى من البكا
وصار بهاراً في الخدود الشقائق
على ذا مضى الناس اجتماع وفرقة
وميت ومولود ، وقـــالٍ ووامـــق (١)

والبين حين يرمي بلوعته ، وحسرته وحرقته على المتنبي يكون جار ، وما عدل والوجد يزيد ويقوى كما يقوى النوى ، والصبر يضعف وكما الجسم ، ومع ذلك يحيا رغم أن ما يقاسيه من الهجر يقتل يقول :

أحيـــا وأيـــسر ما قـــسيتُ ما قـــتلا
والبين جار على ضعفي وما عـــدلا
والوجد يقوى ، كما تقوى النوى أبداً
والصبر يَنْحَلُ في جسمي كما نَحِلا (٢)

بل يحدد أن الفراق هو طريق المنايا إلينا ، حين يطلب من حبيبته بأن وصلها له يجعله يتمسك بالحياة ، ويهوى العيش فيها ، أما مع الهجر والفراق ، فلا حياة تُرتجى ، ولا دنيا تُستطاب ، يقول :

لولا مُفارقة الأحباب ما وجدت
لها المنايـــا ، إلـــى أرواحنا سُبُلا
بما بجفنك من سحر صلي دَنِفاً
يهوى الحياة ، وأمّا إن صددت فلا (٣)

ويؤكد هذا المعنى ، بأن الحياة بعد فراق الأحبة ، خالية من الفرح والسرور ، وكل ذلك ينز بالشكوى ، ولكن المتنبي يحاول أن يخفي ذلك ، بحمله الأمور الكبيرة ، وأنه معتاد على ذلك ، يقول :

وما عشتُ من بعد الأحبة سلوةً
ولكننـــي للـــنائبـــات حمـــولُ (٤)

وتظل فكرة الوداع هاجساً في خيال المتنبي ، حين تذهب حشاشته حسرات في وداع أحبته ، فيقف حائراً

١-راجع "ديوان المتنبي صـــ٣/ ٨٢ – ٨٣ .
٢-نفس المصدر صـــ٣/ ٢٨٢ .
٣- المصدر نفسه ، والجزء ص ٢٨٢-٢٨٣ .
٤- نفسه صـــ٣ / ٢١٨ .

من يودع أحبته أم بقية روحه ، يقول :

حشاشة نفسٍ ودّعت يوم ودعوا
فلم أدرأيَّ الظاعنين أشيّعُ (١)

وتصل فكرة القرب بأن تكون معادلا موضوعياً للحياة ، فالفراق أعظم من الموت ، يقول :

ألموت أقربُ مخلباً مـــن بيـــنكم
والعيش أبعدُ منكم لا تبعُدُوا (٢)

وتتصارع الشكوى في المتنبي ، بين الظهور والخفاء ، حتى ما نهض البين والفراق ، وطفيا على السطح فتبرئ من الفؤاد ، إذا أظهر الشكوى ، يقول :

وأعلم أن البين يشكيك بعـــده
فلستَ فؤادي أن رأيتُك شاكيا (٣)

والهجر الذي يشتكي منه المتنبي ، لا ينحصر في دائرة الأحبة والحبيبة ، بل يتجاوز ذلك إلى الأهل، والأصدقاء ، والأقارب ، فهذا العيد حل (٤) ، وهو بعيد عن أهله ويهواهم ، ولكن أين لقاؤهم منه ، لذا فهو يندب ويبكي من يحب ، يقول :

يضاحك في ذا العيد كلُّ حبيبة
حذائي ، وأبكي من أحبُّ وأندبُ
أحنُّ إلى أهلي وأهوى لقاءهم
وأين من المشتاق عنقاءُ مُغربُ (٥)

ولعل في رثائه لجدته ، بعضاً من الشكوى حين بكى من هجرها – خيفة – عليها ، فذاق بذلك الثكل ، والفقد ، ولكن الهجر لا يقتل كل المحبين ، ولو كان يفعل ذلك لقتل كل أهل البلد ، لأنها محبوبته ، لكن الأمر أن الهجر يقتل فئة ، والمتنبي أحد هؤلاء ،

١– راجع "ديوان المتنبي صـــ٢/ ٣٤٤ .
٢–نفس المصدر السابق صـــ٢ / ٥٢ .
٣–نفس المصدر السابق صـــ٤ / ٤١٩ .
٤–كان ذلك في شوال سنة ٣٤٧ هـــ عند كافور بمصر .
٥–راجع "ديوان المتنبي صـــ١/ ٣٠٧ .

يقول :

بكيتُ عليها – خيفةً – في حياتها
وذاق كلانا ثكل صاحبه قدما
ولو قتلَ الهـــجرُ المحـــبين كلَّهم
مضى بلدٌ باقٍ أجدّت له صرما (١)

ولعل المتنبي في رثاءه لأبي شجاع فاتك(٢) يعطي للشكوى من الفراق مذاقاً ، ينبئ بأن الرجل كان يعيش حزناً وحسرةً وهماً بعد فراق – أصدقائه – فالميت يرثى ،ولكن الحي هو الذي يذوق مرارة الهجر،وقسوة الفراق ويؤكد على فكرة أن الفراق أعظم من الموت ، فهو يجبن من البين ،ولا يجبن من الموت في الوغى والحروب ، يقول :

الحزن يُقلق ، والتجمل يردع
والدمع بينهما عصيٌّ طيعُ
يتنازعان دموع عين مسهّدٍ
هذا يجيءُ بها ، وهذا يرجع
النوم بعد أبي شجاع نافرٌ
والليل مُعييٌ ، والكواكب طُلّع
إني لأجبن من فراق أحبتي
وتحسنٌ نفسي بالحِمام فاشجع (٣)

ويؤكد ذلك مع سيف الدولة – حيث يستشعر العدم بعد الفراق : حين فراق الأحباب ، فيقول :

يا من يعز علينا أن نفارقهم
وجداننا كل شيءٍ بعدكم عدم (٤)

ويواصل المتنبي تأكيد الفكرة،حين يضع كل المتاعب والمتوقعات والألاقي التي يواجهها من أهل محبوبته، ولو وصل الأمر إلى القتل ، فهو أهون من الهجر ، سيما وهو الغريق ، كيف يخاف من البلل ، يقول:

والـــهجر أقتـــل لي مما أراقبهُ
أنا الغريق ، فما خوفي من البلل (٥)

وبتوالي لحظات الفراق ، وتتابع مواقف الوداع ، أخذ المتنبي يعتاد على الأمر ، ويتداوله بغير اكتراث ، فلا هو يستغرب الفراق ، ولا بيناً سيأتي ، لأن القلب كان عالم به من قبل :

وما استغربت عيني فراقاً رأيته
ولا علمتني غيرَ ما القلبُ عالمه (٦)

١–راجع "ديوان المتنبي صـــ٤ / ٢٢٨ .
٢–توفي في ٣٥٠ هـــ .
٣–راجع "ديوان المتنبي" صـــ٣/ ١٢ .
٤–المصدر السابق صـــ٤/ ٨٧ .
٥– راجع "ديوان المتنبي صـــ٣/ ٢٠٠ .
٦–نفس المصدر صـــ٣/ ٥٠ .

وعندما يشكو المتنبي صراحة من الحب والهوى والهجر ، فإنه يبالغ بالشكوى حين يحدد شكواه ، بأنها فقد السقام ، فأعضاؤه منهكة وقلبه يحمل جرحاً واسعاً ، كأنه عين حبيبته الواسعة ، يقول :

وشكـــيتي فـــقد الســـقام لأنـــه
قد كان لما كان لي أعضاء
مثلتِ عينكِ في حشاي ، جراحة
فتـــشابها كلـــتاهما نجـــلاءُ (١)

ولعل في الشواهد الماضية ، ما يكشف الستار ، عن شكوى المتنبي من الصد ، والهجر ، وأحزان الفراق ولوعات الوداع .

ويتضح ذلك – أي الشكوى من الحب وتبعاته – عندما يصل المتنبي إليه ،فهو في الحرب ،فحماه مستباح ، للأعين النجل ، وقلبه مرمى كل ذي طرف ، حتى تذهب أعضاؤه ، عضواً عضواً فيصل إلى مرحلة " فقد السقام " .

٥- الشكوى من الشيب والكبر :

مدخل :

تعد الشعرات البيضاء التي تستوطن رأس المرء ، من أكبر العوامل الباعثة للحزن ، والمثيرة للشجن ، وهي علامات يحس معها الإنسان بدنو أجله ، وذهاب نشاطه ، وحلول هرمه .

وغالباً ما يتزامن الشيب مع الكبر والشيخوخة ، فيكون المرء أمامهما محكوماً بزوال الشباب ، وذهاب نضارة النشاط ، وحلول الضعف والوهن ، واكتئاب النفس ، وغيرها من أمراض كبر السن .

ولقد وقف الشعراء من الشيب موقفاً غاضباً ، متشائمين منه ، معلنين النفور منه ، والشكوى من اقترانه بهم . فراحوا يبكون شبابهم ، ويتفجعون عليه ، ويتمنون عودته .

ولعل القرن الرابع حفل بكثير من هذا الشعر ، لأنه عصر الشريف الرضي ، الذي يعد من أكثر الشعراء الذين رددوا شكوى الشيب ، لأنه غزاه مبكراً ، وكيف لا يغزوه الشيب ، وقد شهد النوازل والخطوب ، يقول :

ألان جوانبي غمز الخطوب
وأعجلني الزمان إلى المشيب (٢)

والمتنبي ، أدركه الشيب ، واشتكى منه ، ولكن ليس بالصورة التي وصل إليها الشريف الرضي (٣) .

١–م "ديوان المتنبي" صـــ١/ ١٤٢ / ١٤٣ .

٢–ديوان الشريف الرضي / تحقيق إحسان عباس دار صادر للطباعة والنشر ، بيروت ١٩٦١ صـــ ١٠٢ / ١ .

٣–للمزيد من إيضاح الأمر يراجع " الإغتراب في حياة وشعر الشريف الرضي " لعزيز السيد جاسم صـــ١٤٥ .

والشيب داهم المتنبي في صباه ، فوصفه بالضيف غير المستحي ، لذا فالقطع بالسيف أجمل له ، وأحرى به ، داعياً الله ، أن يذهب هذا البياض ، الذي لا معاني حميدة عنده ، ولا فعل جميل يأتي معه ،فهو أسود - في عين المتنبي – من الظلام ، يقول :

ضيفٌ ألم برأسي غير محتشم
والسيف أحسن فعلاً منه في اللَّمم
إبْعِدْ بعدت بياضاً – لا بياض له –
لأنت أســود في عيني من الظلــم (١)

وحين يقترن الحب بالشيب ، ويتخذا من طفولة الشاعر ، مكاناً لهما ، يصبحا أكل المتنبي وشرابه ، لكن مع هذه الحالة يبقى الشيب أقوى لأنه بلغ الحلم ، أما الهوى فهو طفل ، يقول :

بحب قاتلي ، والشيب تغذيتي
هواي طفلاً وشيبي بالغ الحُلُم (٢)

ونظراً لما يحمله الشباب من نزق ، وطيش وخفة أصبح محبوباً مرغوباً ، بعكس الشيب ، الذي يحمل الوقار والحلم ، لذا تجد المتنبي يقرر هذه الفكرة ، بقوله :

والمرء يأكل ، والحياة شهيةٌ
والشيب أوقر ، والشيبة أنزقُ (٣)

ولعل ما يبعث الخوف من الشيب ، هو دنو الأجل ،وقرب الموت ، فالشباب يضع الروح في حقيقتها ، أما أيام الشيب فهي تنقل الروح إلى آخر ، غيره ، ليكون بديلاً عنه (٤) ، يقول :

وقد أراني الشباب الروح في بدني
وقد أراني المشيب الروح في بدلي (٥)

وشكوى المتنبي من مداهمة الشيب له ، في حداثة سنه ، دائمة ، خاصة إذا وافقت تعجباً من الحبيبة ، لذا يبرر الشيب واستعجال ظهوره ، بأنه لا يعكس حقيقة المرء ، فلو أن الشعر يبدأ أبيض ثم يكون عنوان الشيب الشعر الأسود ، لأستغرب الناس ظهوره ، فالشيب إذا حضر في وقت الصبا فهو بمثابة

١–م "ديوان المتنبي " ٤/ ١٥٠ – ١٥١ .
٢–م "ديوان المتنبي " صـــ٤ / ١٥٢ .
٣–المصدر السابق صـــ٣ / ٧٦ .
٤–الشرح / لأبن فروجة ن أورده العكبري في شرحه ، يقول : { وأحسن ما يحمل عليه البدل في هذه البيت الولد ،لأنه بدل الإنسان ،إذ كان يتشيب أواق شيخوخة الأب ،وإذا مات ورثه ،فيكون بدله في ماله } ينظر شرح العكبري صـــ٣/ ٧٧/ ٧٨ .
٥–ينظر "ديوان المتنبي " صـــ٣ /٢٠٢ .

اللئام، الذي يستر حقائق الأمور ، يقول :

راعتكِ – رابعةَ البياض – بعارضي
ولو أنّها الأولى لرَاع الأسحم
لو كان يمكنني سفرتُ عن الصبا
فالشـــيب من قبل الأوان تلثمُ (١)

ولعل التبرير هذا يزيد ، بقدر الإنـــكار ليؤكد المتنبي أن الشعر الأبيض ليس موجباً للموت ، ولا السواد بمنج من الهلاك ، يقول :

ولقد رأيت الحادثات ، فلا أرى
يققاً يُميتُ ، ولا سواداً يَعْصِمُ (٢)

والذكريات في عصر الشباب ، وقت الشيب تبعث الهم ، وتجلب الحزن ، فالمرء في شبابه كالثمل لهواً وغفلة ، وفي المشيب غارقاً في هموم ضعفه وعجزه ، ومن هذا المشهد تصبح الحياة ، كالموت ، يقول:

إذا كـــان الشـــبابُ الـــسُّكرَ
" م "
والشيب حمّاً ،فالحياة هي الحمِام (٣)

وتصل كراهية المتنبي للشيب ، لدرجة يجعله فيها مساوياً للعمى ، فعينه إذا لمحت بياض الشعر ، وجدته في سوادها ، وإذا ابيض سواد العين عمى صاحبها ، ويقول :

متى لحظت بياضَ الشيب عيني
فقد وجدته منـــها فـــي الـــسواد (٤)

ويصبغ المتنبي قدوم الشيب بصبغة فلسفية ، – كعادته – فهو يرى أن يجزع على فقد الشباب ،إنما أشابه من أشبه ، والشيب حصل من لدن من حصل منه الشباب ، فلا سبيل إلى التوقي من المشيب لأن أمره بيد غيره " (٥) ، فالشباب هو الذي جلب الشيب ، بقول :

مُشِبُّ الذي يبكي الشبابَ مشيبُه
فكيـــف تـــوقـــيّه و بانيه هادمـــه ؟ (٦)

١–يراجع "ديوان المتنبي "صـــ ٣ / ٢٥٠ .
٢–ينظر "عنصر اللون في شعر المتنبي " د/عبد الله أحمد باقازي صـــ٩٠ .
٣–يراجع "ديوان المتنبي " صـــ٤ / ٥٢ .
٤–ينظر المتنبي مالئ الدنيا وشاغل الناس " د/ محمد التونجي صـــ٢٤٢ .
٥–يراجع "ديوان المتنبي " صـــ٣ / ٧٦ .

وآلة الحياة الجميلة ، هما الصحة والشباب ،وعليهما مدار الراحة ،من هنا تأتي أهمية الشباب،وكراهية الشيب ، بل التشاؤم منه ، فمتى ذهب الشباب ، وذهب العيش ، يقول :

آلة العيــش صــحة وشباب
فإذا وليا عن المرءِ ..، ولى (١)

وعلاقة اللون الأبيض بالشيب علاقة متلازمة معه، قد قال أحد الباحثين " غير أن عشق المتنبي "للأبيض" لوناً للمجد والنصاعة والنقاء والعلياء جعله – فيما بعد – من رحلة الطموح يسخر من الشيب ، ويحبذ الأبيض " شيباً " (٢) ... حيث قال :

وما خضب الناسُ البياض ، لأنه
قبيح ، ولكن أحسنُ الشعر فاحمه (٣)

ولعل المتنبي بعلاقته مع الشيب ، وبالتالي مع اللون الأبيض ، عاش مرحلتين ، تمثل المرحلة الأولى ، تخوفه من ذهاب الشباب ، حذراً من فراق الطموح والحيوية ، رغم أن الشعر الأسود يغطي رأسه ، وهو تخوف سابق لأوانه ، مما يدل " على توجسه المبكر من مزاحمة هذا اللون الغريب لشعره الأسود " (٤) ، يقول :

ولقد بكيت على الشباب ، ولِمَّــتِي
مسودة ، ولماء وجهي رونق
حذراً علــيه قــبل يــوم فــراقه
حــتى لــكدت بــماء جفني أشرق (٥)

فنظرة المتنبي هنا نظرة المتأمل الذي كاد يشرق بدموعه خوفاً على ضياعه وهو في نهار الشباب ،"ولعل همومه الثقيلة في تلك المرحلة، انشغاله بالإعداد للثورة أصاب وجدانه بالغضون والهموم، فأحس بالشيب النفسي المبكر ، وهو لا يزال في نضارة الصبا " (٦)

ويعلق أحد الباحثين على هذين البيتين بقوله : " ولعله – أي المتنبي – هو لا يعرف لماذا يبكي الشباب

١–ينظر " مع المتنبي " د/ طه حسين صـــ٧٤ .
٢–ينظر "عنصر اللون في شعر المتنبي " د/عبد الله أحمد باقازي صـــ٩١ .
٣–م " ديوان المتنبي " صـــ ١ / ٣١٥ .
٤–المصدر السابق صـــ١/ ٣١٥ .
٥–ينظر "عنصر اللون في شعر المتنبي " د/عبد الله أحمد باقازي صـــ٩١ .
٦– ينظر " عالم المتنبي " د/ عبد العزيز الدسوقي صـــ٤٠

ولا يرى أنه إنما يبكي الشباب لأنه في حاجة إلى البكاء ليس غير ،كما هو يشكو العشق لأنه في حاجة إلى الشكوى ليس غير " (١)

وفي مرحلته الأخرى،صدح المتنبي بحبه للبياض ، لـــ " يصبح الشيب " محبباً مادام يحمل "اللون الأبيض" لون المجد والنقاء والنصاعة " (٢) فاللون هنا أمنية من أماني المتنبي،وكأنه يتمنى الشيب من قديم يخفي شبابه بابيضاض شعر رأسه ، لأنه ذلك أوقر وأجل في البصر ، يقول :

مُنى كُنَّ لي أن البياض خضاب
فيخفى بتبييض القرون شبابُ (٣)

ويؤكد ذلك بأن المشيب ، كان من أيام الشباب أمنية له ، فحتى لو كان الشباب فتنة وفخراً للنساء ، فهذا الفخر عيب ، فالعفيف من يبتعد عن النساء ، ويرغب عن وصالهن ، يقول :

ليالي عند البيض فوْداىَ فتنةٌ
وفخرٌ ..،وذاك الفخر عندي عاب

وينفي عن نفسه شكوى الشيب ، وهو نفي يؤكد الشكوى لا ينفي ، لأنها محاولة لإقـــناع نفسه ، بأن هذا الأمر أمنيته، فكيف يذمه ويشكو منه ، فالبياض في الشيب يحاكي ،ضوء النهار ،حين يجلي عنه الضباب، يقول :

فكيف أذمُ اليوم ما كنتُ أشتهي
وأدعـــو بـــما أشكوه حين أجـــاب
جلا اللون عن لونٍ هدَى كل مسلكٍ
كما إنجاب عن ضوء النهار ضبابُ (٤)

بعد هذا النص يمكن أن نواجه قول أحد الباحثين بأن " يصبح الشيب " محبباً مادام يحمل " اللون الأبيض " لون المجد والنقاء والنصاعة والعلياء " (٥)

وهكذا تتجاذب المتنبي فكرتان ، حول الحنين إلى الشباب ، والرضا بالشيب تارة يتضجر ، وتارة يستسلم

١- ينظر " مع المتنبي " د/ طه حسين ، ص ٧٤ .
٢- ينظر " عنصر اللون في شعر المتنبي " د/ عبد الله باقازي ، ص ٩١ .
٣- م " ديوان المتنبي " ص ٣١٥/١ .
٤- المصدر السابق ، ص ٣١٥/١ .
٥- ينظر " عنصر اللون في شعر المتنبي " د/ عبد الله باقازي ، ص ٩١ .

للأمر ، وفي نظرة واقعية يكابر على المسلمات ، بأن الشيب والشباب لا فرق بينهما ، ولكن يحن إلى الشيب ، بشكل حميمي كبير ،حتى لو عاد إلى الصبا ، لبكى مفارقة الشيب ، يقول :

خُلقتُ ألوفاً ، لو رحلتُ إلى الصبا
لفارقت شيبي موجع القلب باكيا (١)

ولعل هذا البيت يحمل كمية من الوفاء ، الذي يتمتع به المتنبي ، لأنه راهن على أكبر أمنية يتمناها الإنسان، وهي عودته للشباب ، ليؤكد على مقدار وفائه .

ولعل في النماذج السابقة ما يوضح بجلاء شكوى الشيب عند المتنبي ، وإن أنكر ذلك ، إنكار المكابر ، وتبرير العاجز ، فكل الشواهد تتسم بطابع اليأس والتشاؤم ، وتنم عن صدق العاطفة ، لأن الشكوى هنا تنبع من إحساس صادق تجسد حجم هذا الداء وشدة وطأته .

٦- الشكوى من المكان و الغربة :

مدخل :

يألف الإنسان المكان الذي عاش فيه ، ويحن إليه ، متى دفعته الظروف لتركه .

والقرن الرابع باضطراباته، وأحواله، دفع الشعراء إلى هجر أوطانهم تغرباً ،وذلك أما دفع أمر، أو لتحقيق مطلب . إلا أن الشاعر في هذه الحالة يستمر في ذكر وطنه ، متعلقاً بترابها ، مهما ابتعد عنها ورحل ، متناسي بذلك الظروف ، وتقلب الأيام .فالغربة التي يعيشها الشاعر ، هي غربة المكان ، وغربة الذات ، وتصل أحياناً إلى غربة المجتمع بأسره ،الذي يتحكم فيه أناس دخلاء ، وأقوام غرباء عنه . وإزاء تلك الظروف والضغوط ، وجد الشاعر نفسه أمام غربة نفسية ووطنية ، بدت بثقلها حادة عميقة ، لتتحول القصائد إلى آلام وأنات ، تفوح بالشكوى الصارخة ، وتتسم بالأسى واللوعة .

و" الموقف من الطبيعة والمكان مرتبط بنوعية التعامل مع الأرض " (٢) لذا نجد الشعراء ينطلقون في الحنين إلى أوطانهم بقدر التعامل مع هذا التراب ، وبحجم الإرتباط به .

ولعل المتنبي من أبرز الشعراء الذين أحسسوا بالغربة، واشتكوا منها ،فلقد سيطرت على شعره، وتقاربت

١-م "ديوان المتنبي" صـــ٤ / ٤٢١ .

٢-ينظر "حركية الإبداع " دراسات في الأدب العربي الحديث ، د/خالدة سعيد صـــ٢٩ .

عنده في الصور والمعاني ، طافحة بالشكوى المفعمة بحرارة العاطفة الصادقة ، والإحساس الباكي ،ويكاد يدور في شكواه لغربته ، حول محور "الرحيل الدائم "، وانتقاله من مدينة لأخرى ، ومن مكان إلى آخر ، زاده في ذلك الطموح والأمل والهموم ، فهو دائماً "على قلق " لا يحاول الإقامة في أرض، ولا يرحل عنها لأن الرحيل لمن أقام ، وهو لا يقيم ببلد ، كأنه على ظهر الريح ، يقول :

فما حاولت في أرضٍ مقاماً
ولا أزمعت في أرض زوالا
على قلق ، كأن الريح تحتي
أوجهها جنـــوباً أو شـــمالا (١)

وقد يتجرد المتنبي من المكان ،ويتنكر إليه ، ويكابر بأنه غني عن الأوطان ،لا يشده الرجوع إليها ،يقول :

غَنِيٌّ عن الأوطان ، لا يستفزني
إلى بلد سافرت عنه إيابُ (٢)

ولكن هذه المكابرة والغنى عن المكان سرعان ما تنكشف أنها محض دعوى ، بل صراع في نفس المتنبي حول الاستفزاز وعدمه ، يؤكد ذلك ، أن الوطن مصدر التعلل ، بل من أهم مصادر الاستقرار ، يقول :

بم التعلل ، لا أهل ، ولا وطن
ولا نديم ، ولا كأس ، ولا سكن

وترتبط الغربة عند المتنبي حين تبرز في شكواه التي تنطوي على شعوره القومي ، وذلك خلال إقامته في مصر ، وإحساسه بالغربة ، وسط المماليك ، الذين يشعر الإنسان بأنه يتيم بينهم ، يقول :

أمـــا في هذه الدنيـــا مكـــان
يـــسرّ بـــأهله الجـــار المـــقيم
حصلت بأرض مصر على عبيد
كـــأن الحـــر بينـــهم يـــتيـــمُ (٣)

ويؤكد هذه الأحاسيس العربية ، التي تلازمه في سفره وغربته ،حين عصفت به عواصف الغربة في مكان

١-م " ديوان المتنبي " صـــ٣ / ٣٤١ .
٢-م " ديوان المتنبي " صـــ١ / ٣١٦ .
٣-المصدر السابق صـــ٤ / ٢٨٢ .

لا أثر فيه للعرب ، أو العروبة ، (١) لذا أخذ يتحسر و يصرح بالغربة فقال :

مغاني الشعب طيباً في المغاني
بمنزلة الربيع من الزمان
ولكن الفتـــى العـــربي فيها
غريب الوجه، واليد، واللسان (٢)

ولعل شعور المتنبي بالتميز ، والفوقية ، من معطيات الإحساس بالغربة ، فالنفيس قليل المرافق ، والمساعد ، فالغربة هنا هي شعور بالوحدة وسط المجتمع " لفقد النظير ،لا لفقد النسب " (٣) ، يقول :

وهكذا كنتُ في أهلي ، وفي وطني
إن النفيس غريبٌ حيثما كانا (٤)

" فكان اغترابه عن المجتمع إحدى وسائله في التعبير عن ذاتيته في إطار من هذا البعد النفسي " (٥) بل يعتبر كثرة الترحال المستمر الذي يعكس منه جانبا موقفه العام من البقاء في مكانٍ " ما " ، وكأنه لا يطيب له هذا الاستقرار إلا أن يرحل دائماً ، ليعكس بذلك قلقه وحيرته " (٦)

لذا هو في غربة دائمة ، ولعل قصيدته في سيف الدولة (٧)، التي "بدأها بذم المكان الذي لا يجد فيه الأمن النفسي بل يجد فيه الحاقدين والحاسدين" (٨) يعكس جانباً من الحركة المستمرة ، والسفر المتواصل ، يقول :

أرى النوى تقضيني كل مرحلة
لا تستقل بها الوخادة الرسم (٩)

والأطلال بما تثيره من ذكريات تحضر في ذهن المتنبي ، فيبوح بالشكوى لها ، والحنين إلى أيام الإقامة بها ، " على أن الديار ، وإن أقفرت من الأحبة ، فالقلوب لا تزال أهلة بالوجد والذكريات " (١٠)

١-كان ذلك "شعب بوّن " سنة ٣٥٤ .
٢-انظر "ديوان المتنبي " صـــ٤/ ٣٨٣ / ٣٨٤ .
٣-ينظر "ديوان المتنبي " صـــ٤/ ٣٥٤ .
٤-ينظر "ديوان المتنبي " صـــ٤ / ٣٥٤ .
٥-أنظر "مداخل فكرية ونفسية إلى المتنبي "د/ عبد الله التطاوي صـــ١٥٢ .
٦-المصدر السابق صـــ١٥٠ .
٧-كان ذلك سنة ٣٤٢ هـــ .
٨-ينظر " عالم المتنبي " د/ عبد العزيز الدسوقي صـــ ٥١ .
٩-ينظر "ديوان المتنبي " صـــ٤ / ٨٨ .
١٠-ينظر " المتنبي دراسة عامة " لجورج غريب صـــ٢٢٥ .

" فالقلوب لها منازل للمنازل " ، وقد يتجاوز الأمر من الشكوى ، إلى البكاء ، فالدموع تذرف ، حين تدعوها الأطلال ، فتستجيب قبل الأصحاب والركاب ، يقول :

أجاب دمعي ، وما الداعي سوى طللٍ
دعـــا ،فلبّاهُ ، قبل الركب والإبل
ظلـــلـــت بيـــن أصيحابي أكفـــكـــفه
وظـــلَّ يســـفح بين العذر والعذل (١)

وتتجلى أهمية المكان بما يضمه من أهل وأحباب وأصحاب ، وبما تحويه جنباته من ذكريات وأيام ، فالمكان يشعر بالموت حين يهجره أهله وساكنوه ، يقول المتنبي :

لا تحســبوا ربعُكم ، ولا طلله
أول حـــيٍّ فـــراقـُكـــم قـــتـــلـه (٢)

ولعل الحوار مع الطلل يتخذ بعداً من المحادثة المتغلغلة في إمكانية البكاء من عدمه ، حين يكون ثالث الثلاثة ، المتنبي والإبل والطلل ، يقول :

إثلِـــث فإنّا أيُّـــها الطـــلل
نبكي وتُرْزم تَحتَنَا الإبل (٣)

فالشكوى هنا تتحول إلى بكاء ، يأخذ طابع المشاركة بين الثلاثة ، وإذا اعتذر الطلل ، فلا عتب ، فالطلول من عادتها عدم البكاء ، يقول :

أوْ لا فلا عتبٌ على طلل
إن الطلول لمـــثلها فـــعُلُ (٤)

ويتولى المتنبي عن الطلل الإجابة ، فهو يعتذر ، بأنه أحد الذين قتلوه الأحبة بفراقهم ، وكأن الفراق قتل الطلل ، يقول :

لو كنت تنطق قلتَ معتذراً
بي غيرُ ما بك أيُّها الرجلُ
أبكاك أنك بعض من شَغَفُوا
لم أبْكِ ، أني بعضٌ من قتلوا (٥)

١-ينظر "ديوان المتنبي " صـــ٣ / ١٩٨ .
٢-ينظر "ديوان المتنبي " صـــ٣ / ٣٨١ .
٣-ينظر "ديوان المتنبي " صـــ ٤ / ١٥ .
٤-ينظر "ديوان المتنبي " صـــ٤ / ١٦ .
٥-ينظر "ديوان المتنبي " صـــ١٦/٤ .

وقد تتحد الهموم مع الذكريات ، في مرتع التصابي ، الذي تحوّل إلى طلل بالٍ ، ومنزل مهجور ، فالدمن المتكاثرة والهموم المتناثرة في عر صات المكان بعدد اللّوّم ، كل هذا يجلب الموت قبل وقت الموت ، يقول :

ذِكَرُ الصِّبى ، ومراتـــع الآرام
جلبت حمامي ، قبل وقت حمامي
دُمِنٌ تكاثرتِ الهمومُ عليّ في
عرصاتها ، كتكـــاثـــر الـــلوّام (١)

ولعل ما يشجي المتنبي ، ويبعث المتاعب له في ذكرى المكان ، هو ذلك الحنين الجارف ، وحميميته الأليفة للديار ، والأحباب والأماكن ، رغم أنه ينكر ذلك ، إلا أنه يصرح بهذه الألفة ، وهذا التداخل مع الأشياء التي حوله ، يقول :

خلقت ألوفاً ، لو رحلت إلى الصبا
لفارقت شيبي موجع القلب باكيا (٢)

ومن هنا تتضح إشكالية شكوى المكان عند المتنبي ، وتسفر في وجهها الحزين .

ولعل هذه الألفة ، جعلت الوقوف على الأطلال والبكاء عندها ، والشكوى إليها ، والكآبة حين رأيتها ، لما تثيره من مواجع وذكريات ،جعلت الوقوف – رغم كل هذه المواجع – أمراً راسخاً في الذهن، بحيث يدعو المتنبي على نفسه بأن يبلى بلى الأطلال ، إذا لم يقف بها وقفة طويلة ، كتلك التي يقفها من أضاع في التراب خاتمه ، وهو على قدر كبير من البخل ، ولا أحد يعاتبه على هذا الوقوف من عذاله ، ومرافقيه لأنه " كئيب " ، يمكن أن يصدر منه أي عمل ، كما يصدر من الخيل غير المروضة ، يقول :

بَليتِ بِلى الأطلال إن لـــم أقف بها
وُقوفَ شحيح ضاع في التراب خاتَمه
" كئيباً " توقاني العواذل فـــي الهوى
كمـــا يَتَوقى ريّـــضَ الخـــيل حازمُه (٣)

وليست الأطلال ببقائها ،وآثارها ، ورسومها ، ما تثيره في المتنبي من شكوى المكان ، والحزن على ما اجتراحه فيه من أفعال ، أصبحت بمرور الزمن ذكريات تنبش الألم ، وتعيد زمن الوصل ... ، بل قد

١–ينظر "ديوان المتنبي " صـــ٤ / ١١٩ – ١٢٠ .
٢–ينظر "ديوان المتنبي " صـــ٤ / ٤٢١ .
٣–راجع " ديوان المتنبي "صـــ٤/ ٤٦/ ٤٧ .

يخاطب المتنبي الحيوان في مكان تجتمع فيه الشكوى ، مع التعب ، في الفراديس (١) ، حين سمع زئير الأسد ، أخذ " يخاطب أسود هذا المكان فيقول : هل يكون من جاورك مكرماً عزيزاً فأطمئن إلى جوارك ، أم يكون مهاناً مخذولاً ؟! إن أعدائي كثير فهل ترغبين في معاهدتي على ما أريده من جوارك ، فإني أعلم منك بالتصرف في كسب المعاش كأنه يرغبها في مجاورته " (٢) ومثل هذه الشكوى تعطي معطٍ آخر من الشكوى ، وهو شكوى الأصدقاء ، فلا تستعين بالأسد إلا من قل مساعدة ، فأصبح رصيده من الخلان يقول :

أجارُكِ – يا أسد الفراديس – مكرمُ
فتسكن نفسي ، أم مُهان فـُسْلَمُ ؟!
ورائي وقـُدّامي عـداةٌ كثـيرةٌ
أحاذر مـن لصٍ ومنكِ ومنهـمُ
فهل لكِ في حلفي على ما أبدُهُ
فإني بأسبـاب المـعيشة أعلـمُ (٣)

ويرى أحد الباحثين أن مقدمات المتنبي الطللية تحمل عنصر المبالغة ، لذا تفتقد في نهاية الأمر صدق العاطفة ، فقد وقف المتنبي على الرسوم والأطلال كما وقف غيره ، وذرف الدموع في الربوع الخالية شأن الشعراء المقلدين،وعلى الرغم من ثورته على هذه العادة المتبعة فإنه لم يكن صادقاً في ثورته " (٤) ولكن المتنبي يذكر الأطلال ،والمؤثرات التي تجتاحها ،على عادة أسلافه ،لكنه يربطها بصورة من الدهشة والتجديد ،عندما يجانس بين المطر ، مثلاً ، الذي درس أثار الديار والمكان وبين السقم الذي اجتاح جسده الهزيل ، الناحل ، فالديار تشكو إليه ، وهو لا يشكو إلى أحد ، لأن الأطلال هامدة جامدة ، يقول :

ولا الديار التي كان الحبيب بها
تشكو إليّ ، ولا أشكو إلى أحد
مازال كل هزيم الودق ينحلها
والسقم ينحلني ، حتى حكت جسدي (٥)

وهنا نلمس الصدق في العاطفة ، والجدة في الطرح ، حين مثل المتنبي عناصر الثقافة المتنوعة في شعره

١–الفراديس : موضع بالشام .
٢–ينظر " المتنبي دراسة عامه " لجورج غريب صـ ٣٣١ .
٣–راجع " ديوان المتنبي " صـ٤/٢١٤ .
٤–ينظر " لغة الحب في شعر المتنبي " د/ عبد الفتاح صالح نافع صـ١١٥ .
٥–راجع " ديوان المتنبي " صـ٢/ ٧٠ /٧١ .

فأصبحت قصيدته " لم تعد تعبر فقط عن خواطر وجدانية ، بل أصبحت تعبّر أيضاً عن ثقافة ، حتى تظفر بالنجاح في بيئات العلماء والمثقفين " (١)

ولعل في الشواهد الماضية ما يكفي لإبراز الشكوى من المكان ، الذي يضم الوطن والذكريات والحبيبة والأهل ، عند المتنبي ، حين رسم الشعر عنده صوراً تطفح بالحياة ، وتضج بالشجون ، ولقد تلازم الطلل أكثر ما تلازم بالمرأة " الحبيبة " ، فوقف المتنبي من ذلك " الحزن " يروي نشيداً شجياً ، يشرح حكاية الوجد في حنينه وشوقه ، ووجعه وحزنه ، وصدّر بها مقدمة قصائده كشاهد على حضور المرأة ، ومكانتها في فؤاده .

٧- شكوى السجن :

مدخل :

أسهمت العوامل المحيطة بالمجتمع التي شهدها البشر على مر العصور على ظاهرة السجن ، كعقوبة رادعة ، وجزاءً مستحق .

ولكن هذا لا يلغي الظروف الأخرى ، التي ساعدت على انبثاق هذا .. الوضع " مثل مقاومة الظلم ، والوقوف من وجه التعسف ، ورفض امتهان مصائر الناس .

ولعل أقوى العوامل في الحروب ،والإختلاف على القضايا المصيرية ،والتي يعقبها دائماً السجن أو الأسر، وهذا ما جعل القرن الرابع يحفل ببروز مثل هذا اللون من الشكوى ، التي ترفض السجن ، وتشتكي من الأسر .

وشكوى السجن عند المتنبي ، لا تساير بقية الأبواب ، فهي يسيرة إذا ما قورنت بأي شكوى أخرى .

ويزيد من تقليل قيمة هذه الظاهرة عنده ، كونها معاصرة لظاهرة الأسر التي وقع فيها الشاعر أبو فراس الحمداني (٢) " والذي " أورث في موضوع السجن قصائد كُتب لها حظها في الخلود " (٣) ،" ذل الأسر جعل للأسير روحاً معنوية عالية،"لقد كان أسره نعمة على الأدب العربي بهذا الشعر الرائع المتدفق من العاطفة"

١-ينظر " الفن ومذاهبه في الشعر العربي " د/شوقي ضيف صـ٢٠٧ .

٢-هو الشاعر /أبو فراس الحمداني المتوفى سنة ٣٥٧ هـ ،ابن عم سيف الدولة ، راجع وفيات الأعيان جـ٢صـ١١٤ .

٣-ينظر " حصاد السجن " للشاعر أحمد الصافي النجفي صـ٥٠ .

ولا يقل في جودته وجماله عن أي أدب عالمي " (١)

والشكوى من السجن في مجملها تشكل إنعكاساً نفسياً لحالة الشاعر السجين ،وقد ارتبط الأدباء بالسجون منذ زمن بعيد إرتباطاً تختلف باختلاف العصور والظروف والشعوب . (٢)

والمتنبي أحد الذين سجنوا لمواقفهم السياسية في طلب الملك ، لأنه لما " شعر وبرع وبلغ من كبر نفسه وبعد همته أن دعا إلى بيعته قوماً من رائشي نبله ، على الحداثة من سنه والغضاضة من عوده ، وحين كاد يتم له أمر دعوته تأدى خبره إلى والي البلدة ، ورفع إليه ما هم به من الخروج ، فأمر بحبسه وتقييده " (٣)

وقد تعددت الروايات حول حبسه (٤)،ولكن الذي يعنينا هو الشكوى من الحبس ،والإنكسار حين دخل السجن ويقول أحد الباحثين : " ونرى – من دراستنا لقضية نبوءته – أنه سجن بها لقرب القضيتين من بعضهما بعضاً ، النبوءة والسجن ، ولأنه لم يصّرح بالتهمة التي سجن من أجلها ، ولم تعرف له مشكلة يمكن أن تُدخله السجن غيرها ، وللغموض الذي كان يكتنف حياته الأولى ، وتقريع الناس له على قضية نبوءته حتى آخر حياته ، ولما شاع ذكره بأرض سلمية من عمل حمص في بني عدي ، قبض عليه ابن علي الهاشمي في قرية يقال لها " كوتكين " . وأمر النجار أن يجُعل في رجليه وعنقه قـُرمتين من خشب الصفصاف ، وفي ذلك يقول المتنبي :

زعـمُ المـقيمُ بكوتكين بأنه
من آل هاشم ابن عبد مناف
فأجبته : مذ صرتَ من أبنائهم
صارتْ قيودُهم من الصفصاف

وفيهما دليل على النبوّة أيضاً ، وهي غيرة آل هاشم على الدين " (٥)

١–ينظر " شعر أبي فراس الحمداني " دراسة فنية " لماجدولين بسيسو صـ١٢٤ .

٢–للمزيد في هذا الموضوع يراجع " أدباء السجون " لعبد العزيز الخلفي المطبوع سنة ١٣٨٥ هـ ،وكتاب " الأسر والسجن في الشعر العربي " للدكتور / أحمد مختار البزره ، رسالة دكتوراه

٣–ينظر " يتيمة الدهر " للثعالبي صـ١٤١/١ .

٤–ومن أبرز التهم أيضاً ، التي وجهت إليه ، ادعاء النبوة ، غير أن من يقف على شعره الذي قاله في هذا الصدد يلحظ خلوه من أية إشارة لذلك ، لذا أكتفي برأي صاحب اليتيمة لكونه من معاصريه . وللمزيد ينظر" تاريخ بغداد للبغدادي صـ١٠٤/٤ .

٥–م " المتنبي مالئ الدنيا وشاغل الناس " د/ محمد التونجي صـ٤٣ . علماً بأن البيتين لم أجدهما لا في شرح الديوان للعبكري ، ولا شرح الديوان للبرقوقي ، بل هما في حاشية الديوان بشرح البرقوقي صـ٢٣/٣ .

ومع كل هذا يظل الدافع الأقوى لدخوله السجن هو ما ذكره الثعالبي .

وكل ما ذكره المتنبي من شعر في السجن هو قصيدتان ،ولكن يحملان من الأهمية في الشكوى عند المتنبي صورة واضحة ، فقد زج به " في السجن سنة ٣٢٢ هـ على الأغلب ، ليقضي فيه عامين . ولما دخل السجن كانت نفسه مشبعة بالطموح والعلاء بادئ الأمر " (١) ، ولم يعبأ – أول أمره – بالسجن ، فقد كان محتفظاً بكبريائه على الرغم من قسوة الأشياء عليه ، فصورة الإباء لازمته في سجنه ، وأظهر تحمّله على مضض إهانة الحبس ، يظهر ذلك من محادثته لسجّانه ، ومحادثته للسجن ، مستهيناً بالسجن ، مستحملاً للمتاعب ،وإذا قبل الطعام من أبي دلف (٢) ، فهو لسد الرمق ، وقتل الجوع الذي يجعل الأسود ترضى بالجيف ، فالسجن عنده مقر الأبطال ، كما أن الدر يحبسه الصدف الذي لا قدر له ، يقول :

أهونْ بطول الثواء والتلف
والسجن والقيد يا أبا دُلفِ
غير اختيارٍ قبلتُ برّك بي
والجوع يُرضي الأسودَ بالجيفِ
كُنْ أيُّها السجن كيف شئت فقد
وطّنتُ للموت نفس معترف
لو كان سُكناي فيك منقصةً
لم يكن الدُّر ساكنَ الصدفِ (٣)

" غير أن السجن طال ، فرق قلبه ، ولان عودُه ، فعمه الذل ،وغلب عليه الألم والشكوى والتوبة " (٤) بعد أن سلبت حياته ، فظل معطل الإرادة ، جريح الهمة ، وجد في " الشكوى المرة " طريقاً يخرج به من هذا الحبس – بعد أن دب اليأس إليه ، وانقطع الرجاء ، لم يجد إلا أن يسترحم الوالي، ويطلب العفو منه، وما عليه أيضاً إلا أن يعتذر عما بدر منه لينقذ نفسه من التلف " (٥)

١–م " المتنبي مالئ الدنيا وشاغل الناس " صـ ٧٣ د/محمد التونجي .

٢–هو رجل يعرف بأبي دلف بن كنداج ، كان سجان الوالي الذي اعتقل المتنبي ، وكان صديقاً له من قبل . حاشية البرقوقي صـ٣ /٢٣ .

٣– ينظر " ديوان المتنبي "صـ٣ / ٢٣/٢٤ .

٤–راجع " المتنبي مالئ الدنيا وشاغل الناس " د/ محمد التونجي صـ٤٤ .

٥–ينظر المصدر السابق " صـ٧٣ .

وهذا ما فعله عندما كتب للوالي يشكو إليه مستعطفاً إياه ، يقول :

أ مالك رقي ومن شـــأنه
هبات اللُّجين وعـــتق العبيد
دعوتك عند انقطاع الرجـــا
" م "
ءِ والموت مني كحـــبل الوريد
دعوتك لما براني البـــلاءُ
وأوهن رجليّ ثِقلُ القيـــود
وقد كان مشيهما في النعال
فقد صار مشيهما في القيود (١)

ويشير إلى حداثة سنه ، ودعوى الأعداء فيه محض افتراء ، فالفرق واضح بين نية الفعل ، والفعل ، يقول :

تُعجّلُ فيّ وجـــوب الحـــدود
وحديّ قبـــيلَ وجوبِ السجود
فـــلا تسمعن مـــن الكاشحين
ولا تعـــبأنّ بمـــحك اليـــهود
وكُـــنْ فارقاً بين دعوى أردتُ
ودعوى فعلتُ بشأوٍ بعـــيد (٢)

الراصد لشعر المتنبي في السجن ، يلمس الشكوى في نهاية الأمر ، بعد أن كان في أول دخوله مكابراً ، طامحاً ، أصبح – في نهاية الأمر – يشتكي مسترحماً ومستعطفاً ، وشعر المتنبي في الحبس لو أردنا موازنته " بحسبات أخرى لشعراء جربوا السجون كعلي بن الجهم أو معاصره أبي فراس وجدنا فرقاً كبيراً بين معنوياتهما القوية ، ومعنوياته الواهية ، وشخصيتهما ذات البأس والعنفوان ، وشخصيته الذليلة التي تركب كل هوان .. ولعل مردَّ هذا الخلاف إلى صغر سنه ، ونوعية جرمه ، وقلة تجربته " (٣)

ويرى أحد الباحثين أن ثمة أشعار كثيرة قالها المتنبي في السجن بعد " أن أحس بالألم والذلة،وتاقت نفسه إلى الحرية ولم يكن مما يلائـــم كبرياءه وكرامته أن يثبت هذا الشعر أو يذيع منه إلا أيسره وأهونه" (٤)

١-ينظر " ديوان المتنبي " صـــ٢ / ٦٨ .

٢-المصدر نفسه صـــ٢/ ٦٨ .

٣-ينظر " المتنبي مالئ الدنيا وشاغل الناس "د/ محمد التونجي صـــ ٧٤ .

٤-ينظر " مع المتنبي " د/ طه حسين ، صـــ ١٠١ .

ومهما يكن من أمر هذه الأشعار ، إن صحت دعوى ضياعها فإن الشواهد اليسيرة التي وصلت إلينا تعكس حقيقة الشكوى من الحبس حين يأخذ المتنبي " و يعـــرض واقعه وآلام واقعه ، فينفجر غضباً وسخطاً ، ويحترق أسى ومرارة لما هو عليه من إهمال وهوان ، مع ماله من مواهب ومعارف ومطامح، ومن هنا تقترب الشكوى من الفخر وتؤلف مظهراً حزيناً من مظاهره " (١)

ومن هنا يشكل الحبس رافداً من روافد الشكوى عند المتنبي ، ليضيف إلى أحزانه حزناً يعمق الحسرة ، ويحد من تطلعاته ، ويجعله يعيش حالة مزدوجة من الكبرياء والخضوع ، والإنتصار والإنكسار ، ولعل هذا أبلغ صور الشكوى ، وأوضح صفحاتها .

١-ينظر "الشعر العربي في العراق وبلاد العجم في العصر السلجوقي " لعلي جواد الطاهر صـــ٢ / ١٢٤ .

٨- ما يوحي بالشكوى :

مدخل :

شعر الشكوى لا يصدر إلا إذا كان المرء متألماً ، تلاحقه الهموم ، وتتابعه الألاقي ، وتتداوله القلاقل.

وترتفع حدة الشكوى بقدر الطموح و تكبر بحجم التطلع ، وتزيد بضخامة الأمل .

ولعل المتنبي وقع في هذه الثنائية ، وأدرك أن النفوس الكبيرة ، تنالُ من الأجسام ، وترهقها صعوداً وسفراً ومراداً ، يقول :

وإذا كانت النفوس كباراً
تعبت في مرادها الأجسام (١)

وقرر هذه الحقيقة في حضور المشقة لطالبي السيادة والريادة والطموح ، فمن تحلى بالكرم ، والجود أدركه، الفقر ، ومن حارب ، وفاضل قد يتعرض للموت والقتل ، يقول :

لولا المشقة ساد الناس كلهُم
الجود يُفقر ، والإقدام قتّالُ (٢)

من جراء هذا الطموح أصبح المتنبي سجيناً بلا قيود ، سجين طموحه ، وأسير آماله ، ورهين تطلعاته ، وحيدٍ من الخلان في كل بلدة : ، ليكتفي بالسعادة المخصلة من ركوب فرسه الكريمة ،التي تنقله من مكان لآخر ، يقول :

وتسعدني في غمرةٍ بعد غمرة
سبوحٌ لها منها عليها شواهد (٣)

والمتنبي في شعره كثير الشكوى ، متعدد الجهات ، وسلاحه في ذلك الذم والتهديد والوعيد والإفتخار ، ولكنه نادراً ما يذكر سبب الشكوى ، وقلما يشير إلى الدوافع التي جرّته إليها " (٤)

١-راجع " ديوان المتنبي " صـــ٤ / ٦٤ .

٢- المصدر السابق صـــ٣/ ٤٠٦ .

٣- نفسه صـــ٣ / ٢٠٢ .

٤-ينظر " المتنبي مالئ الدنيا وشاغل الناس "د/ محمد التونجي صـــ ٢٣٩ .

وقد تظهر الشكوى صراحة ، في موقف غرام ، حين يكون المتنبي متأبطاً سيفه ، وهو داخل في شكوى الشوق ، وخوف الفراق ، يقول :

فبات بيـــن تراقينا ندقعه
وليس يعلم بالشكوى ولا القبل (١)

وترتفع هذه الشكوى ، لتكون الحبيبة داهية ، ونازلة تجلب الهزال إلى الجسد ، وتدق العظام حتى ترضها ومتى أغناها البعد والنسيان عنه ، فهو معدم – بسبب سلوها – من كبده ومنها ، يقول :

إن كان أغناها السلوُّ ، فإنني
أصبحت من كبدي ومنها مُعدما (٢)

فهو هنا يشتكي من سطوة الحب ،ولوعة السلو ، ومرارة العشق ، ثم ما يلبث بأن يقلب ظهر الشكوى ، ليظهر شكوى مناقضة لها في الإتجاه والمضمون ، فذلك القلب الذي ينفطر حباً ، والجسد الذي يأكله الضنى ، يتحول إلى صخرة يتملكها التبلد ، ويخيم عليها الجمود ، كالصخرة التي لا تؤثر فيها نظرة ، ولا تشتاق لتصابي ، يقول :

لم يترك الدهر من قلبي ولا كبدي
شيئاً تتيمّـــة عـــين ولا جيد
أصخرةٌ أنا ؟ مالي لا تحركني
هذي المدام ، ولا هذي الأغاريد (٣)

وتنكشف هذه الثنائية ، ثنائية الطموح والخضوع ، في جانب آخر من شكوى المتنبي ، فليس التعلل بالأماني ، والتسلي بالآمال من أخلاقه ، ولا الرضى بالقليل من صفاته ، يقول :

ليس التعلل بالآمال من أربي
ولا القناعة بالإقلال من شيمي (٤)

١- ينظر " ديوان المتنبي " صـــ٣/ ٢٠٢ .
١- نفس المصدر صـــ٤/ ١٤٤ .
١- نفسه صـــ٢/ ١٤١ .
١- نفسه صـــ٤/ ١٥٥ .

وعدم القناعة ، والآمال العريضة ، جعلت من الرجل ، شحاذاً ، ذليلاً ، يطوف الأرض ، يستجدي العطايا والهبات ، يقول : مخاطباً كافوراً : (١)

أبا المسك هل في الكأس فضلٌ أناله
فإني أغني منذ حين وتشرب
ومـــا طـــربي لمـــار رأيتك بـــدعةً
لقد كنتُ أرجو أن أراك فأطرب (٢)

ويؤكد على هذه " الشكوى " في قصيدة أخرى ، حين ترفع الحجب ، ويبقى الأمل المرجو محجوباً ، والحاجات وإن دفنت في النفس فذكاء المخاطب ، والسكوت عنها خطابان يفصحان عنها ، يقول :

وهل نافعي أن ترفع الحجب بيننا
ودون الذي أملتُ منك حجابُ
وفي النفس حاجات ، وفيك مظنةٌ
سكوتي بيانٌ عندها وخطاب (٣)

وقد كلفه حب المال المشقة التي تصل إلى الموت ، يقول :

حتـــى وصلتُ بنفس مات أكثرها
وليتني عشتُ منها بالذي فَضَلا
أرجو نداك ، ولا أخشى المطال به
يا من إذا وهب الدنيا فقد بخلا (٤)

وقد تكون الشكوى من ضيقة الصدر و وطأة الحزن ، وسقم الجسد متجمد من إلى السفر والترحال ، يقول:

لا أبغض العيش ، لكني وقيتُ بها
قلبي من الحزن ،أو جسمي من السقم (٥)

١-سأفصّل علاقة كافور بالمتنبي في فصل العلاقات ، الفصل الثالث .
٢-ينظر " ديوان المتنبي " صـــ١/٣٠٦ /٣١١ .
٣-نفس المصدر صـــ١/٣٢٤ .
٤-المصدر السابق صـــ٣ /٢٩٠ .
٥-نفسه صـــ٤/٢٨٦ .

ويسطو عليه الهم ، فيركب العيس الخفاف ، مفرجاً عن نفسه ، يقول :

فقلقلت بالهم الذي قلقل الحشا
قلاقل عيسٍ كلُّهن قلاقلُ (١)

وسيرة المتنبي الممتلئة بالأحداث والنوائب " التي ازدحمت عليه سهلت حديث الشكوى " (٢) ، ورغم كل هذا إلا أن الرجل يؤكد علو همته ، وجلادته وبأسه ، وتحولاته ، وأسفاره ، في مناكب الأرض ، يقول :

فالموت أعذر لي ، والصبر أجمل بي
والبر أوسعُ ، والدنيا لمن غلبا (٣)

ولكنه سرعان ما يعود إلى الضجر ، والشكوى ، لتصبح عنده عادة ، يمارسها في كل مناسبة ، ويدرك ذلك في نهاية الأمر ، يقول : (٤)

ألا ليت شعري هل أقول قصيدةً
فلا أشتكي فيها ولا أتعتبُ (٥)

وقد مزج التناقض بين الشكوى وكتمانها في حالة الحب في بيت واحد ، حين ذكر هذا التناقض ، " بين كون حق الحب أن يغلب على اللسان ، وبين كون ألذ الشكوى : الإعلان " (٦) ، يقول :

ألحبُّ ما منع الكلامَ الألسنا
وألذ شكوى عاشق ما أعلنا (٧)

١-انظر " ديوان المتنبي " صـ ٣ / ٢٩٣ .
٢-ينظر " المتنبي مالئ الدنيا وشاغل الناس "د/ محمد التونجي صـ ٢٣٠ .
٣-انظر " ديوان المتنبي " صـ ١ / ٢٤٩ .
٤-تأتي أهمية البيت لكونه من قصائد المتنبي المتأخرة ، حيث نظمه في سنة ٣٤٧ هـ .
٥-انظر " ديوان المتنبي " صـ ١/ ٣٠٤ .
٦-راجع حاشية البرقوقي لشرح ديوان المتنبي صـ ٤ / ٣٢٧ .
٧-انظر " ديوان المتنبي " صـ ٤ / ٣٢٧ .

وتبرز في شعر المتنبي شكوى مغلفة ، وذلك حين يمدح الرجل ، بأنه لا يعبأ بالزمان وما فيه من غم وسرور ، وكأن المتنبي عاجز عن الصبر ، ويستثقل الطوارق ، والنوائب ،يقول : مادحاً " بدر بن عمار"

هان على قلبه الزمان فما
يبينُ فيه عمٌّ ولا جذل (١)

ويمدح آخر بأنه ، يمن على الأسرى فيطلقهم من الإسار ، ويأسر الأعداء ، ويزيل شكوى ذوي الشكوى ، يذل من يراغمه ويصادمه ،يقول مخاطباً الممدوح :

إلى مطلق الأسرى ، مخترم العدا
ومُشكي ذوي الشكوى ورَغم المراغِم (٢)

وبهذا تكون الشكوى قد انكشفت وانجلت ، سواء كانت شكوى عامة أو خاصة ، الصريح منها والمضمر ، والشواهد كثيرة في الديوان ، ولكن يكفي من الأدلة والبراهين ما ذكرته ، على أن الشكوى من الوفرة بحيث أصبحت ظاهرة وحالة لا يمكن إغفالها ، أو محاولة تجاهلها .

١-انظر " ديوان المتنبي " صـ٣ / ٣٢٩ .

٢-نفس المصدر صـ٤ / ٢٤٢ .

الفصل الثالث

الخصائص الفنية لشعر الشكوى

١- اللغة الشعرية

أ- المعجم

ب- التراكيب

ج- الأسلوب.

٢- الصورة الفنية.

٣- الوحدة الموضوعية.

٤- المعجم الإيقاعي.

اللغة الشعرية :

اللغة الشعرية وعاء متميز ، وإطار محفوف بالدقة ، يشتمل على علاقات خاصة ، تتميز بالترابط القوي في جلب المترادفات ، وانتقاء المواد وتوظيفها ، ومستوى الكلمات مصحوبة بدلالتها الوضعية . والعمل الشعري وفي حقيقته تأليف بين " اللغة باعتبارها أصواتاً وصوراً وتكليفاً بما تعالج وتناغماً مع نبضة القلب ، بالإضافة إلى كونها في المقام الأول فكراً وبالتالي كشفاً أمر لابد منه " (١)

وعلاقة الدرس الأدبي بالعمل الشعري تأخذ مساراً يبتعد عن مظان الوهم، والإعتساف ، والتحكم الشخصي والمصادرة ، لأن " الشعر فن باللغة وقراءته ينبغي أن ترتهن أساساً بهذه القيمة ،شريطة أن لا تفهم اللغة هنا بمعناها الضيق ، لأن اللغة في إطارها العادي أداة توصيل ، على حين أنها في القصيدة منبع إثارة وتحريك لأدق المشاعر والانفعالات " (٢)

" ولا ينبغي ذلك المبدأ الأساسي ، وهو أن لكل فن أدواته التي ربما لا تصلح أدوات أخرى أن تكون بديلاً عنها ، إن النسق الأدائي للغة الشعرية يتجاوز نطاق أدوات بعينها ، ويتعدى إمكانات مناهج محددة . فهناك صلات غير مذكورة بين تلك الأدوات من ناحية وبين مجالات متاحة لتناول اللغة الشعرية ، فهذه اللغة التي تتميز بتفرد وخصوصية ، تظل أطر التقاليد الشعرية ، وقنية نسقها الأدائي و الدلالي ، ومن ثم يكون من التجاوز أن يزعم منهج أو اتجاه أنه وحده القادر على سبر لغة الشعر " (٣)

والمادة الشعرية التي تستند عليها هذه الدراسة ، مادة " الشكوى " ،التي شعر بها المتنبي ، والحمولة التي كان يحشو بها مضامينه ، والخطاب الذي يبثه في ديوانه ، ضاجاً بالصور الحزينة ، ومستجيباً لنداءات الذات المتعبة .

وتهتم الدراسة بالجزء لا بالكل ،وبالنموذج لا الحصر ، موضحة علاقة الشكوى ببناء القصيدة .

١–م " دراسات في النص الشعري في العصر العباسي " د/ عبده بدوي ، صـ٥.

٢–م " المتنبي قراءة أخرى " د/محمد فتوح أحمد صـ٢ .

٣–م " البحث الأسلوبي معاصرة وتراث " د/ رجاء عيد صـ١٥٣ .دار المعارف – الإسكندرية ١٩٩٣م .

" ومهما يكن من أمر، ففي عهدنا الحديث نجد أن التميز الكلي بين الموضوع والأسلوب ، قد لفظ تماماً ، فالعمل الأدبي المعاصر ،ينظر إليه بحسبانه وحدة عضوية ،يصبح الشكل المضمون فيها والأسلوب والأداء وحدة لا تتجزأ أو لا تتفكك " (١)

أما اختيار النموذج الذي تظهر فيه " النبرة الشاكية "، فقد حرصت الدراسة على توفر الظاهرة فيه من حيث قوة التمثيل ووضوح ملامح على الظاهرة التي نحن بصددها ، مع ملاحظة أنه " تبقى بعدُ لكل وثيقة شعرية –قصيدة أو مقطوعة – قيمتها الخاصة ، باعتبارها كيانا إبداعياً كامل الإستقلال والتميّز " (٢)

لذا يجدر بنا أن نتوقف عند سمات هذا الشعر الفنية ، وخصائصه الأسلوبية ، وتراكيبه التعبيرية ، وما يصاحب ذلك من معجم شعري وإيقاع موسيقي ، ووحدة موضوعية .

من أجل ذلك ارتأينا توزيع هذا الفصل إلى المحاور التالية :

١ – اللغة الشعرية :

العمل الشعري ظاهرة متجانسة متكاملة تفترض أن يدخل البناء الجمالي في محتـواها ككل ، وترتبط في أساليبها بمجموعة المفردات التي تعكس القيمة الفنية في ذات التعبير .

" وإذا كان التعبير الشعري يجسم التجربة النفسية للشاعر على هيئة معينة تنم عن أسلوبه وطريقته في التعامل مع العربية ومتنها ، فليس عليه إلا أن يحقق مفهوم الصدق الفني حتى يمكن للمتذوق لشعره أن يشاطره إنفعالاته وتخيلاته وأفكاره . وحتى يتشاركان في الغاية بالمتعة الفنية ، ولا يشترط في المتذوق ، مادام قد أحس بالشاعر ، وتمتع روحياً ، أن يكابد تفهم الشعر فهماً منطقياً أو دقيقاً مبرراً ، إذ أن طبيعة الشعر الإيهام والإيحاء والرمز ، لا الإفصاح والتعيين . إنه فن غامض تدثره غلالات وسحب ،وإنما حسب المتذوق أن يستشعر معانيه وموسيقاه ، ويعتصر منه المتعة الروحية كما أسلفنا " (٣)

١–م " البحث الأسلوبي معاصرة وتراث " د/ رجاء عيد صـــ١١. دار المعارف – الإسكندرية ١٩٩٣م .

٢–م " المتنبي قراءة أخرى " د/ محمد فتوح أحمد صـــ٨.

٣–م"من أساليب اللغة العربية " د/إبراهيم دردير صـــ١٧٣ الناشر دار البلاد للطباعة والنشر – جده – الطبعة الأولى ١٤٠٤هـــ/١٩٨٣م

ويجدر بنا قبل الدخول في هذا الفصل أن نوضح علاقة المتنبي بالشعر ، من حيث هو تعبير داخلي، ونظام لغوي ، وبناء هندسي .

يقول المتنبي واصفاً حالته مع الشعر ، والقوافي :

أراكض معوصات الشعر قسراً
فاقتلها ، وغيري في الطرادِ

لـــذا تتخذ المفردة اللغوية عند المتنبي طابع الدقّة ، وصرامة الوضع ، بحيث يجتهد الشاعر بوضعها في سياقها الملائم .

وقد كان المتنبي ،ممن يعرفون حجم المعاناة ،معاناة التعامل مع المفردة في الشعر ،ويعتبرها واجباً وأولياً للاستحقاق الشعري والجدارة المتميزة فالمتنبي كان يفتش عن الكلام " ، بكل ما يفهم من هذا التصريح من مراجعة القول ، ومحاسبة الوسائل ، ومجادلة الذات ، يشير إلى هذا قوله :

ولكنّه طال الطريقُ ، ولم أزل
أفتشُّ عن هذا الكلام ويُنهب (٣)

في ضوء هذا البيان المختصر لطبيعة العلاقة بين المتنبي والشعر ، أو بعبارة أصح بين الرجل والأسلوب أو بين المبدع و وظيفة اللغة " يمكن لقارئ المتنبي أن يفهم سرّ هذه التحولات الملحوظة في عـــدد من نماذجه ، بين مدحة تعلو بها نبرة التشكي والحسرة حتى تئول إلى بثٍّ ذاتي صريح ، وأخرى تعتمد على ما يدعوه " آرثر بولارد " " عنصر التلميح " في إدراك أن ثمة معنى ثانياً – هجائياً – يكمن تحت المعنى المدحيّ الواضح ، وثالثة تستقل بعض مصطلحات المعجم وطائفة من تقاليده الموروثة

٢– م" ديوان المتنبي " صـــ٢/١١٨.

٢– م" ديوان المتنبي " صـــ١/٣١٢.

للإيحاء بأن موقف الشاعر من نموذجه قد تجاوز ما يشوب المديح من بواعث الطمع والرغبة إلى حيث يتمخض الود وتخلص الشاعر " (١)

" لقد انطلق دوسوسير من اللغة – أي لغة – ماهي إلا نظام علاقي فريد ، ومن ثم فإن أي وحدة لغوية : كالصوت ، أو الكلمة ، أو المعنى ، لا تكتسب قيمتها و وجودها إلا من خلال علاقاتها بالوحدات الأخرى داخل النظام اللغوي المعين . وبالتالي فإن النظرة المنهجية إلى هذه الوحدات يجب أن تتمثل كونها نقاطاً في نظام تربط بينها شبكة من علاقات التقابل والإختلاف " (٢)

ومادام لكل فن من فنون الشعر أساليب وطرائق وسياقات ولغة ، يختص بها هذا الفن أو ذلك ، كما يشير إلى ذلك الجرجاني بقوله : " ولا آمرك بإجراء أنواع الشعر كلّه مجرى واحداً ، ولا أن تذهب بجميعه مذهب بعضه ، بل أرى لك أن تقسم الألفاظ على رتب المعاني ، فلا يكون غزلك كافتخارك ولا مديحك كوعيدك ، ولا هجاؤك كاستبطانك ،ولا هزلك بمنزلة جدّك ولا تعريضك مثل تصريحك ،بل ترتب كلاً مرتبته وتوفيّه حقه ، فتلطف إذا تغزلت ، وتفخّم إذا افتخرت وتتصرف للمديح تصرف مواقعه .. " (٣)

فمن البديهي أن يأتي شعر الشكوى عند المتنبي بمذاق يلائمه ، ولغته الخاصة ،التي ابتعد بها عن شعراء الشكوى في القرن الرابع الهجري الذين مالوا إلى التعابير الواضحة ، واللغة السهلة بحيث جعلوا شعرهم في متناول عامة الناس ،وأفكارهم في مستوى أوساط المجتمع حين " وجد شعراء القرن الرابع أنفسهم مجبرين على صياغة شعرهم في قوالب لغوية بسيطة ، وأساليب تعبيرية قريبة من عقول الجمهور ومستواهم الإدراكي " (٤)

١–م " المتنبي قراءة أخرى " د/محمد فتوح أحمد صـ٩٨ .

٢–م " الأسلوبية التعبيرية عند شارل بالي أسسها ونقدها " /د. محي الدين محسب صـ١٣ من إصدارات نادي القصيم الأدبي – بريدة – الطبعة الأولى ١٤١٨ هـ .

٣–م " الوساطة بين المتنبي وخصومه " للجرجاني صـ٢٢ دار إحياء الكتب العربية ١٩٨٥ تحقيق هشام الشاذلي .

٤–م " اتجاهات الشعر العربي في القرن الرابع الهجري " د/ نبيل أبو حاتم صـ٣٥ .

وقد أكدّ أبو هلال العسكري هذا الرأي،لأن من أبجديات المعرفة أن يتخاطب القوم بالأساليب التي يدركونها لذا قال العسكري : " إذا كان موضوع الكلام على الإفهام .. فالواجب أن تقسم طبقات الكلام على طبـــقات الناس فيخاطب السوقي بكلام السوقة ، والبدوي بكلام البدو ، ولا يتجاوز به عمّـــا يعرفه إلى ما يعرفه ، فتذهب فائدة الكلام ، وتعدم منفعة الخطاب " (١)

ولعل ما يميز شعر الشكوى عند المتنبي – وهو أحد شعراء القرن الرابع الهجري –هو تلك اللغة التـــي تتسم بالجزالة ، والفخامة والعبارة التي تمتلئ بالدلالة على ما صنعت من أجله ، فتكون في مكانها الذي يشي بالقوة اللفظية .

ورغم ما يحز من عنف الشكوى ، ومرارة الألم لم يشغل المتنبي عن إختيار لغته ، وإنتخاب معجمه ، وإصطفاء أساليبه ، بحيث لم يثنيه الجوُّ القلق من تأنيق لفظه ، وبراعة معناه .

ولم يذهب به الإنفعال الحاد ، والحزن المعتمل في صدره إلى السهولة ،والبساطة ، والقريب من القول .

وهذا يسوقنا إلى دراسة ومراجعة هذا الشعر ومدى مطابقته لما ذكرته .

من خلال المعجم الشعري ، والتراكيب الخاصة به ، وهذا ما سأتعرّض له فيما يلي .

١– الصناعتين " لأبي هلال العسكري صـــ٣٩ تحقيق الدكتور / مفيد قميحة . الطبعة الأولى دار الكتب العلمية – بيروت – لبنان – ١٤٠١هـــــ / ١٩٨١م .

أ- المعجم :

إن من أعمق ما يميز شاعراً عن آخر ذلك الإحساس اللفظي ، الذي يتصف به الشعراء عامة. وتعطي الشعرية الحادة المقدرة الأسلوبية التي ترى من خلال معرفة المكان المناسب للفظة .

ونظرية المعجم الشعري للشاعر هي " نوع اللغة المناسبة للشعر والرخص المسموح بها " (١)

" معجم كاتب أو أديب : مجموعة الألفاظ التي تشيع في قلمه ويستعملها في التعبير عن أفكاره، والمعروف أن ثروة كل كاتب تختلف عن ثروة زميله كمية ونوعية حسب ثقافة كل منهما والمناهل التي استقيا منها وسائل الإبانة . (٢)

لذا اهتم القدماء " بطرائق صنع المعاجم اللغوية في تعاملهم مع ألفاظ أبي الطيب المفردة ،حتى أنهم نقلوا كثيراً من مادتّها فأثبتوها في شرح الألفاظ المبهمة أو الغريبة ، وساقوا عليها الشواهد التي كانت متواترة في مصنفات الغريب ورسائل اللغة " (٣)

وربما كان من نافلة الحديث التأكيد على أن اللغة الشعرية تتسم بالتواتر المستمر بين القديم والجديد،والثابت والمتغير من طرائق الألفاظ ، وقوالب الصياغة . مما يضع أمام الشاعر خيارات شتى من أعراف اللسان،ودلالة الكلمة .

وهو أمام هذا الحصاد المعرفي والمذخور اللفظي تعامل وفق ذائقته وإحساسه ، ويعكس وعيه الشعري ، خاصة أمام العرض الذي هو بصدده .

والمتنبي من أولئك الشعراء الذي يمتد على التراث ويثريه ويتفاعل مع المعطيات اللفظية وفق السبل التي يراها مناسبة ، لذا تبدو بصماته الأسلوبية ومعجمه اللفظي " وكأنها صدْع في جدار اللغة الشعرية ، على حين أنها إعادة لبناء هذه اللغة ، ومحاولة لاستئناف تشكيلها في نسق صياغي جديد " [٤]

١-م " المتنبي مالئ الدنيا وشاغل الناس " د/ محمد التونجي صـــ٥٥ .

٢-م " المتنبي مالئ الدنيا وشاغل الناس " د/ محمد التونجي صـــ٥٥ .

٣-م " المتنبي والتجربة الجمالية عند العرب " د/ حسين الواد صـــ١٥٢ .

٤-م " المتنبي قراءة أخرى " د/محمد فتوح أحمد صـــ٣١ .

والمتنبي يمتلك لغة هائلة ، : ولو لم يكن شاعراً لكان لغوياً شهيراً " (١)

لذا " كان من المكثرين من نقل اللغة ،والمطلعين على غريبها وحوشيها،ولا يُسأل عن شيءٍ إلا واستشهد فيه بكلام العرب من النظم والنثر ، حتى قيل إن الشيخ أبا علي الفارسي صاحب الإيضاح والتكملة قال له يوماً : كم لنا من الجموع على وزن " فِعْلَى " ؟ فقال المتنبي في الحال : حِجْلَى و ظِرْبَى .

قال الشيخ أبو علي : فطالعت كتب اللغة ثلاث ليالٍ علّي أجد لهذين الجمعين ثالثاً ، فلم أجد، ويتابع ابن خلكان قوله : " وحسبك من يقول في حقه أبو علي هذه المقالة " (٢) ويرجع الدافع من هذه التوطئة إلى تأكيد " قصدية " المتنبي للكلمات،وتوجهه إليها،وكأنه يختار اللفظة الملائمة لحالته النفسية والشعرية دون النظر إلى سياق الكلمة التاريخي .

وقد كان القدماء في تعاملهم يكثرون من قولهم في شرح شعر المتنبي " والمراد هنا ، ويريد به ، وإنما قال ،وهنا أراد كذا ، ويتوجه هذا إلى " حيث ينصرف الواحد منهم " إلى السياق فهو الذي يتضمن القرائن الدالة على أن للفظة الواحدة معانيها العديدة " (٣)

ومعجم المتنبي – في شعره الشاكي ، يفيض بألفاظ التعب والحسرة والشكوى ، وتدور فيه ألفاظ كثيرة مثل:{ الموت / الرحيل/ الشكوى/ التعب /الخطوب /النوائب /الداء /القلق /الحيرة /الخداع /السهر /السهاد البعد /الهجر /السفر /الأهوال /الحسد /الكذب /الردى /الحِمَام /المنايا /البين /الفراق /البكاء /الدمع /النوى الضعف /الأحداث /الهمُّ /الحزن /البلوى /نيوب الزمان /المصائب /النحول /الوحشة /القتل /الوجد/المخالب الصروف /الغم /العناء /الكد /التعادي /الأرق /العبرة /الجوى /الجرح /السقام /الفقر /المشيب /المشقة ، } مثل هذه الألفاظ من المعجم تعطي صورة واضحة عن تفجر حالات الألم ، وأحوال الحزن وعمق الشكوى، بقطع النظر عن السياق الذي وردت فيه ،فشعر المتنبي كله مليء بهذه الألفاظ، وأكثر ما تكون في سياق شعر الشكوى .

١–م " المتنبي مالئ الدنيا وشاغل الناس " د/ محمد التونجي صـ٥٥ .

٢–م " المتنبي مالئ الدنيا وشاغل الناس " د/ محمد التونجي صـ٥٥ .

٣–م " المتنبي والتجربة الجمالية عند العرب " د/ حسين الواد صـ١٥٢ .

٤–م " المتنبي قراءة أخرى " د/محمد فتوح أحمد صـ٣١ .

وسيكون في نهاية هذه الفقرة جدولاً رقمياً يحدد عدد دوران بعض الكلمات ، مثل كلمت " رحيل " ، والتي تعطي معنى الوداع والسفر والترّحل ، قد تردد في بيت واحدٍ مرات متعددة في مثل قوله :

وما عشت من بعد الأحبة سلوة
ولكنـــني للنـــائبـــات حمـــولُ
وإن رحيلاً واحداً حال بيننا
وفي الموت من بعد الرحيل رحيلُ (١)

فحضور لفظة " الرحيل " بهذا المستوى يعكس دلالاتها النفسية والداخلية .

أو مثل ورود القلق والجوى والعبرة ، في سياق بيت واحد ، مثل قوله :

وجوى يزيد ، وعبرةٌ تترقرق
أرقٌ على أرق ، ومثلي يأرق (٢)

ألفاظ مثل أرق ، يأرق ، والعبرة ، والجوى ، كلها تشف عمّا تحتها من حالة حزينة .

بل إن الشاعر في سياق شعري لا يتجاوز ثلاثة أبيات تطغى ألفاظ من التعب والحرب ، والغزل ، وهذا من الفنون التي أجاد بها المتنبي " كما لم يسبق إليه وتفرد به ، وأظهر فيه الحذق بحسن النقل ،و أعرب عن جودة التصرف والتلّعب بالكلام " (٣) ، ومن ذلك قوله :

عذيري من عذاري من أمورٍ
سكنّ جوانحي بدل الخدور
ومبتسمات هيجاوات عسر
عن الأسياق ليس عن الثغور (٤)

فالأسياق بجوار الثغور ، والهيجاء بمحاذاة الخدور والعذاري .

ومثل ذلك قوله : فلو كان قلبي دارها ، كان خالياً
ولكن جيش الشوق فيه عرمرم (٥)

١–م " ديوان المتنبي " صـ ٢١٨/ ٣ .
٢–م " ديوان المتنبي " صـ ٧٣ / ٣ .
٣–م " يتيمة الدهر " صـ ١٩٣/ ١ .
٤– م " ديوان المتنبي " صـ ٣٤٥ / ١ .
٥–م " ديوان المتنبي " صـ ٤/٢٠٤.

فالجيش و العرمرم ، بجوار القلب والشوق .

ومثل قوله : أزل الوحشة التي عندنا ، يا
من به يأنسُ الخميس اللُّهام (١)

فالخميس هو الجيش الكبير ، واللُّهام ، الذي يُلتهم الكل من كثرته ، بجوار الأنس والوحشة .

ومعجم المتنبي يحقق تواصلاً مدهشاً بين اللفظة واللفظة ، حين يجعل للحزن شغفاً ، ووصلاً ، مثل قوله :

كأنّ الحزنّ مشغوف بقلبي
فساعة هجرها ، الوصالا (٢)

ومفردة المتنبي " مختارة ، قصدها بالذات ، ورضي عنها ،وترك للتاريخ المجال الرحب للحكم عليها " (٣)

بل إنه يختار مفردته ، حتى من خلال نوعية الحروف التي يرسل بها اللفظة ، مثل قوله :

أبعد بعدت بياضا ، لا بياض له
لأنت أسود في عيني من الظلم (٤)

تلمس في هذا البيت أن " كل شيءٍ يتحول إلى ظلام ، وتأمل معي طريقة التعبير بالحروف عن هذا المعنى تتابع حرف الباء أربع مرات وهو صوت انفجاري يرسم هذه الحدة والغلظة "وإلى جواره حروف انفجارية أخرى كالتاء والدال والراء والظاء والسين والشين " (٥)

ومن مظاهر المعجم الشعري عند المتنبي ، ما يعرف بـــ " توازن الصيغ " وهو " أن الـــشاعر ينتخب من بين الأبنية اللفظية المرشحة أكثرها ملائمة له وإنسجاماً معه ، ولكن هذه الظاهرة لا تخلو – في الوقت نفسه – من رعاية للمستويين الإيقاعي والتركيبي معاً ، لأن هذا الإنتخاب مرهـــون بمـــقتضيات الوزن الشعري من ناحية ، وبمقتضيات التركيب من ناحية أخرى " (٦)

١–م "ديوان المتنبي " صـــ٤/ ٦٦ .

٢–م "ديوان المتنبي " صـــ٢٤٠/ ٣.

٣–المتنبي شاعر ألفاظه تتوهج فرسانا تأسر الزمان " د/علي شلق صـــ٢٠٨.

٤–م "ديوان المتنبي " صـــ١٥١/٤.

٥–م " في عالم المتنبي " د/ عبد العزيز الدسوقي صـــ٣٣.

٦–م " المتنبي قراءة أخرى " د/ محمد فتوح صـــ٥٦ .

فيختار المتنبي من الألفاظ ، ما يلاءم شكواه ، ويعكس ألمه ، مثل قوله :

الحزن يقلق ، والتجمل يردع
والدمع بينهما عصيٌّ طيعُ (١)
يتنازعان دموع عين مُسهد
هذا يجيء بها وهذا يرجعُ (٢)

فالتوازن كبير بين الحزن والدمع ، وبين الأفعال المضارعة يقلق ، يردع ، يجيء ، يرجع .

ومن أمثلة توازن الصيغ ، قول المتنبي :

أ في كل يوم تحت ضبني شويعر
ضعيف يقاويني ، قصير يطاول (٣)

فالتوازن واضح وجلي بين ضعيف وقصير ، ويقاوي ويطاول .

ومن أمثلة ذلك ، قول المتنبي :

نرى عظماً بالبين ،
والصد أعظم
ونتهمُ الواشين ،
والدمع منهمُ (٤)

فالتوازن كبير بين قوله " والصد أعظم ، " والدمع منهم " .

ولعل أبرز مظاهر التوازن ، قول المتنبي :

فالموت أعذر لي ، والصبرُ أجمل بي
والبرّ أوسعُ .. والدنيا لمن غلبا (٥)

هنا يتجلى التوازن بين الموت ، والصبر والبر ، ويتضح في " أجمل وأوسع ، وأعذر ، ويظهر كذلك في بي ولي " .

١

١-م "ديوان المتنبي " صـ٣/١٢ .
٢-م "ديوان المتنبي " صـ٣/١٢ .
٣-م "ديوان المتنبي " صـ٣/٢٣٧ .
٤-م "ديوان المتنبي " صـ ٤/٢٠٢.
٥-م "ديوان المتنبي " صـ ١/٢٤٩.

ومما يصل بالمعجم،نجد ثراء الكلمة في سياقها من خلال معجمها الإيقاعي نتيجة لتوازن الصيغ والتراكيب مثل قول المتنبي :

أذم إلى هذا الزمان أهيله
فأعلمُهم فدمٌ ، وأحزمهم وغدُ
وأكرمهم كلبٌ ، وأبصرهم عمٍ
وأسهدهم فهدٌ ، وأشجعهم قرد (١)

وهنا يتضح تشعيب الأسلوب من خلال إجراء توازن تعبيري ، عكسه إختيار الصيغة ، وإصطفاء اللفظة . وكذلك التقسيم من خلال توزيع الألفاظ ، التي تؤدي في سياقها تنوع المعجم الإيقاعي ، الذي فرضه تخيّر الكلمة ، وإنتخاب المفردة ، مثل قول المتنبي :

بم التعلل ، لا أهل ، ولا وطن
ولا نديم ، ولا كأس ، ولا سكن ؟! (٢)

فكل المفردات التي جاءت بعد الإستفهام بقوله " بم التعلل " كانت لشرح معطيات التعلل ، وتقسيم أدوارها في سياق شعري منظم .

ومن الملاحظ على بعض شعر الشكوى عند المتنبي في سياق التوازن والتقابل ، مراعاة ذلك سلباً وإيجاباً بحيث يذكر الصفة ،ثم ما يلبث أن يذكر نقيضها ،أو نفيها ،كأن هذا التناقض يشكّل القصد الحقيقي لحضور مثل هذا الازدواج ، يقول المتنبي :

أفاضل الناس أغراض لذا الزمن
يخلو من الهمِّ أخلاهم من الفطن (٣)
وإنما نحن في جيل سواسيةٍ
شرّ على الحر من سقم على بدن
حولي بكل مكان منهم خلقٌ
تُخطي إذا جئتَ في استفهامها بمن (٤)
لا أقتري بلداً إلى علـى غـرر
ولا أمـرّ بخلـق غيـر مضـطغن (٥)

١- م " المتنبي " صـ٢/٩٢/٩٣.
٢- م " المتنبي " صـ٣٦٣/٤.
٣- م " المتنبي " صـ٣٤١/٤.
٤- م " المتنبي " صـ٣٤١/٤.
٥- م " المتنبي " صـ٣٤٢/٤.

فذكر الأفاضل ملازمة للمحن والشقاء ، ثم يناقض ذلك بالربط بين الخلو من الهموم ، والخلو من الفطنة ، ويستمر التقابل أو التناقض بينه وبين جيله ، أو التضاد بينه من كونه من " أفاضل الناس " وبين غيره الذي يشبهون البهائم ، حين يكون الاستفهام عنهم بغير " من " التي تستخدم للعاقل ، وتـــأمل على وجه الخصوص إيحاء هذه الألفاظ التي تمثل بظلالها السلبية ما تمثله البقع في التصوير الحديث :

" سواسية " ، " خِلقٌ " ، " وخلْق " ، لتجد أن الأول لم يفد معنى التساوي فحسب ، بل أضاف إليه نفي التميزُ وافتقاد التفرد بين أفراد هذا الجيل على وجه العموم ،وأن الثاني والثالث قد اكتسبا من السياق ومن دلالة التنوين على التفكير ما يضفي عليهما ضربا من الهجنة والبشاعة والتنفير " (١)

وهكذا نجد المتنبي قد تفاعل مع المعجم تفاعلاً يخدم شعر الشكوى ، واستطاع أن يعـــبر من خـــلال هـــذا التوظيف ، والاستغلال ما يعتمل في نوازع نفسه ، وهواجس ألمه ، تعبيراً حياً ، ويستـــجيب لواقع حاله المضني .

ولم تكن الشكوى سبباً في تنازل المتنبي على القوي ،بحيث صرفه ألم الشكوى ،عن براعة التعبير،وجزالة اللفظ ، بل كلما زادت الشكوى ، زاد هو في انتخاب المفردة ، وتخيرّ اللفظة .

١-المتنبي قراءة أخرى " محمد فتوح صـــ٦٦ .

ب- التراكيب :

يرتدي القــول الشعري قالب لفظي تحكمه قواعد إسنــادية ، وعلاقات تجاوريه ، وتراكيب أسلوبية ، تشي بقدرة الشاعر وتمكنه من فنه .

وللشاعر قدرة ومجال لتركيب مجازات ، وإنشاء علائق بين متعلقات الجملة لــذا يــقول الجرجاني " وقد أحتمل للشعراء لأجل الشعر ما هو أبلغ من تغيير الألفاظ وإزالة الكلام عن موضعه " (١)

ويبدو أن الخليل ابن أحمد من أوائل من تنبه لهذه الظاهرة ،حيث ينسب إليه قوله: " الشعراء أمراء الكلام يصرفونه أنّى شاؤوا ويجوز لهم مالا يجوز لغيرهم من إطلاق المعنى وتقييده، ومن تعريف اللفظ وتقييده، ومدّ المقصور وقصر الممدود ، والجمع بين لغاته ، والتفريق بين صفاته ، وإستخراج ما كلّت الألسن عن وصفه ونعته ، والأذهان عن فهمه وإيضاحه ، فيقربون البعيد ويبعدون القــريب ، ويحــتّج لهم ولا يحتّج عليهم " (٢)

وقد شكّل شعر المتنبي جدلاً حاداً بين دارسيه ، لأنه يحتوي على قدر هائل من الصيغ الجديدة،والتعابير التي لم تألف ، فهو يتعمد ترك القوالب المألوسة ، والتراكيب المستطرقة محاولاً في ذلك حث السامع وبث فضوله ، وإستدرار إستفزازه .

وتتضح جسارته البيانية من خلال تحديه للآخرين ، وشحذ عداواتهم كقوله :

لا تجسر الفصحاء تنشد هاهنا
بيتاً و لكنّي الهزبر الباسل (٣)
ما نال أهل الجاهلية كلُّــهم
شعري ، ولا سمعت بسحري بابل (٤)

١-الوساطة بين المتنبي وخصومه " للجرجاني صـــ٤٦٨ .

٢-م المتنبي والتجربة الجمالية عند العرب " د/حسين الولد صـــ١٠٩ وكذلك " منهاج البلغاء وسراج الأدباء " للقرطاجني صـــ٤٦٣ .

٣-م " ديوان المتنبي صـــ٣/ ٣٧٦ .

٤-م " ديوان المتنبي صـــ٣/ ٣٧٦.

ومن عادة الأوائل أنهم كانوا لا يتقبلون ثناء المرء على نفسه ، إلا إذا كان شاعراً لذا يقول ابن رشيق : " ليس لأحد من الناس أن يطري على نفسه ويمدحها ، في غير منافرة ، إلا أن يكون شاعراً ، فإن ذلك جائز في الشعر ، غير معيب فيه " (١)

وشعر الشكوى عند المتنبي ، لا ينفصل عن منظومة شعره الآخر،إلا ما يتطلبّه الموقف من طابع الشكوى وحرارة الحزن ، وألم التعب .

لذا كان شعر الشكوى عند المتنبي يتخذ مظهراً من مظاهر الخروج على الأسلوب ، والتجـــاوز للتراكيب المألوسة ، استطاع من خلال هذا الخروج أن يشق له نسقاً متفرداً في تراكيبه وقواعده حين اتكأ عـــلى " بند المقاييس المنطقية الخارجية لتصبح إنعكاساً للصورة النفسية الداخلية التي تعبّر عن حالة الـــشاعر الشعورية والروحية معاً " (٢)

ومما يؤكد هذا الشجاعة اللغوية ، التي اتصف بها المتنبي قوله :

أحيا وأيسر ما قاسيت ما قتلا
والبين جار على ضعفي وما عدلا (٣)

فقد أثار هذا البيت جدلاً عريضاً بين النقاد والشراح في القديم والحديث ، حين أوجد المتنبي نسقاً تركيبياً خاصاً به ، من خلال عطفه بين " أحيا " ، والإسم " أيسر " ، وكلاهما متعلقان بـــ " قاسيت " ، و" قتلا " ، اللذين يوحيان بالمعاناة . (٤)

١–م " العمدة " لابن رشيق صـــ١/ ٢٥ .

٢–م " قصيدة المديح عند المتنبي وتطورها الفني " أيمن العشماوي صـــ٢١٨ .

٣–م " ديوان المتنبي " صـــ٢٨٢/٣ .

٤–للمزيد من الحديث حول هذا البيت يراجع " قصيدة المديح عند المتنبي وتطورها " لأيمن العشماوي صـــ٢٢١ .
وكتاب " المتنبي والتجربة الجمالية عند العرب " د/حسين الواد صـــ١٨١ ، فقد ذكر الأقوال والتخريجات .

وقد بادر خصوم المتنبي على تعقّب سقطاته ، وتصيّد هفواته ، ومـــع هذا استمر في مخالـــفاته للنحو واللغة ، يقول :

وفاؤكما كالربع أشجاره طاسمه
بأن تُسعداء والدمع أشفاه ساجُمه (١)

حيث رفض الخصوم هذا إذ " لا يجوز أن يتعلق بالمبتدأ بعد الإخبار عنه شيء " (٢)

ومن تجاوزات شعر الشكوى عند المتنبي ومخالفته النحوية قوله :

أبعد بعدت بياضاً لا بياض له
لأنت أسود في عيني من الظلم (٣)

لأن المتنبي استخدم صيغة " أسود " للتفضيل ، لأن أصل أسود : اسودّ ، " فلا يبنى من فعل زائد على ثلاثة أحرف " (٤)

وشعر الشكوى عند المتنبي ، يحاول أن يستغل كل المباحات والضرورات ، والتجاوزات المبرَرة ، ويظهر ذلك في تسهيل الهمزة ، حيث يقول :

أظمتني الدنيا فلمّا جئتهـــا
مستسقياً مطرت عليّ مصائبا (٥)

والأصل أن يقول : " أظمأتني " ولكن لضرورة الوزن .

١–م " ديوان المتنبي " صـــ٤ / ٤٣ .
٢–م " التبيان في شرح الديوان " للعكبري صـــ٣٢٥ .
٣–م " ديوان المتنبي " صـــ٤ /١٥١ .
٤–م " شرح ابن عقيل " صـــ١٧٤/٣ .
٥–م " ديوان المتنبي " صـــ٢٥٢/١ .

أما خصائص التركيب عند المتنبي في شعره الشاكي فقد انطبع بخصائص شتى منهـا " تنزيل الشيء منزلة ضده على جهة من الإعتبار " (١) نحو قوله :

وشكيّتي فقد السقام ، لأنه
قد كان ..لما كان لي أعضاء (٢)

ومنها " إضافة ضد الشيء إليه " (٣) مثل قوله :

صلة الهجر لي ، وهجر الوصال
نكساني في السقم نكس الهلال (٤)

ومنها إعمال الشيء في مثله " ، (٥) مثل قوله :

أسفي على أسفي الذي دلّهتني
من علمه ، فيه عليّ خفاءُ (٦)

ومن خصائص المتنبي في شعر الشكوى ، الاستفهام ، وفي سياق هذا المنحى في قالب العبارة الدالة على الحزن والضيق ، وخيبة الأمل ، والسعي لحياة أفضل يقول :

فمالي وللدنيا طلابي نجومها
ومسعاي منها في شدوق الأراقم (٧)

ويتكرر هذا التركيب في أبيات شتى مثل قوله :

حتّام نحن نساوي النجم في الظلم
وما سراه على خفّ ولا قدم (٨)

١-م " منهاج البلغاء وسراج الأدباء " للقرطاجني صـ٣٦٨ .
٢-م " ديوان المتنبي " صـ١/ ١٤٢ .
٣-م " منهاج البلغاء وسراج الأدباء " للقرطاجني صـ٣٦٧ .
٤-م " ديوان المتنبي " صـ٣/ ٣٠٩ .
٥-م " منهاج البلغاء وسراج الأدباء " للقرطاجني صـ٣٦٨ .
٦-م " ديوان المتنبي " صـ١/ ١٤٢.
٧-م " ديوان المتنبي " صـ٤/ ٢٣٧ .
٨-م " ديوان المتنبي " صـ٤/ ٢٨٥ .

أو قوله :

والهجر أقتل لي مما أراقبه
أنا الغريق ..فما خوفي من البلل ؟! (١)

ومن خصائص شعره في هذا الغرض النفي والإستدراك ، مثل قوله :

وما عشت من بعد الأحبة سلوةً
ولكنني .. للنـــائبـــات حمـــول (٢)

ولعل الحيرة والقلق والحزن ، تأخـــذ من الـــشاعر أكثر مما يتوقع ، لذا يرجع بشكل دائم للإستفهام الذي لا ينتظر إجابة ، بقدر ما يصور الحالة النفسية للشاعر ، والقسوة التي يلاقيها ، يقول :

كيف الرجاء من الخطوب تخلّصاً
من بعد ما أنشبن فيّ مخالبا (٣)

ثم يمتد الحزن معه، ليستمر شعره مع هذا الإمتداد،وكأن سياق الجملة إمتداد لسياق الحالة النفسية الكئيبة التي تلقي بظلالها على الشاعر ، يقول :

كأن الحزن مشغوف بقلبي
فساعة هجرها يجد الوصالا (٤)

وتأتي تركيب بعض الجمل ، على شكل مقاطع تتوحد في سياق مجتمع مثل قوله :

وحيد من الخلان ،
في كل بلدة ،

إذا عظم المطلوب ..
قل المساعدُ (٥)

وكأن الشكوى هي التي تتكلم ، لذا تأتي على شكل جمل قصيرة .

١-راجع " ديوان المتنبي " صـــ٣ /٢٠٠ .
٢-راجع " ديوان المتنبي " صـــ٣ / ٢١٨ .
٣-راجع " ديوان المتنبي " صـــ١/٢٥١ .
٤-راجع " ديوان المتنبي " صـــ٣ /٣٤٠ .
٥-راجع " ديوان المتنبي " صـــ١/ ٣٩٣ .

ويدخل القلق في السياق ، بحضور باذخ ، وكأن الجملة في مكانها في البناء ، تأتي هي أيضا مضطربة ،

مثل قوله : على قلق ..كأن الريح تحتي
أوجهها جنوباً أو شمالاً (١)

وكأن قلق المعنى يرسم قلق المتنبي . وتأتي الجمل بشكل حاد ، ومختصر في حالة من حالات الشكوى لذا تجد قصيدته التي كتبها في " السجن " ، جاءت مسايرة لضيقة الصدر التي يشعر بها ، كذلك جمل الشعر جاءت قصيرة ضيقة ، يقول :

دعوتك عند انقطاع الرجا
ء ، والموت مني كحبل الوريد
دعوتك لما براني البلاء
وأوهـــن رجلي ثقل الحديـــد (٢)

وحتى تتضح التراكيب التي قالها في الشكوى ، ارجع إلى قصيدته التي قالها أول يـــوم دخل فيه السجن ، حيث جاءت الجمل قوية وطويلة ، وتشعر باللامبالاة ، وتتمثل بالحكم ، فهو يفتش عن الكلام " ، لذا قال :

لو كان سكناي فيك منقصة
لم يكن الدّرُ ساكن الصدف (٣)

وتصل السياقات الشعرية في الشكوى إلى التمني ، حيث تكون الأمنية أن يترك الشكوى وعذابها ، لـــذا يقول : ألا ليت شعري ، هل أقول قصيدة
فلا أشتكي فيها ، ولا أتعتبُ (٤)

وتحتدم التراكيب عندما تمتزج الشكوى بالغضب يتحول الخطاب إلى محـــاورة مع النفس ، تنتـــهي بالتسليم والشك ، يقول :

فلما صار ودُّ الناس خِباً
جزيتُ على ابتسام بابتسام
وصرت أشكُّ فيمن أصطفيه
لعلـــمي أنـــه بعض الأنـــام (٥)

١–م " ديوان المتنبي " صـــ٣٤١/٣ .
٢–م " ديوان المتنبي " صـــ٦٧/٢ .
٣–م " ديوان المتنبي " صـــ٣ /٢٣ /٢٤ .
٤–م " ديوان المتنبي " صـــ١/ ٣٠٤ .
٥–م " ديوان المتنبي " صـــ٤ / ٢٧٤ .

وحالة الشكوى تجعل المتنبي يمارس الخروج عن المألوف من قواعد الإعراب ، وقوانين اللغة ، مماشاةً مع حالته القلقة، لذا نصب الفعل بأداة الجزم " لم " في قوله :

بادٍ هواك صبرت أم لم تصبرا
وبُكاك إنْ لم يجر دمعك أو جرى (١)

ويأتي التركيب أحياناً غامضاً قلقاً ، مثل قوله :

لولا مفارقة الأحباب ما وجدتْ
لها المنايا إلى أرواحنا سـُبلا (٢)

والمنايا هنا فاعل ، فهو أضمر "لها " قبل الذكر ، ولكن المتنبي ينفي ذلك بقوله : " ليست المنايا فاعلة ، وإنما هي موضع خفض " والسر في هذا البيت أن أبا الطيب قد أخرج " لها " وهي جمع " لهاة " مخرجاً تلتبس فيه مع " لها " ضميراً مجروراً . (٣)

وأراد ابن الشجري أن ينظر إلى هذه اللفظة من جهة معنوية دلالية فقال لها من الحشو ، لأن المعنى غير مفتقر إليها " (٤)

وتراكيبه في شعره و طريقة النفي ، ثم الأمر ، وبداية النفي تعطي صورة العدم وقلة ذات اليد ، يقول :

لا خيل عندك تهديها ، ولا مال
فليسعد النطق ، إن لم تسعد الحالُ (٥)

ولعل أسلوب الإستفهام يلح بحضوره ، ولكن بطرق مختلفة تتساير والحالات الداخلية ، ولعل التعجب المقرون بالإستفهام من أبرز الخصائص ، يقول :

ماذا لقيت من الدنيا ، وأعجبه
أني بما أنا باكٍ منه محسود (٦)

١-م " ديوان المتنبي " صـ ٢/٢٦٤، راجع ما قاله الواحدي عن هذا البيت في شرحه صـ٧٣٢ .
٢-م " ديوان المتنبي " صـ٣/ ٢٨٢.
٣-م " المتنبي والتجربة الجمالية "عند العرب " د/حسين الواد صـ٢٢٣ .
٤- م " التبيان في شرح الديوان " للعكبري صـ٣/ ١٦٣ .
٥-م " ديوان المتنبي " صـ٣/ ٣٩٤ .
٦- م " ديوان المتنبي " صـ ٢/ ١٤٢ .

ويستمر الأسلوب ملقياً بظلاله على طريقة المتنبي بالتعامل مع الشكوى ، ووصف حالته القلقة يقول :

أ بنت الدهر ، عندي كل بنتٍ
فكيف وصلت أنت من الزحام
جرحت مجرّحاً لم يبق منـــه
مكـــان للسيـــوف ولا الســـهام (١)

وحتى طلب المحال ، لا يجد الشاعر له ثوباً إلا ثوب الإستفهام ، ليقول :

أما في هذه الدنيا كريـــم
تزول به عن القلب الهموم
أما في هذه الدنيا مكـــان
يســـر بأهلـــه الجار المقيم (٢)

ولعل الإبتداء بالضمير ، أو الشكوى الذاتية ، المشتملة على لفظة الـــ " أنا " تحتل مكاناً واسعاً من البيت للتأكيد على الوجع والتعب والحزن ، يقول :

.. ..
" أنا الغريق فما خوفي من البلل " (٣)

ويقول : .. ..
منها أنا في محفـــل من قرودِ (٤)

ويقول : .. ..
إني بما أنا بـــاكٍ منه محســـود (٥)

ويقول : .. ..
وما أنا عن نفسي ، ولا عنك راضيا (٦)

ويقول : .. ..
أنا الذي طـــال عجمـــها عـــودي (٧)

١–م " ديوان المتنبي " صـــ٤/ ٢٧٧ .
٢–م " ديوان المتنبي " صـــ٤/ ٢٨٢ .
٣–م " ديوان المتنبي " صـــ٣ /٢٠٠ .
٤–م " ديوان المتنبي " صـــ٢/ ٦٧ .
٥–م " ديوان المتنبي "صـــ ٢ / ١٤٢ .
٦–م " ديوان المتنبي "صـــ٤ / ٤٣٢ .
٧–م " ديوان المتنبي "صـــ١/ ٣٨٦ .

ويقول : .. ..

أنا الغني ، وأموالي المواعيد (١)

ويستدعي القلقُ المتنبي إلى التعقيد من حيث ترتيب سياقات الجمل ،لا تجد في شعره الشاكي ،مثل قوله:

أنا لائمي إنْ كنتُ وقت اللوائم
عَلِمتُ بما بي بين تلك المعالم (٢)

والتقديم والتأخير في وضعية الجملة الشعرية عند المتنبي باب واسع ، مثل قوله :

كُفي! أراني ، ويكِ ، لومك ألوما
همٌّ أقام على فؤادٍ أنجما (٣)

" حيث قدّم وأخر .فـ " لومك " مفعول ثاني لأراني ، " ألوما " مفعول ثالث ." هم " ، فاعل أراني " (٤)

ومثل قوله : فيا ليلة ما كان أطولَ بهُّا
وسمُّ الأفاعي عذبُ ما أتجرعُ (٥)

أي : ما كان أطولها ، والحذف هنا للوزن .

لذا " للشعر تراكيب يختصّ بها دون النثر أو الكلام العادي ومن خصائص التراكيب في الشعر أنها تتحمّل الإنقاص في الكلام والزيادة فيه تحمّلها التصرف في رتب ألفاظه " (٦)

وقد أدرك المتنبي أسراراً من السياقات والتراكيب في الشعر وخصائصها المميزة لها،فـأفاض في إستعمالها كفسحة لغوية ، لذا نجده تفاعل مع اللغة تفاعلاً حيوياً ، إستطاع من خلاله أن يعبر عن هواجسه و آلامه ونوازعه تعبيراً صادقاً وسخّر هذا المجال لخدمة إحساسه المأساوي في مواجهة الناس والكون والزمان .

١-م " ديوان المتنبي "صـ٢/١٤٢ .

٢-م " ديوان المتنبي "صـ٤ /٢٣٦ .

٣-م " ديوان المتنبي "صـ٤ / ١٤٣ .

٤-م " المتنبي مالئ الدنيا وشاغل الناس " د/محمد التونجي صـ٢٧٨ .

٥- م " ديوان المتنبي "صـ٣/ ٣٤٦ .

٦-م " المتنبي والتجربة الجمالية عند العرب " د/حسين الواد صـ٢٢٦ .

جـــ- الأسلوب :

جاءت ريح التعبير على القرن الرابع وألقت بآثارها على أيامه ، وتطلّب هذا التحول تعبيراً يليق بمعطيات هذا العصر من وعي في البنية الأسلوبية ومراعاة لمؤثرات البيئة .

وقد ساير الشعر هذا المعطى الحضاري الجديد ، فارتدى أطواراً حديثة ، نقلته نقلة نوعية بعدت به من حيث الشكل والمضمون .

لكن ، إستمر للبنية الشعرية المتوارثة عبر قرون حضور كثيف إتسم بالنفوذ ، وصَاحَبه كثير من سيطرة الأنماط التفكيرية السابقة .

" من الواضح أننا لا نستطيع أن نتكلم عن الأسلوب كلاماً مستقيماً ، يتجاوز حدود الإنطباعيات الجزئية أو الوقتية ، ما لم نحدد مفهومنا " للأفكار " التي توجد في الأدب أو لا توجد فيه.وينبغي لنا عندما نحاول ذلـــك أن لا ننسى أن هذا " الأدب " الذي نتحدث عنه ليس شيئاً مجرداً ، ولكنه سلاسل من الأصوات التي نسمعها بآذاننا ، أو تتردد في حسنا السمعي الداخلي " (١)

وما دام لكل غرض شعري أساليبه وتراكيبه تختص به دون غيره ، فقد جاء شعر المتنبي الشاكي يحمل نسقاً أسلوبياً يليق بالشاعر وغرضه .

والحديث عن النسق التعبيري ، والغرض الشعري ، وطريقة تناولهما ، تعطي الخصائص التعبيرية مجالاً خاصاً يمكن أن يسمى " طابع الأديب الأسلوبي " (٢) ،ولكن" لا يستطيع النقد أن يضع قوانين مفصلة لتقدير الأساليب ، وذلك لتنوع العواطف والموضوعات الأدبية " (٣)

" ومما يشهد لذلك أنك ترى الكلمة تروقـــك وتؤنسك في موضع ثم تراها بعينها تثقل عليك وتوحشك في موضع آخر " (٤)

١-م " مدخل إلى علم الأسلوب للمؤلف / شكري عياد صـــ١٧ دار العلوم للطباعة والنشر – الرياض – الطبعة الأولى ١٤٠٢هـــ .

٢-م " النقد الأدبي أصوله ومناهجه " لسيد قطب صـــ٤٧ .

٣-م " أصول النقد الأدبي " أحمد الشايب صـــ٢٥٥ .

٤-م " دلائل الإعجاز " للجرجاني صـــ٣٨ / ٣٩ .

ومظاهر الأسلوب تضم عناصر منها المعجم والخصائص والتراكيب ،والصياغة ،" فأعراف اللغة تضع أمام المبدع جملة من الإحتمالات لقول الشيء نفسه بطريقة صحيحة ، وعليه أن ينتقي من بين هذه الاحتمالات أوفرها دقة ، وأكثرها موائمة للسياق ولبنية العمل ككل " (١)

لذا يمكن أن تكون الأسلوبية هي " تلك العناصر الوجدانية أو التعبيرية التي تطرأ على المعنى المعرفي في أشكال لغوية معينة " (٢) والربط بين الشاعر كمستخدم لهذه الأشكال،وبين وظيفة هذه الأشكال في السياق يرجع " إلى أن مجالات استخدام اللغة الشعرية تتنوع بتنوع وظائفها ، ومن ثم نجد أنفسنا أمام عدد من " الأساليب الوظيفية "(٣) "

" وقد تأثرت عملية الإبداع بالحالة النفسية التي يكون عليها الشاعر " (٤) لذا تأتي قصائد المتنبي الشاكية استجابة لهذا التأثر ، يقول :

عيد بأية حالة عدت يا عيد
بما مضى أم بأمر فيك تجديد
أما الأحبة في البيداء دونها
فليت دونك بيداً و دونها بيد (٥)

ففي هاذين البيتين الدّالين على الألم والحسرة والإنفجار ، ندرك أن المتنبي يعمد لتكرار بعض الحروف ، على نحو ما يلي :

الحرف	عدد المرات	نوع الحرف
الدال	إحدى عشر مرة	صوت صامت مجهور سني انفجاري
الهمزة	ست مرات	صوت صامت حنجري انفجاري
الباء	ست مرات	صوت صامت مجهور شفوي انفجاري
التاء	خمس مرات	صوت صامت مهموس سني انفجاري(٦)

١–م " المتنبي قراءة أخرى " د/ محمد فتوح صـــ٩٧ .

٢–م " الأسلوبية التعبيرية عند شارل بالي " د/محي الدين محسب صـــ٤٧ .

٣–م " المتنبي قراءة أخرى د/ محمد فتوح صـــ٩٧ .

٤– م " في عالم المتنبي " د/ عبد العزيز الدسوقي صـــ١١٥ .

٥–م " ديوان المتنبي " صـــ٢/ ١٣٩ /١٤٠ .

٦–م " علم اللغة العام ــ الأصوات ــ " د/كمال محمد بشر صـــ١٠١ .

ولو دققنا في هذين البيتين للاحظنا " أن أبا الطيب ، بإحساسه الفني كان يدرك طبيعة هذه الأصوات وتأثيرها النفسي ومن هنا كان تشكيله اللغوي ، فهو يحدث من خلال توالي الأصوات تناسقاً فنياً من خلال تكرر الأصوات الإنفجارية شحنات فنية خاصة ، وكان يقع إحساسه الفني ، على الصوت الذي يدل على حالته النفسية " (١)

والقارئ لشعر الشكوى عند المتنبي يجد هذا ميداناً للدراسة ، والشواهد على هذا كثيرة مثل :

أ صخرة أنا مالي لا تحركني
هذي المُدام ، ولا هذي الأغاريد (٢)

ونلاحظ أن تكرار الهمزة في هذا البيت ، " تعبيراً عن التمزق النفسي ، وانقطاع الرجاء ، وفقدان الأمل ، وتقطع الأنفاس " (٣)

ومثل قوله : إذا أدركت كُمَيْتَ اللون صافية
وجدتُها وحبيب القلب مفقود

أو مثل قوله : لم يترك الدهر من قلبي ولا كبدي
شيئاً تتيمه عين ولا جيد (٤)

فليس في هذه الأبيات أساليب بيان راقية ولا أدوات تصوير فاعلة ، ولا رمزية جمالية تحرك الفعل ، " ومع ذلك فيها كل هذه الشحنة المتأججة ، وفيها كل هذا الإشعاع الفني الذي يحرك الوجدان ويثير العقل " (٥)

أما أسلوبه الشاكي في بعض نواحيه فيأخذ طابع الحزن والمرارة والتحسر .

١–م " في عالم المتنبي " د/ عبد العزيز الدسوقي صـ١١٩ .

٢–م " ديوان المتنبي " صـ٢/ ١٤١ .

٣–م " في عالم المتنبي " د/ عبد العزيز الدسوقي صـ١١٩ .

٤– م " ديوان المتنبي " صـ٢/ ١٤١ .

٥–م " في عالم المتنبي " د/ عبد العزيز الدسوقي صـ١٢٣ .

وفي مثل قوله:

أما في هذه الدنيا كريمٌ
تزول به عن القلب الهمومُ
أما في هذه الدنيا مكانٌ
يسرُّ بأهله الجـــارُ المقـــيمُ (١)

نجد في هذين أن أسلوبه " يميل إلى الكآبة والأسى " (٢) ومن أساليب الشكوى عند المتنبي ، دمج شكواه بالأسلوب الحماسي أو كما يسميه الدكتور/محمد فتوح " تحولات الأسلوب " (٣) ، مستخدماً هذا التحول في محاولة للخروج من دائرة الضنك والضيق ، والخيبة والتعب ، لذا كان يكثر في شكواه من ألـــفاظ الحرب والشجاعة ومعطياتها ، وهذا المذهب في إستخدام ألفاظ الحروب في سياقات الشكوى " مما لم يسبق إليه، وتفرد به ، وأظهر فيه الحذق بحسن النقل ، وأعرب عن جودة التصرف والتلعّب بالكلام " (٤) ، وذلك مثل قوله :

عذيري من عذاري من أمور
سكّن جوانحي قبل الخدور
ومبتسمات هيجاوات عصـــر
عن الأسياف ليس عن الثغور (٥)

فأتى بألفاظ وعذاري ،جوانح ،خدور ،ثغور،جنباً إلى جنب مع ألفاظ السيوف والهيجاوات التي تغص ميدان المعركة .

" وقد برع أكثر في إستخدام ألفاظ في غير محلها دلالة على المقدرة في سكب القالب المناسب في ماعون مخالف " (٦) لذا كان القدماء لا ينظرون- في شعر المتنبي - "إلى دلالات الألفاظ في واقع اللغة والحياة " وإنما طلبوها من السياق الذي ترد فيه ، ولما كان السياق عندهم ، هو الألفاظ الواردة في البيت نفسها ، قاربوا بين اللفظة واللفظة وحاولوا أن ينفذوا إلى الكيفيات التي تتداعى بها لتتكوّن منها أوضـــاع دلالية خاصة " (٧)

١-م " ديوان المتنبي " صـــ٤/ ٢٨٢ .

٢-م " موازنة بين الحكمة في شعر المتنبي ، والحكمة في شعر أبو العلاء " د/ زهدي صبري الخواجا صـــ٢١٦ .

٣- م " المتنبي قراءة أخرى " د/محمد فتوح صـــ٩٧ .

٤-م " يتيمة الدهر " للثعالبي صـــ ١/ ١٩٣.

٥-م " ديوان المتنبي " صـــ٢ / ٢٤٥ .

٦-م " المتنبي مالئ الدنيا وشاغل الناس " د/محمد التونجي صـــ٢٧١ .

٧-م " المتنبي والتجربة الجمالية عند العرب " د/ حسين الواد صـــ١٥٢ .

وتحول الأسلوب عند المتنبي أو مزجه ألفاظ الحرب والمعركة في قالب الشكوى ، ظاهرة شواهدها كثيرة، لعل منها قوله في شكوى الدهر :

رماني الدهر بالأرزاء حتى
فؤادي في غشاء من نبال
فصرتُ إذا أصابتني سهـــام
تكسرت النصال على النصال (١)

هنا نجد النصال ، النصال ، السهام ، الرمي ، الإصابة ، وهذه من تداعيات الحرب .

ويقول في شكوى الحمّى :

أ بنت الدهر عندي كل بنت
فكيف وصلت أنت من الزحام
جرحت مجرحاً لم يبق منه
مكان للســيوف ولا الــسهام (٢)

ألفاظ مثل السيوف والسهام ، الجرح .

ويقول في شكوى الأيام :

أودُّ من الأيام لا توده
وأشكو إليها بيننا وهي جنــده (٣)

الجند من ألفاظ المعركة .

ومن مظاهر الأسلوب عند المتنبي في شعره الشاكي – التصغير ، " والتصــغير تغيير مخصوص في بنية الكلمة " (٤) ، ولا يهمنا – الآن – تحوّله الصرفي بل يهمنا دلالته المعنوية ، في ســياق الشكوى ، أعني تحقير الشيء (٥) وفي ذلك نرى" الموائمة كاملة بين وظيفة الصيغة " التصغير " ،ووظيفة النسق الشعري بإعتبار الأولى إحدى لبنات الثانية ومقدمة من مقدماتها " (٦)

١–م " ديوان المتنبي " صـــ٣/١٤١ .
٢–م " ديوان المتنبي " صـــ٤/ ٢٧٧ .
٣–م " ديوان المتنبي " صـــ٢/ ١١٩ .
٤–م " المتنبي قراءة أخرى " د/محمد فتوح صـــ٤١ .
٥–للتصغير وظائف كثيرة يراجع في ذلك " النحو الوافي " لعباس حسن .. .. ..
/ويراجع في ذلك " توضيح الصرف " د/ عبد العزيز فاخر صـــ٣/٧ .
٦–م " المتنبي قراءة أخرى " د/محمد فتوح صـــ٤٢ .

يقول المتنبي في شكوى كافور :

أوْلى اللئام كوُيفير بمعذرة
في كل يوْم ، وبعض العذر تفنيد (١)

ويقول في شكوى الشعراء :

أفي كل يوم تحت ضبني شويعرٌ
ضعيف يقاومني ، قصير يطاول (٢)

ويقول في شكوى أهل الزمان :

أذم إلى هذا الزمان أهيله
فأعلمهم فَدْم وأحزمهم وغدُ (٣)

فالتصغير هنا ينهض ببعض الدلالات التي تساعد الشاعر على تخفيف ألمه ، وتقليل شكواه ،بحيث أصبحت من ملامح الصياغة التي تلفت الأنظار في شعر أبي الطيب الشاكي ، " وقد يكون لهذه الظاهرة جذورهـــا – من الناحية النفسية – فيما أتسم به تكوين المتنبي من إحساسه بالعظمة وتوكيد الذات ، وقد تكون لها " أيضاً " وشائج بموقفه من خصومه ومنافسيه على الصدارة الشعرية " (٤)

ومن مظاهر الأسلوب الشاكي عند المتنبي ما يُسمى " التقابل المزدوج ، وهو أن يحمل البيت في بعضه أو كلّه عناصر تزدوج ثنائياً سواء إزدواج تضاّد أو إزدواج تطابق " (٥) ، مثل قول المتنبي :

جزاء كلّ قريبٍ منكمُ مَلَلٌ
وحظ كل محبٍ منكم ضغنُ (٦)

١–م " ديوان المتنبي " صـــ٢/١٤٨ .

٢–م " ديوان المتنبي " صـــ٣ / ٢٣٧ .

٣–م " ديوان المتنبي " صـــ٢/ ٩٢ .

٤–م " المتنبي قراءة أخرى " د/ محمد فتوح صـــ٤١ .

٥– م " قراءات مع الشابي والمتنبي والجاحظ وابن خلدون ، د/عبد السلام المسدي صـــ٨٠ .

٦–م " ديوان المتنبي " صـــ٤ / ٣٦٧ .

وإذا حاولنا تفكيك البيت حصلنا على خمسة أزواج ، " إثنان غير تمييزيين "

كلّ / كل ،
منكم / منكم،

وثلاثة منها تمييزيّة بالتطابق ، وتطابقها ترادف يجعلها من مجال واحد :

جزاء / حظ .

قريب / محب .

ملل /ضغن .

بحيث يكون لدينا تعانق سداسيّ ينحلُّ إلى ثلاثة مثان تترامى أطرافها فتربطها نقطة محورية جامعة ، فإذا أقمت خطاً عموديّاً على مفصل المصراعين وقرنت كلّ زوج إلى زوجه حصلت على الشكل البياني المميز " (١) بخلاف هذا التوازي الشعري واللغوي ، نجد أن المتنبي في شعره الشاكي ، قد يتنازل عن هذا التوازي ، فيحشد ألفاظ البيت ودلالات الجمل لجملة واحدة تجمع العناصر اللغوية الأخرى ، وقد يكون هذا التجـــمع لصالح أول البيت مثل قوله :

بمَ التعلل لا أهلٌ ، ولا وطن
ولا نديمٌ ولا كأس ولا سكنُ (٢)

"إن العناصر المتلاحقة لا رابط بينها سوى أنها تجيب عن التساؤل المطلعيّ المحدّد لبنية البيت " بم التعلّـــل"، فهو لذلك يستقطبها فرادى كما لو كان العنصر المولد مركز دائرة شعاعيّة شمسية ، ووقع في البنية أنها تجعل النفس الشعريّ ، شديد التصاعد بطيء التنازل إذ يبلغ البيت نبرته النغمية منذ مطلعه ثم يتدّرج إنحداراً إلى أن يبلغ سفح النبرة مع خاتمته " (٣)

١-م " قراءات مع الشابي والمتنبي والجاحظ وابن خلدون ، د/عبد الـسلام المسدي صـــ٨١ .

٢-م " ديوان المتنبي " صـــ٤ / ٣٦٣ .

٣-م " قراءات مع الشابي والمتنبي والجاحظ وابن خلدون ، د/عبد السلام المسدي صـــ٨٦ .

وقد يرد العنصر المقصود في مؤخرة البيت بحيث تكون كل السياقات السابقة له تكثيفاً له ، يقول المتنبي في الشكوى من كافور :

أمَيــْنَاً وإخلافاً وغدراً وخِســة
وجبْــناً ، أ شخصاً لحت لي أم مخازيا (١)

فكل الصفات السابقة ترشح المعنى الذي يقبع في مؤخرة البيت ، وكأن البنية اللغوية من شأنها أن تطيل نفس الصعود في البيتّ الشعري فلا يبلغ مداه إلا والبيت يكاد ينتهي إلى تمامه فيقع تنازل فجئي هو بمثابة السقوط الحر فتقع عندئذٍ النبرة الشعرية على مؤخرة البيت " (٢)

وقد يكون التكييف متوازياً مع معطيات البيت بحيث يتقابل الصدر والعجز تقابلاً متوازياً ، " إيجاباً وسلباً لتحدث الصدمة المتغايرة ، كما في الشكوى وهي " رثاء " للذات الحاضرة (٣) عند المتنبي ، يقول :

قليلٌ عائدي سَقِم فؤادي
كثيرٌ حاسدي صعب مرامي (٤)

فلدينا تقابل منظم على النحو التالي :

قليل / كثير .
عائدي / حاسدي .
سقم / صعب .
فؤادي / مرامي .

هكذا نجد أن شعر الشكوى عند المتنبي قد تفاعل مع اللغة تفاعلاً حياً ، واستطاع أن يعبر من خلالها عن آلامه وأحزانه ، واستجاب لواقع السياق ، ومعطيات اللغة نحوياً ودلالياً وأبنية ، مسخراً ذلك كله للتنفيس عن شكواه وعتبه في مواجهة الإنسان والعالم والزمان .

١–م " ديوان المتنبي " صـــ٤٣٢/٤ .

٢–م " قراءات مع الشابي والمتنبي والجاحظ وابن خلدون ، د/عبد السلام المسدي صـــ٨٧ .

٣–م " قراءات مع الشابي والمتنبي والجاحظ وابن خلدون ، د/عبد السلام المسدي صـــ٩١ .

٤–م "ديوان المتنبي " صـــ٢٧٦/٤ .

ب- الصورة الفنية :

تتضافر عناصر القول الشعري بشكل تعاضدي لإخراج المعطى الشعري ، بحيث ينال الرضى من لدن القائل والملتقي .

من هنا جاءت أهمية الصورة الفنية كطريقة من طرق التعبير،أوشكل من أشكال الدلالة،لما تحدثه من معنى وتأثير.

والصورة الفنية في السياق الشعري ، بمعناها العام " تشكيل لغوي يكونها خيال الفنان من معطيات متعددة ، يقف العالم المحسوس في مقدمتها " (١)

ويستخدم الشاعر الصورة في إيضاح قوله ، كوسيلة للتعبير عن تجربته ، والتخفيف عن إحساسه ، وفي " نقل فكرته وعاطفته معاً إلى قرائه أو سامعيه " (٢)

وتأخذ الصورة مكاناً متميزاً في سياق العمل الشعري ، " لما في الصورة من دفق شعوري فياض " (٣)

وتبرز مكانتها ،" لأنها أصلية في العمل الشعري وليست مجرد توكيد له " (٤) وإعتماد الشاعر على الصورة ينبع من إحساسه لتجسيد أفكاره ، لا التصريح بها " لأن الصـــورة الفنية تركيبة عقلية تنتمي في جوهرها إلى عـــالم الفكرة أكثر من إنتمائها إلى عالم الواقع " (٥) .

ومن هنا يجعل دلالة تعبيره قادرة على التحول من مادة لفظية إلى مادة تصويرية ، متى تمكن الشاعر - بفضل الأفق الواسع ، والرؤية الفنية - على توظيف هذا المجال الإبداعي ، في سياقه الشعري .

وتنطلق الصورة الشعرية من ذات المبدع ، وبما يقبض عليه من خيال و تصوّر ، يضفي على شعوره وتجربته ، إحساساً نافذاً ، يفضي به إلى الوصول إلى معان إنسانية وجمالية ، يصبها في قالب مؤثر لتحرك العواطف وتهز الوجدان ، لذا يعمد الشاعر إلى الصورة التي تلائم حالته " فأول خطوة في خلق الصورة هو أن يقرن الـشاعر نفسه إلى الأشياء التي تستهوي حواسه " (٦)

١-م " الصورة في الشعر العربي " د/علي البطل صـــ٣٠ .

٢-م " أصول النقد الأدبي " أحمد الشايب صـــ٢٤٢ .

٣- م " تشريح النص " د/ عبد الله الغذامي صـــ١٠٥ .

٤-م " المتنبي قراءة " د/ محمد فتوح صـــ٧٣ .

٥-م " التفسير النفسي للأدب " د/عز الدين إسماعيل صـــ٦٦ .

٦-م " الصورة الشعرية " تأليف سي دي لويس صـــ٦٧ .

والصورة الشعرية عند المتنبي في شعر الشكوى كانت تسير في سياقها المعنوي بحيث تخدم الغرض الأساسي لصياغة الشعر . وكأنها تفرض علينا نوعاً من الوقوف أمام المعنى ، والتأثر به .

لذا كانت الصورة عند المتنبي أساسية ، لأنها " ميدان العمل الذي تظهر فيه مقدرة الشاعر ، ويبرز تمكنّه من الصنعة " (١)

ولم تكن جديّة الشكوى مانعة المتنبي من إخراج صورة المخرج الذي يرتضيه هو لها،بل التأكيد على ذلك،من خلال وحدة الإطار التي تدفع – أساساً – من وحدة المجال الذي تتناوله عناصر الصورة ، كقوله :

أعزمي طال هذا الليلُ ، فانظرْ
أمنك الصبح .. يفرق أن يئُوبا
كأن الفجر حِبٌّ مستزارٌ
يُراعي من دُجُنّته رقيبا
كأن نجومه حَلْيٌ عليه
وقد حُديت قوائمه الحيوُبا
كأنّ الجو قاسيَ ما أقاسي
فصار سوادُه فيه شحوبا
كأنّ دُجاه يجذبُها سُهادي
فليس تغيب إلاّ أن يغيبا
أقلّب فيه أجفاني .. ، كأنّي
أعد به على الدهر الذنوبا (٢)

وتتضافر العناصر التصويرية ، التي تصب في دائرة الغرض الأصلي ، فالفجر والنجوم والجو والدجى و غير ذلك من التدفقات التشبيهية ،وكأنها " تعطي نوعاً " من التراكم الذي تترادف عناصره على توكيد الفكرة الواحدة " (٣) وعناصر العمل الشعري يكملان بعضهما فتنهض الصورة مع بقية العناصر الأخرى ، من شكلية ولفظية ، بل أن المضمون بجوار الصورة .

" وكأنّ الناحيتين تكمّلان بعضهما البعض ، بل إن عناصر الشكل كلها مرتبطة و متشابكة ، تتعاون جميعاً في تصوير مادة الشعر وإعطائها لونها الحقيقي الجذاب " (٤)

١–م " الأسس الجمالية في النقد العربي " د/عز الدين إسماعيل صـ٢١٦ .

٢–م " ديوان المتنبي " صـ ١/ ٢٦٦/٢٦٧ .

٣–م " شعر المتنبي قراءة أخرى " د/ محمد فتوح / صـ٧٥ .

٤–م " اتجاهات الشعر في القرن الثاني الهجري " د/مصطفى هدارة صـ٥٦٨ .

ومن مرتكـــزات الصورة ، التشبيه كقيمة فنية تساعد الشاعر على إيضاح الصور ، ورســـم الفكرة لذا " يصبح التشبيه وسيلة ضرورية ، يتوسل بها الشاعر ليبيّن لنفسه حقيقة التجربة التي يعانيها ، ويفضّح الجوانب الخفية منها " (١)

ومن هنا لا تكون الصورة بعيدة عن الموقف النفسي ، وكأنها رافدة من روافد تجسيد الهم ، وتصوير حدوده .

يقول المتنبي :

أهمُّ بشيءٍ ، والليالي كأنها
تطاردني عن كونه وأطارد
وحيد من الخلان في كل بلدةٍ
إذا عظم المطلوب قلَّ المساعد (٢)

وكأن التشبيه هنا مع طرفه الآخر ، الليالي ، رمزاً للإستمرار والفاعلية ، والديمومة ، التي تصطبغ بها معاناة الشاعر ، رسمها من خلال الطرد والسفر الدائم ، والرحيل المتواصل،و ندرة الرفيق ، لذا جاءت الصورة مثمرة في إتجاهين ، أولهما : متاعب التّـنقل والسفر والغربة ، وثانيهما : الإحباط وخيبة المسعى .

وعنصر التشبيه في شعر المتنبي الشاكي وفير ، ومن أبلغ صوره في التشبيهات أنه يصل لصورة تشي بالتلاشي والغياب ، وكأنه غير موجود ، يقول :

كفِى بجسمي نحولاً ، أنني رجلٌ
لولا مخاطبتي إياك لم ترني (٣)

ويقول في صورة أخرى :

رماني الدهر بالأرزاء، حتى
فؤادي في غشـــاءٍ من نبـــال
فصرت إذا أصابني ســـهامٌ
تكســـرت النصـــال على النـــصال (٤)

لذا فهو يسخر الصور في خدمة هدفه الأساس ، وأظهر مقدرة في إيصال الشكوى إلى المتلقي مما جعل مثل هذه الصور حاضرة في أذهان الأجيال ، من لدن عصره حتى يوم الناس هذا .

١–م " الصورة الفنية في التراث النقدي والبلاغي عند العرب " د/جابر عصفور صـــ٣٤٢ .

٢–م " ديوان المتنبي " صـــ١/ ٣٩٢/ ٣٩٣ .

٣–م " ديوان المتنبي " صـــ٤/ ٣١٩ .

٤–م " ديوان المتنبي " صـــ٣/ ١٤١ .

وتأتي صور المتنبي حاملة الحركة و الحياة في الإطار الشعري ، الذي تصب فيه ، وتتمثل في إنتزاع الصور الأبهى تعبيراً ، والأشد مشابهة لواقع الشاعر وحياته ، لذا يقول عنه أحد الباحثين إنه " أكثر شعراء العربية تعبيراً عن عواطفه ومشاعر نفسه ، ومن ثم كان في فنه أعظم الشعراء تعبيراً عن تجربته وحياته " (١)

وطريقة الصورة عند شعر المتنبي الشاكي لا تمثل سبيلاً واحداً ، من هنا جاءت نادّة عن التنظير و التعقيد ، لذا لا يمكن أن تكون المبالغة هي الإطار الذي تندثر به صور المتنبي ومع هذا هي مبالغة مقبولة ،ومعتدلة، يقول في إحدى غزلياته ، مشكياً :

أسرُّ بتجديد الهوى ذكرَ ما مضى
وإن كان لا يبقى له الحجَر الصلدُ
سُهادٌ أتانا منك في العين عندنا
رُقاد ، وقْلاّم رعى سربُكم وردُ
ممتلّة حتى كأن لم تفارقني
وحتى كأن اليأس من وصلكِ الوعدُ
وحتى تكاد تمسحين مدامعي
ويعبق في ثوبيّ من ريحك النّدُّ (٢)

صور متلاحقة ، وتشبيهات متتابعة ، ومع ذلك لا تكاد تحس بأدنى أثر سلبي لمثل تلك المبالغة ، " لأن بنية الصورة تدرجت بنا فيما يشبه حلم اليقظة " (٣)

وصور المتنبي في شعره في هذا الإتجاه تجنح إلى الإغراق في الخيال ، معتمدة على الألفاظ الموحية ، وكأنها تجر القارئ للتركيز عليها ، يقول :

كيف الرجاءُ من الخطوب تخلّصا
من بعدما أنشبن فيّ مخالبا
أوحدنني ، ووجدتُ حزناً واحداً
متناهيا ، فجعلنه لي صاحبا
ونصبنني غرض الرماة تصيبني
محن أحدُّ من السيوف مضاربا
أظمتني الدنيا ، فلما جئتُها
مستسقياً ، مطرتْ عليّ مصائبا (٤)

١–م " لغة الحب في شعر المتنبي " د/عبد الفتاح صالح نافع صـ٣٤٥ .

٢–م " الديوان " صـ٢/ ١٠٣ / ١٠٤ ، والقلّام : نبات خبيث الرائحة .

٣–م " المتنبي قراءة أخرى " د/محمد فتوح صـ٨٢ .

٤–م " ديوان المتنبي " صـ١/ ٢٥١ /٢٥٢ .

بعد قراءة هذه الأبيات نجد أنفسنا أمام صورة خالية مليئة بالإيحاءات النفسية ، والمعاناة الحزينة ، إستعار فيها للخطوب مخالباً ، توغلت في جسده ، والمحن في نفاذها أحدُّ من السيف ، والظمأ وكأنه يحثه على التغيير،صورة توحي بتأزم حالته ، وضيق موقفه ، وحراجة وضعه ، حتى ترى الصور المتلاحقة تؤكد الشكوى ،وتعطي خلفية واضحة لمكنونها الداخلي .

ومن براعة الصورة عند المتنبي في شعـره الشاكي الإستعارة ، إنه يمنح الدهر جسداً له مذاق ، وأفعال ، فمن أفعاله أنه يعجب ، يقول :

الدهر يعجب من حملي نوائبه
وصبر جسمي على أحداثه الحطم (١)

وهو يهرم ، يقول :

أتى الزمان بنـوه في شبـيبته
فـسرّهم ، وأتيـناه علـى الـكبر (٢)

وهو في نسج صورة ذوقية في شكوى الزمان ، مستعيراً له الفعل " أذاق " كاشفاً عن خلجاته النفسية ، يقول :

أذاقني زمني بلوى شرقت بها
لو ذاقها لبكى من عاش وانتحبا (٣)

غير أن ظاهرة شكوى الزمان قد تفاقمت في عصر المتنبي إلى حدٍ أضحت معه لازمة لأي شاعر ، مما حدا بأحد الباحثين أن يقول " إن هذا القول لو وقع على ظهر جبل لقصمه " (٤)

وتعدد الشكوى عند المتنبي أفرزت صوراً شتى من التشبيهات والإستعارات ، وكأن الشكوى تلّون القالب الشعري بلونها ، لذا يكون التساؤل – بالإضافة لما سبق – من طريقة التعبير ، أو كناية عن خلجاته النفسية ، وسعيه الدؤوب الذي يلازم اليأس في كل طريق يسلكها ،

١–م " ديوان المتنبي " صـ٤/٢٩٥ .

٢–م " ديوان المتنبي " صـ ٤/ ٢٩٦ .

٣–م " ديوان المتنبي " صـ ١/ ٢٤٨ .

٤– م " المجمع العراقي في شعر القرن الرابع الهجري " لعبد اللطيف الراوي صـ٢٥٣ .

يقول :

أين فضلي إذا قـنعـت مـن
" م "
الـدهر يعـيش معجّـل التنكيد
ضاق صدري وطال في طلب الرزق
" م "
قيامـي وقـلّ عـنه قعـودي (١)

ويحمل التساؤل هنا طابع الإحباط والحيرة والضنك والضيق ، وأوجز ذلك بقوله " وضاق صدري " .

وتتبلور الصورة بأشكال أخرى ، كقوله في بيان فقره :

فسرت نحوك – لا ألوي على أحدٍ –
أحـثُّ راحلتي الفقر والأدبا

حين يجعل من الفقر والأدب راحلتين يمتطيها لمواصلة الإستجداء، و إكتساب المال .

ويلجأ المتنبي في بعض صوره إلى التخفيف والإقناع ، لتسلية نفسه ، وتطبيب أوجاعها ،فهو حين ذكر الشكوى، يعقبها بحكمة تسلي نفسه ، وتخفف حالته النفسية ، يقول في شكوى الفراق :

وقفنا ، ومما زاد بثاً وقوفنا
فريقي هوىً مِنّا مشوقٌ وشائقُ
وقد صارت الأجفان قرحى من البُكا
وصار بهاراً في الخدود الشقائق (٢)

ثم يلجأ بعد ذلك مباشرة إلى الحكمة والتبصر والتسلية ، قائلاً :

على ذا مضى الناس اجتماعٌ وفرقة
ومَيْتٌ ومولودٌ وقالٍ وواموقُ (٣)

فكأنه هنا يغري نفسه بأنه الفراق من سنن الكون .

والميزة اللفظية جاءت عفو الخاطر في سياقات الشكوى ، وهي تخدم التناقضات بين المعاني ، لذا وجد الطباق مجالاً للظهور ،

١–م " ديوان المتنبي " صـ٢/ ٤٤ .
٢–م " ديوان المتنبي " صـ٣/ ٨٢ .
٣–م " ديوان المتنبي " صـ٣/ ٨٣ .

يقول المتنبي :

قليل عائدي ، سقم فؤادي
كثير حاسدي صعب مرامي (١)

فقد طابق بين " قليل " ، و" كثير " ، وتستمر الصورة في التناقض ، حين يلمّ المتنبي ببعض الطباقات ، وكأنها صورة لمحتواه الداخلي ، ومعاناته بين ما يرى ، وما تريد ، يقول :

أغالب فيك الشوق ، والشوق أغلب
و أعجب من ذا الهجر ، والوصل أعجب
أمـــا تغـــلط الأيام فـــيّ بـــأن أرى
بغيضاً تنائي ، أو حبيباً تقرّب (٢)

فشكوى الأيام التي أولعت بإبعاد من يحب ، وتقريب من يكره ، ليست فيها ثوب الطباق بين" الوصل " ، و"الهجر" في البيت الأول وبين " النأي " و " القرب ، والحبيب " و " البغيض "

في البيت الثاني :
ومن ألوان الصنعة التي أصطبغ بها شعر الشكوى عند المتنبي " التقسيم ، وهو " أن يذكر قسمة ذات جزئين أو أكثر ثم يضيف إلى كل واحد من الأقسام ما يليق به " (٣)

أو بعبارة أخرى هو " تجزئة الوزن إلى مواقف " (٤) ، فأضاف هذا اللون مسحة جمالية ساعدت على إيضاح الصورة وشرح المعنى ، عن طريق الشكل الملائم ، والجمالي الإيقاعي ، وخاصة إذا جاء عفو الخاطر ، مثل قوله :

الحزن يقلق ، والتجمل يردع
والدمع بينهما عصيٌّ طيعّ (٥)

١–م " ديوان المتنبي " صـــ٤/ ٢٦٧ .
٢–م " ديوان المتنبي " صـــ١ / ٣٠١ .
٣–م " التكرار بين المثير والتأثير " د/ عز الدين علي السيد / دار الطباعة المحمدية / القاهرة / الطبعة الأولى ١٣٩٨هـــ .
٤–م " المرشد لفهم أشعار العرب " صـــ٢/٧٠٢ د/ عبدالله الطيب المجذوب .
٥–م " ديوان المتنبي " صـــ٣ / ١٢ .

ثم يوزع المعنى بشكل آخر بعد ذلك مباشرة ، يقول :

يتنازعان دموع عين مســـهد
هذا يجئ بها وهذا يرجع (١)

ومثال قوله :

أرق على أرق ، ومثلي يأرق
وجوى يزيد ، وعبرة تترقرق
جهد الصبابة أن تكون كما أرى
عين مسهدة ، وقلب يخفق (٢)

ولقد كثر هذا النوع في شعر المتنبي الشاكي في مثل قوله :

وحيد من الخلان في كل بلدة
إذا عظم المطلوب قلّ المساعد (٣)

ومثل قوله :

فالموت أعذر لي ، والصبر أجملُ بي
والبرُّ أوسع لي ، والدنيا لمن غلبا (٤)

ومثل قوله :

قليل عائدي ، سقم فؤادي
كثير حاسدي ، صعب مرامي
عليل الجسم ممتنع القيام
شديد السكر من غير المدام (٥)

وهذا الأخير يمثل التقسيم المتساوي ، والذي يتخذ من الشكل المتوازي ثوباً له .

وأخيراً من خلال الصور والشواهد الماضية ، تظهر أهمية الصورة في شرح الهم ، وإبراز الشكوى ، وصبغ المعنى بقوة الدلالة ، وذلك لما تختزله الصورة من جمال بلاغي مشرق .

هذا إضافة لما يتمتع به المتنبي من خيال خصب ، وتعبير براق ، ليسمو بالصورة والتجربة التي أتى بها إلى مدارج الجودة ، والتي أبرزت خفقاته الحزينة ، وحمولاته الشاكية ، فعكسَ إلى حد كبير أشجانه وشجونه .

١- " ديوان المتنبي " صـــ ٣ /١٢ .
٢- المصدر نفسه صـــ٣ / ٧٣ .
٣-نفسه صـــ ١/ ٣٩٣ .
٤- نفسه صـــ٢٤٩/١ .
٥- نفسه صـــ٢٧٦/٤ .

٣- الوحدة الموضوعية :

امتزج شعر الشكوى عند المتنبي بإنكسار أحلامه ، وغياب أمله ، وكثرة إحباطه ، بل تجاوز ذلك إلى اختلاط مدح الآخرين بشجونه و أحزانه .

وعلى هذا يمكن أن أقول إن قصيدتين عند المتنبي في هذا النوع من الشعر ،قد تحققت فيهما الوحدة الموضوعية بشكل متكامل ، وهما قصيدته التي مطلعها :

عيد بأية حال عدتَ يا عيد
بما مضى أم بأمر فيك تجديد (١)

وقصيدته الأخرى التي يقول في بدايتها :

صحب الناس قبلنا ذا الزمان
وعناهم من شأنه ما عنانا (٢)

هتان القصيدتان لا تخرجان عن الشكوى إلا للحكمة التي تؤيد الشكوى ، وتؤكد عليها ، أو للهجاء الذي يبرر الشكوى ، ويساند حضورها .

أما إذا نظرنا إلى شعر المتنبي الشاكي في ألوانه المختلفة ، نجد أنه لم يكن ذا نسق متناسق .

بحيث نجد الأبيات مبثوثة في ثنايا القصيدة الواحدة هنا وهناك ، تشير إلى الشكوى وتضم معها أغراضاً أخرى .

ويكثر أن تكون الشكوى في مطلع القصيدة ، مثل قوله :

الحزن يقلق والتجمل يردع
والدمع بينهما عصيٌّ طيّعُ (٣)

أو قوله :

أفاضل الناس أغراض لذا الزمن
يخلو من الهم أخلاهم من الفطن (٤)

١-م " ديوان المتنبي " صـ٢/١٣٩ .

٢- المصدر نفسه صـ٤/ ٣٧٠ .

٣- نفسه صـ٣/ ١٢ .

٤- نفسه صـ٤/ ٣٤١ .

الفـــصل الثـــالث

الخصائص الفنية لشعر الشكوى

أو قوله :

أودُّ من الأيام ، لا توده
وأشكو إليها بيننا ، وهي جنده (١)

أو قوله :

لا خيل عندك تهديها ، ولا مال
فليسعد النطق ، أن لم تسعد الحالُ (٢)

أو قوله :

نرى عظماً بالبين والصد أعظم
ونتهم الواشين والدمع منهم (٣)

أو قوله :

كـُقي أرني وبـكِ لوْمكِ ألوما
همٌّ أقام على فؤاد أنجما (٤)

أو قوله :

أرقٌ على أرق ، مثلي يأرق
وجوىً يزيد ، عبرة تترقرق (٥)

أو قوله :

حشاشة نفسٍ ودعت يوم ودعوا
فلم أدري أيّ الظاعنين أشيعُ (٦)

أو قوله :

أحيا ، وأيسر ما قاسيت ما قتلا
والبين جار على ضعفي وما عدلا (٧)

أو قوله :

عزيز أسىً من داؤه الحدق النجل
عياءٌ به مات المحبون من قبلُ (٨)

أو قوله :

أبلى الهوى – أسفاً – يوم النوى بدني
وفرّق الهجر بين الجفن والوسن (٩)

١–م " ديوان المتنبي " صـ٢ / ١١٩ .
٢– المصدر نفسه صـ٣ /٣٩٤ .
٣–نفسه صـ٤/ ٢٠٢ .
٤–نفسه صـ٤/ ١٤٣ .
٥–نفسه صـ٣/ ٧٣ .
٦–نفسه صـ٢ / ٣٤٤ .
٧–نفسه صـ٣ / ٢٨٢ .
٨–نفسه صـ٣ / ٢٩٦ .
٩–نفسه صـ٤ / ٣١٧ .

أو قوله :

الحب ما منع الكلام الألسنا
وألذُّ شكوى عاشق ما أعلنا (١)

أو قوله :

قد علّم البينُ منا البين أجفانا
تدمي ، وألّف في ذا القلب أحزانا (٢)

أو قوله :

إثــلث فــإنا أيهــا الطلــل
نبكي وترزم تحتنا الإبلُ (٣)

أو قوله :

ذكر الصبى ، ومراتع الآرام
جلبت حمامي قبل وقت حمامي (٤)

أو قوله :

بم التعلل ، لا أهل ولا سكن
ولا نديم ولا كأس ولا وطن (٥)

أو قوله :

ضيفٌ ألمّ برأسي غير محتشم
والسيف أحسن فعلاً منه باللمم (٦)

أو قوله :

كفى بك داءً أن ترى الموت شافيا
وحسب المنايا أن يكن أمانيا (٧)

أو قوله :

أريك الرضا لو أخفتِ النفس خافيا
وما أنا عن نفسي ولا عنك راضيا (٨)

أو قوله :

ملامى النوى في ظلمها غايةٌ الظلم
لعلّ بها مثلَ الذي من السقم (٩)

أو قوله :

واحــرّ قــلباه ممن قــلبهُ شــبم
ومن بجسمي وحالي عنده سقم (١٠)

١-م " ديوان المتنبي " صـــ ٤/ ٣٢٧ .
٢- المصدر نفسه صـــ٤ / ٣٥١ .
٣-نفسه صـــ ٤ / ١٥ .
٤-نفسه صـــ ٤ / ١١٩ .
٥-نفسه صـــ٤/ ٣٦٣ .
٦- نفسه صـــ٤ / ١٥٠ .
٧- نفسه صـــ٤/ ٤١٧ .
٨- نفسه صـــ ٤/ ٤٣٢ .
٩- نفسه صـــ٤ /١٦٥ .
١٠- نفسه صـــ٤ /٨٠ .

ولو ذهبت أستقرئ المطالع التي تصطبغ بلون الشكوى ، لطال الإستقراء ويكفي هذا القدر .

وقد قصدت من خلال هذا التكثيف للشواهد ، إبراز مكانة الشكوى عند المتنبي ، وأنها في مقدمة قصائده ،بحيث تكون من الأهمية سابقة الأغراض الأخرى .

والحديث عن الوحدة الموضوعية عند المتنبي في شعر الشكوى،لا يحدده جانب واحد،لأن قصائد المتنبي لا تنتظم في وحدة موضوعية واحدة . (١)

وهذا يفقد القصيدة عنصراً أساسياً في سياق الحديث عن الوحدة الموضوعية . والتي هي " وحـــدة الموضوع ، ووحدة المشاعر التي يثيرها الموضوع . وما يستلزم ذلك في ترتيب الصور و الأفكار ترتيباً به تتقدم القصيدة شيئاً فشيئاً حتى تنتهي إلى خاتمة يستلزمها ترتيب الأفكار والصور على أن تكون أجزاء القصيدة كالبنية الحيّة لكل جزء ووظيفته فيها . ويؤدي بعضها إلى بعض عن طريق التسلسل في التفكير والمشاعر " (٢)

والملاحظ أن الوحدة الموضوعية وفق هذا المنظور سوف تتبعثر في كل القصائد (٣) ، وتبدو أطراف الصورة مبتورة الأوصال ، لأنها افتقدت عنصر الترابط والتداعي والانسياب ، إذ قـــد ينتقل – وهو في غمرة انفعاله وشكواه – إلى مدح أو غزل .

ويمكن أن تكون الوحدة النفسية معادلاً موضوعياً – في قصائد شكوى المتنبي – للوحدة الموضوعية ، ولكن تبقى الفكرة العامة التي تجعل الشكوى بنية فكرية مترابطة مفقودة في هذا الصدد .

وهنا تعطي القصيدة بكاملها حالة وجدانية ونفسية – بشكل أكبر – من إعطائها وحدة موضوعية .

والشاعر هنا " لم يكن ينظم قصائده وفقاً لتقاليد فنية يطيعها وحدها ، وإنما كان يصدر عن دوافع وحالات نفسية تملي عليه أن يأخذ بهذا المنهج أو ذاك " (٤)

١١-عدا قصيدتين سبق ذكرهما .

٢-م " النقد الأدبي الحديث " د/ محمد غنيمي هلال صـــ٣٧٣ .

٣-ما عدا القصيدتين اللتين ذكرهما في بداية الفقرة .

٤-م " وحدة القصيدة في الشعر العربي " لحياة جاسم صـــ١٦٢ .

وبهذا يصبح الخيط الذي ينتظم أغراض القصيدة ، بشكل كامل هو " عاطفة واحدة تظهر في شكلها الإيجابي متمثلة في عاطفة الحب ، وتظهر في شكلها السلبي متمثلة في عاطفة البغض " (١) لذا تلعب العاطفة والظروف النفسية دورها في تحديد الجو العام للقصيدة ، وتشكيل سياقها الموضوعي والشعوري . من هنا " نستطيع أن نتخذ من التوتر عند الشاعر أساساً ديناميا لوحدة القصيدة ، فهو يساهم بنصيب كبير في تحديد الهدف والطريق إليه " (٢)

وشعر المتنبي بعامة تنتظمه الهموم وأعباء الطموح ، وتعب الحياة ، ومصارعة الأيام ، من هنا تصبح وحدة الموضوع ، تضم الشكوى وغيرها من الأغراض ، التي يحييها صدق المشاعر ،وإخلاص الشاعر لفنه، وبراعته التعبيرية عن دواخل نفسه ، وخلجات وجدانه ، وبهذا تحقق وحدة موضوعية من نوع آخر ، قوامها الأحاسيس المتشابهة ، والتجربة الشعورية ، ولحظة الإبداع ، ومن هنا تصبح الشـــكوى متجاورة إلى الأغراض الأخرى ، " مادامت هناك عاطفة واحدة تشدّ الأغراض إلى بعضها " (٣)

فنجد في قصيدته التي يقول في مطلعها :

ليالي بعض الظاعنين شكولُ
طوالٌ ، وليل العاشقين طويلُ (٤)

وهي من مدح سيف الدولة ، ولكن بعض الأبيات يعود إلى الحزن والهم ، ليدخل مشاكله مع الأخرين في سياق النص ، قائلاً :

وما لكلام الناس فيما يُريبني
أصولٌ ، ولا للقائليه أصـــولُ
أعادى على ما يُوجب الحبَّ للفتى
وأهدأ ، والأفكار فيّ تجول
سوى وجع الحساد داءٍ ، فإنه
إذا حلَّ في قلبٍ ، فليس يحول
وإنّـــا لنلقى الحـــادثان بأنفس
كثـــير الرزايا ، عندهن قليل
يهون علينا أن تُصابَ جسومُنا
وتسلم أعراضٌ لنا وعقول (٥)

١–م " وحدة القصيدة في الشعر العربي حتى نهاية العصر العباسي " لحياة جاسم صـــ٢٥٨ .
٢–م " الأسس النفسية للإبداع الفني في الشعر خاصة " د/ مصطفى سويف صـــ٣٠٦ .
٣–م " لغة الحب في شعر المتنبي " د/عبد الفتاح صالح نافع صـــ٣٤٥ .
٤–م " ديوان المتنبي " صـــ٣/ ٢١٧ .
٥–م " ديوان المتنبي " صـــ٣ / ٢٣٠ .

وكأن الوحدة النفسية تجمع ما بين كافة الأغراض .

وقد توفر للمتنبي من الوحدة النفسية ما جعله يعبر عن تجربته بشكل متميز ، فقد كان في شعره " أعظم الشعراء تعبيراً عن تجربته وحياته ، وبقدر ما كانت عاطفته معبّرة عن هذه التجربة بقدر ما كان يوفر لقصائده الوحدة الشعرية الحقة" (١)

لذا تحقق في شكواه تدفق الوحدة الشعورية ،وضمت الشكوى ،والأنين والتعب ، إضافة إلى العواطف و المشاعر المتألمة ، يقول :

عيد بأية حال عدتَ يا عيد
بما مضى ، أم لأمر فيك تجديد ؟!
أما الأحبة فالبيداءَ دونـــهم
فلـــيت دونـــك بيداً و دونها بيـــدُ

وتسير القصيدة على هذا النحو ، حتى يقول :

لم يترك الدهر من قلبي ، ولا كبدي
شيئاً تُتَيّمُه عينٌ ولا جيد
يـــا ســـاقيّ أحـــمرٌ فـــي كئُوسكما
أم في كئوسكما همٌّ وتسهيدُ
أ صخرةٌ أنا مالي لا تُحـــركني
هذي المدام ، ولا هذي الأغاريد
إذا أردت كميت اللون صافية
وجدتها " جببت القلب مفقود
ماذا لقيت من الدنيا ، و أعجبُه
أني بما أنا باكٍ منه محسود(٢)

وتستمر القصيدة بجو نفسي واحد ، ووحدة شعورية حادة ، لأن العيد بعثر شعور المتنبي مما أعطى مجالاً خصباً لتعميق الدلالة على واقعه المرير و نفسيته المحطمة .

١–م " لغة الحب في شعر المتنبي " د/ عبد الفتاح صالح صـــ ٣٤٥ .

٢–م " ديوان المتنبي " صـــ ١٣٩، ١٤٠، ١٤١، ١٤٢، / ٢ .

حتى وإن ضم في قصيدته بعض الهجاء ، فهو لا يخرج عن إطار الشكوى ،لأن دافع الهجاء منبثق من حقل الشكوى .

وكانت فرحة العيد طافحة بذكريات الأحبة والأهل ، زاد على ذلك ما كان يشعر به من غربة في إقامته عند كافور وما لقيه من أتعاب في زمانه ،فجاءت هذه القصيدة كوثيقة على حزنه وألمه ،فلا الخمر تسلية،ولا النساء تعزية. وبهذا تأتي مقدمة القصيدة كمدخل لجو نفسي كئيب ، يمتد حتى آخر بيت في القصيدة . يتضح ذلك من خلال مدخل القصيدة ، والشكوى من الإخفاق ، وذم كافور ، وقدوم العيد ، الذي فجّر المعاناة ،وصوّرها بوحدة شعورية مترابطة تفصح عن سقوط الشاعر ، وانهيار نفسيته ، تحت وطأة اليأس ، ومصارعة الواقع ، مما حدا بالدكتور/ عبده بدوي أن يقول عن هذه القصيدة أنها " إنهيار جانب من نفسية المتنبي " (١) ، بل يجزم أنها " تجسيد مأساته " (٢)

وبهذا تكون الوحدة النفسية والشعورية هي الخيط الذي ينتظم القصيدة .

يقى نوع ثالث من وحدة الموضوع ، ويتمثل في قصائد كتبت في غرض واحد ، مثل الشكوى من السجن ، أو الشكوى من الحمى ، فقد كانت هذه تتراوح بين القصر والطول ، يقول في مقطوعته في السجن :

أهون بطول الثواء والتلف
والسجن والقيد يا أبا دُلف (٣)
غير اختيار قبلتُ بّرك بي
والجوع يُرضي الأسود بالجيف
كن أيُّها السجن كيف شئت فقد
وطنّت للموت نفس معترف
لو كان سكناي فيك منقصة
لم يكن الدر ساكن الصدف (٤)

نجد الوحدة الموضوعية متحققة لأنها جاءت في سياق غرض واحد ،وهو السجن والجوع والإنكسار اللذان أحس بهما المتنبي فيه . (٥)

١–م "دراسات في النص الشعري " العصر العباسي " د/عبده بدوي صـــ١٩٢ .

٢–المرجع السابق صـــ١٨٨ .

٣–أبو دلف " سجان الوالي " راجع الديوان صـــ٣ /٢٣ .

٤–م " ديوان المتنبي " صـــ٣ / ٢٣ / ٢٤ .

٥–مثل هذه المقطوعة ممكن أن تتدخل قصيدة الحُمّى راجع " ديوان المتنبي " صـــ٢٧٢/٤ .

٤- المعجم الإيقاعي :

يشكل الإيقاع الشعري بأوزانه وقوافيه علامة من عناصر البناء الشعري ، فهي " تميز الشعر عن النثر " (١) كما يتمتع الإيقاع بخصيصة من خصائص اللغة ، تجعل التأثير على المتلقي يرتبط بالشعر عن طريق الأذن ، بالإضافة إلى العوامل الأخرى المؤثرة في إنشاء الشعر .

وهذه الخصيصة تعطي في بعدها الآخر جانباً من عواطف وأحاسيس الشاعر ، التي تنعكس على الموقف النفسي وعالم الشعر الخارجي . لما للإيقاع من دور بـــارز فـــي إخراج الصورة الشعرية بإطار خارجي أنيق ، يتمثل في الموسيقى .

وتميل دراسة الإيقاع إلى إبراز سمات هذا الصوت ، ومقدار هذا الإطار ، لما يمثله من أنغام ، تعين على الكشف عن حالة الشاعر ، وتجربته الشعرية ، ومدى وضوح التوتر النفسي في سياق تعابيره الإيقاعية .

فالألم الذي يعبّر عنه بالصوت ، يؤثر فينا على وجه العموم ، تأثيراً روحياً أبلغ من تأثير الألم الذي يعبّـــر عنه بقسمات الوجه وحتى الحركات " (٢) فمقدار النبرة ، وقوة الحرف ، ونوعية الصوت تمنح الإيقاع درجة عالية النهوض بأحاسيس الإنسان ، والتعبير عن إنفعالاته ونبض فؤاده .

ولعل البحث في الإيقاع وعلاقته بالشكوى بحث يعتمد على الوحدة الموضوعية بشكل كبير ، لأنه ليست هناك قصائد منفردة في غرض واحد ، بل تأتي القصيدة تضم أشتاتاً من الأغراض بحيث " يقترن النسيب فيها بالوصف وقد يفضي هذان إلى مديح،وقد يجتمع إلى هذا كله شكوى الدهر أو التبصير في عبر الأيام ،ومن ثم يظل الإحتكام إلى مبدأ تصنيف الأغـــراض الشعـــرية – في قياس مدى الموائمة بينها وبين إيقاعات بذاتها – دائرة في إطـــار الافتراض المحض " (٣)

لذا تبقى نتائج دراسة البحور وعلاقتها بالغرض الشعري ، تعطي إنطباعاً وصفياً لا بعداً معيارياً .

١–م " موسيقى الشعر " د/ إبراهيم أنيس صـــ٢٧ .

٢–م " الشعراء وإنشاد الشعر " علي الجندي صـــ٩٢ .

٣–م " المتنبي قراءة أخرى " د/ محمد فتوح صـــ١٣٤ .

وتصبح ظاهرة دوران الشعر في بحر " ما " ، وضموره في بحور أخرى " نتائج مشروعة ، أما القفز من هذه المؤشرات الإحصائية إلى تقنين علاقة الإيقاع بنوع العاطفة أو الموضوع أو الغرض ، فأمر لا يخلص تماماً من الذاتية ، والتقنين القاطع فيه غير وارد، فضلاً عن أن المحاولات التي بذلت بصدده لم تلق نجاحاً يذكر،وظلت - على العموم – رهينة إجتهاد أصحابها "

وأول ما يمكن الحديث عنه في صدد المعجم الإيقاعي هو الأوزان ، والتي تحمل حمولات الشعر بعد أن يمر على الصور والتراكيب والألفاظ والمعاني ، فتخرج في إطار إيقاعي يلائم التجربة الشعرية المبثوثة في ثنايا القصيدة . والمتنبي في شعره الشاكي الذي اندس بين قصائده ، يحمل نفس السمات العامة لمعجمه الإيقاعي ، بحيث أن ما ينطبق على الكل ينطبق على الجزء ، إلا في أمور قد تظهر من خلال ملاحقة هذا المعجم .

ومن خلال جدول سوف نعرف البحور المستخدمة ، والبحور المهجورة ، والبحـــور النادرة ، والـــمتوسطة في حضورها في معجم المتنبي الإيقاعي .

التسلسل	البحر	عدد الأبيات	النسبة المئوية	ملاحظات
١	الطويل	١٦٨٤	%٣٠،٣	
٢	الكامل	٩٢٧	%١٦،٧	
٣	البسيط	٨٠٧	%١٤،٥	
٤	الوافر	٧٦٣	%١٣،٧	
٥	الخفيف	٤٦٥	%٨،٤	
٦	المنسرح	٣٥٥	%٦،٤	
٧	المتقارب	٢٧٨	%٥،٠	
٨	السريع	١١٨	%٢،١	
٩	الرجز	١٠٩	%٢،٠	
١٠	المجتث	٣٦	%٠،٦٥	
١١	الرمل	١٤	%٠،٢٥	(٢)
		٥٥٥٦	المجموع	

١–م " المتنبي قراءة أخرى " د/ محمد فتوح صـــ١٣٤ .

٢–يراجع في ذلك ديوان المتنبي بشرح العكبري ، ويضاف إلى ذلك استفادة من دراسة في كتاب " المتنبي قراءة أخرى " د/محمد فتوح صـــ١٣٨ .

وهنا يجدر بنا أن نشير إلى الحكم التسرعي أطلقه الدكتور / عبد الله الطيب عندما قال : "وقد كان أبو الطيب المتنبي من رجال التأمل والحكم والوثبات العقلية العميقة ، وقد أدرك بفطرته الصادقة أن البحر الكامل لم يخلقه الله له فتحاماه ، في الكثير الغالب ، على أنه قد تعاطاه في بعض قصائده " (١)

ومن خلال الرصد السابق يدل واقع أبي الطيب الشعري بأن المتنبي لم يتحام بحر الكامل ، بل إن له الأولوية في شعره بحيث استعمل هذا البحر في حوالي عشرين مقطوعة ، وأكثر من خمس وعشرين قصيده تجاوزت في محصلتها النهائية ما يصل إلى ألف بيت تقريباً من ديوان الشاعر ، بل يأتي هذا البحر بالمرتبة الثانية بعد البحر الطويل فكيف يكون المتنبي " أدرك بفطرته الصادقة أن البحر الكامل لم يخلقه الله له فتحاماه "

وإذا استبعدنا علاقة البحر بالغرض ، بل إنه ليس هناك – برأينا – أدنى إتصال بينهما ، ولا يمكن أن نخرج قاعدة مطردة ، إنما هي إجتهادات تصح في موضع ، وتخالف الصواب في موضع آخر (٢)

وتختلف القدرة الشعرية من شاعر لآخر في كل غرض ، لذا يمكن أن نقول إن الأحاسيس والحالة النفسية والإضطربات الإنفعالية تتفاوت ،وتتراوح تبعاً لهذه القدرة .

كما يمكن القول ، إن الموسيقى ،تأتي استجابة تلقائية ،حين تكون التجربة الشعرية في فورة عنفوانها . فيتداخل – في هذه الحالة – البحر ، ويصبح كل قالب إيقاعي ، وكل وزن صالح لإحتواء التجربة الشعرية أياً كان غرضها ومن هنا جاء إهتمام الشعراء بفضل المعجم الإيقاعي الذي يستوعب إنفعالاته وعواطفهم حتى تظهر التجربة الشعرية في أبهى مظاهرها .

" ومن الجلّي أن أبا الطيب في معجمه الإيقاعي لا يتحرك في كل المسافة الموسيقية التي استوعبها العروض العربي من الناحية النظرية " (٣) ،

١–م " المرشد إلى فهم أشعار العرب وصناعتها " د/عبد الله الطيب /ص١/٢٦٥ .

٢–م مثلاً إلى " لغة الحب في شعر المتنبي " د/عبد الفتاح صالح ص٢٩٥ .

وانظر " موسيقى الشعر " د/إبراهيم أنيس ص١٩٦ . وانظر مثلاً " منهاج البلغاء وسراج الأدباء " وشرح ذلك في ما بين ٢٦٥ / ٢٧٠ .

وانظر مثلاً " دراسات في العصر العباسي " د/ عبده بدوي /حين يقول ص١٨٠

" العقيدة من البحر الطويل ، وهو يتفق وحالات الحزن الرفيع ،والإنكسار المتعالي "

٣–م " المتنبي قراءة أخرى " د/ محمد فتوح .

لذا كان التفاوت متبايناً بين استعمال بحر وآخر إذا يمكن القول إن بحر الطويل والكامل والبسيط والوافر ، قد استوعب نصف شعره تقريباً ، مما يدل على أنه يركز على البحور التي سبق ذكرها .

" بل إن من بين هذه الأنماط المستعملة خمسة لا يتجاوز ما نظم في مجموعها نسبة ٢٤% من جملة شعره ، وهي نسبة لا تصل إلى النسبة التي بلغها وزن الطويل وحده " (١)

لذا يمكن القول إن إمتداد الوزن ،ورحابة مقاطعه ،وطول حمولته ، تمنح الشاعر فرصة للتحرك في ثنايا المساحة الإيقاعية المقننة للقالب الشعري .

ومن هنا جاء دور المتنبي حول البحر الطويل ، الذي يمنح سعة المسافة ، وإنفساح النغم ، وإمتداد المقطع ، أو كتعبير بعضهم ، أن له " أبهة وجلالة " (٢)لذا يقول د/ علي شلق " راعى المتنبي جوّ الحالة الشعرية ،التي كانت تطيف بكيانه وتطوف في فضاء ذاته ، وأختار لها بوعي قاصد ، وبلا شعور الوزن الذي يلائمها ، واستجابت له القافية المناسبة ، والرويّ المتمم لذلك التناغم بين الحالة والتعبير " (٣)

ونلحظ أن هذا الاختيار يضم " غرض الشكوى " كـأحد الأغراض القوية في شعر المتنبي،فإذا كان بصدده راعت تجربته الشعرية ذلك ، واستجاب له الوزن ولو قرأنا قصيدة " الحمى " لرأينا الانسجام قائماً بين الحالة الشعورية والوزن المناسب أنظر مثلاً – تشكيه – من الحمى ، قائلاً :

أقمتُ بأرض مصر فلا ورائي
تخبُّ بي المطيُّ ، ولا أمامي
وملني الفراشُ ، وكان جنبي
يملُّ لقاءَه في كل عام
قليل عائدي ، سقمٌ فؤادي
كثير حاسدي ، صعبٌ مرامي
عليل الجسم ممتنعُ القيام
شديد السكر من غير المدام
وزائرتي كأن بها حياءً
فليس تزور ، إلا في الظلام

١–م " المتنبي قراءة أخرى " د/ محمد فتوح صـ١٣٩ .

٢–م " المرشد إلى فهم أشعار العرب وصناعتها " د/ عبد الله الطيب صـ٣٩٢ .

٣–م " المتنبي شاعر ألفاظه تتوهج فرساناً فأسر الزمان " د/علي شلق صـ٢٢٧ .

بذلت لها المطارف والحشايا
فعافتها وناميت في عظـــامي
يضيق الصد ر عن نفسي وعنها
فتوسعه ، بأنواع السقـــام
إذا فـــارقـــتـــني غســـلتني
كأنا عاكفان عـــلى حـــرام (١)

فالانسجام والتوازن واضحان في الأبيات السابقة وحيث تلاءمت معاناة الشاعر المرضية مع الوزن الذي جاء به ، وهو بحر " الوافر " ، مما يتميز به من وحدات إيقاعية ينمُّ بمقاطعها وتنوعّها ونبرتها الحزينة عن المخبأ من أحاسيس أليمة ، ومعاناة شديدة .

مقاطع الأبيات السابقة مليئة بحمل مثل قليل عائدي ، سقم فؤادي ، كثير حاسدي ، صعبٌ مرامي ، عليل الجسم ، ممتنع القيام ، شديد السكر ، بذلت لها المطارف ، باتت في عظامي ، يضيق الجلد عنها ، إذا ما فارقتني غسلتني ، كأنا عاكفان على حرام " جـــمل القصـــيدة تراعي الحالة الصحية التي لا تجعله يسترسل في الجمل الطويلة ، ومن هنا تأتي أهمية المقاطع النغمية والمسافة الصوتية ، وكأن الحالة التي هو فيها من " المشاعر تطلبّت بحراً قصيراً يتلائم وسرعة التنفس ، وازدياد ضربات القلب " (٢) ولعله لا يغيب عن الذهن ،ما وجد في هذه القصيدة من " تصريع " آخر ، يتمثل في قول المتنبي :

عليل الجسم ممتنع القيام
شديد السكر، من غير المدام (٣)

وكأن القصيدة كتبت في وقتين متفاوتين .

١– م " ديوان المتنبي " صـــ٢٧٦/٤ .
٢–م " المتنبي قراءة أخرى " د/ محمد فتوح صـــ١٣٥ .
٣–م " ديوان المتنبي " صـــ٢٧٦/٤ .

وتستجيب الحالة الشعورية لحالته النفسية ، في سياقات المتنبي الشعرية ، نظراً لمراعاة المتنبي للجو العام الذي يعيش فيه ، ويفضحه التعبير الداخلي المتمثل في المفردة ، والمعجم الإيقاعي المتمثل في الوزن ، كما في قوله :

كفى بك داءً أن ترى الموت شافيا
وحسبُ المنايا أن يكن أمانيا
تمنيتها لما ، تمنـــيت أن تـــرى
صديقاً فـــأعيا، أوعـــدواً مداجيا

إلى أن يقول :

حببتُك قلبي قبل حبك من نأى
وقـــد كـــان عذراً ، فكن أنت وافيا
وأعلم أن البين يشكيك بعـــده
فلست فؤادي ، إن رأيتـــك شاكـــيا
فإن دموع العين غدرٌ بربِّـــها
إذا كـــان إثـــر الغـــادرين جـــواريا
أقِلَّ اشتياقاً أيُّها القلب ، ربما
رأيتك تصفى الودَّ ، من ليس صافيا (١)

نلمس في هذه الأبيات حجم الرقعة الإيقاعية ، التي استطاعت أن تنقلنا إلى الحالة النفسية التي يعيشها الشاعر، من خلال هذه المحادثة الثنائية بينه وبين نفسه ، وقد جاء الإيقاع مستوعباً للشحنات الداخلية ، " ومشاعر اليأس والجزع تقتدي – عادة – وزناً طويلاً كثير المقاطع " (٢)

ومن ثم يمكن أن نقول إن أبا الطيب حقق لشعره إيقاعاً خاصاً ومتفرداً يتكون من الاشراق المزدوج المؤلف من إيقاع الوزن الشعري ومن أنبل شكل اللغة العادية " (٣) .

ويدخل بعض شعر المتنبي الشاكي ، في المقاطع الممسوقة ، مثل قوله :

فالموت أعذر لي ، والصبر أجمل بي
والبر أوسع ، والدنيا لمن غلبا (٤)

١–م ديوان المتنبي " صـــ٤/ ٤١٧ وما بعدها .

٢–م " المتنبي قراءة أخرى " د/محمد فتوح صـــ١٣٥ .

٣–م " المتنبي في دراسات المستشرقين الفرنسيين " د/حسن الإمراني صـــ٣٠٢ .

٤–م "ديوان المتنبي " صـــ٢٤٩/١ .

ومثل قوله ذلك التوازن الإيقاعي مثل قوله :

وقد أراني الشباب الروح في بدني
وقد أراني المشيب الروح في بدلي (١)

وطالما أن " الإيقاع منطلق رياضي ، موسيقي ، معماري ، غايته الجمالية .. .. اندغام ، وتناغم ، مع السيرورة الكونية ، حيث الوجود كله وحدة نغمية كبرى " (٢) ، سوف يقودنا هذا إلى التعرض للقافية بصفتها شريكه الوزن في الاختصاص بالشعر " (٣)

وتتمثل أهمية القافية على صعيدين هما ، ما تشكله من قيمة زخرفية ، وعلامة جمالية للنواحي الإيقاعية كخاتمة للبيت الشعري،وعلى صعيد آخر أن " للقافية دورها في تأكيد المعنى باعتبارها النهاية البارزة للوزن في البيت"(٤) بحيث يصبح الصوت النغمي متوافقاً مع الألفاظ المبثوثة في بقية البيت لتنهض بغاية متفردة تتوج بإدخال القارئ إلى صميم التجربة الشعرية .

أما من حيث القافية فإن حروف الباء ، والدال ، والميم ، والراء ، واللام أكثر الحروف وروداً في قوافيه ، لما فيها من ملائمة للصخب ، والضجيج ، والشدة ، وذلك من مزاج الشاعر " (٥)

ومن إستخداماته في قافية الدال قوله :

عيدٌ بأية حال ، عدتَ يا عيد
بما مضى أم لأمر فيك تجديد
أما الأحبة فالبيداء دونهم
فليت دونك بيداً و دونـــها بـــيدُ (٦)

ومثل هذه القصيدة بكاملها تضم " الغضب والسكون و الإستسلام والانفجار ، ولهذا جاءت قصيدته تعبيراً عن هذه الحالة،من خلال تشكيلها اللغوي،فحرف " الدال " المضمومة يتكرر ثلاثين مرة،وهو مقطع قصير يتردد في سرعة

١-م "ديوان المتنبي " صـــ٣ / ٢٠٢ .
٢-م " المتنبي شاعر ألفاظه تتوهج فرساناً تأثر الزمان " د/علي شلق صـــ٢٢٣ .
٣-م " العمدة " لابن رشيق ١/ ١٥١ .
٤-م " مفهوم الشعر " د/ جابر عصفور صـــ٤٠٧ .
٥-م " المتنبي شاعراً ألفاظه تتوهج فرساناً تأسر الزمان " د/علي شلق صـــ٢٢٨ .
٦-م "ديوان المتنبي " صـــ٢ /١٣٩ /١٤٠ .

لاهثة ،والدال حرف صامت مجهور سني إنفجاري ، والضمة من الأصوات الأساسية في اللغة العربية . فتأمل جيداً إشعاعات هذا الحرف الصامت المنفجر في نفس الوقت من خلال الضمة التي عليه ، إذ تردد ثلاثين مرة عبر ثلاثين بيتاً هي عدد أبيات القصيدة .

أليس هذا التشكيل اللغوي معادلاً فنياً وجمالياً لحالته المعنوية والفكرية " (١)

كما استخدم المتنبي في شعر الشكوى بعض القوافي النادرة مثل " الهاء حين وجدها تعكس دواخله النفسية ، وحزنه الممض ، في تشكّيه الهجر ، يقول :

أوْهِ بـــدَلٌ من قولتـــي واهـــاً
لمن نأت ، والبديلُ ذكراها
أوْهِ لمن لا أرى محـــاســـنها
وأصـــل واهـــاً وأوْهِ مـــرآها (٢)

فحرف الهاء قافية، إذا كانت قافية فهي تمتاز بأنها " عسرة للغاية وثقيلة للغاية " ، وقد استطاعت بحق أن تعكس بهذه العسرة ، وهذا الحمل الثقيل ، إحساس المتنبي بالوجع والأسى والحزن ، وقد مازج حرف الهاء ، الألف فأعطى للقافية إمتداد حزين ، وكأنه يكرّس لمعطى التأوه والندبة ، المصاحب للوجع والألم ،فساعد خروج القافية بهذا الشكل على خروج الحزن المدفون في شكوى الفراق .

ومن الظواهر الصوتية في شعر الشكوى عند المتنبي ، والذي يرتبط بعلاقة قوية بالأوزان والقوافي ، يظهر لنا " الإعادة "،أو " التكرار " ، وهي إضافة على أنها قيمة إيقاعية قيمة ،تأتي كدلالة من دلائل التشكيل الإيقاعي ،الذي ساهم في تركيز الذهن ، ولفـــت الإنتباه إلى المعـــنى الأول في سياق البيت الشعري ، فيكون التكرار في صورته الداخلية " إلحاح على جهة هامة في العبارة يعني بها الشاعر أكثر من عنايته بسواها "" إن القيم الصوتية لجرس الحروف أو الكلمات عند التكرار لا تفارق القيمة الفكرية والشعورية المعبر عنها ،ومثير هذا التطريب لتكرار الحرف أو الكلمة – غالباً – هو حب إمتلاك الكلام بإيقاعه قلب السامع " (٣)

١–م " عالم المتنبي " د/ عبد العزيز الدسوقي صـــ١١٠ .

٢–م "ديوان المتنبي " صـــ٤ / ٤٠٤ / ٤٠٥ .

٣–م " التكرار بين المثير والتأثير " د/ عز الدين على السيد صـــ٨٥/ ٨٦ .

فالتكرار يسلط الضوء على نقطة حساسة في العبارة ، ويكشف عن إهتمام المتكلم بها ، فالتكرار بهذا المعنى ذو دلالة نفسية قيمة " (١)

وتنبثق هذه الدلالة من جراء إعادة معطى نغمي يهيئه الشاعر في بيته الشعري ، فتنكشف الأهمية من خلال ذلك التكرار ، لذا فهو يرتبط إرتباطاً متيناً بالحالة الداخلية للشاعر ، بما يحمله من فكرة وتسلّط يساعدان على حقيقة الكلمة وبعدها النفسي في ذات الشاعر .

ويتضح ذلك من خلال تكرار المتنبي بحذر كلمة " قلقل " في مختلف دلالته الواردة في البيت يقول :

قلقلت بالهم الذي قلقل الحشا
قلاقل عيسى ، كلُّهن قلاقل (٢)

وإرتباط القلق بالهم والحزن ، أدى قيمة دلالية تزيد من إيضاح دواخل المتنبي وآلامه .

أما في هذه الدنيا كريم
تزول به عن القلب الهموم
أما في هذه الدنيا مكان
يسرُ بأهله الجـــار المقـــيم (٣)

فتكرار " هذه الدنيا " تعطي دلالة بأن المتنبي يلح عن أن الأيام ، لم تعطه ما يستحق من حق ومستحق ، وقد ساعد هذا التكرار على تنوع الألم من الهموم مرة ، ومن الناس مرة أخرى .

ومن الأمثلة أيضاً قوله :

وقد أراني الشباب الروح في بدني
وقد أراني المشيب الروح في بدلي (٤)

ومن الأمثلة قوله أيضاً :

لا خيل عندك تهديها ، ولا مال
فليسعد النطق ، إن لـــم تسعد الحالُ (٥)

١–م " قضايا الشعر المعاصر " لنازك الملائكة صـــ٢٤٢ .
٢–م "ديوان المتنبي " صـــ٢ / ٢٩٣
٣–" المصدر نفسه " صـــ٤ / ٢٨٢ .
٤– نفسه صـــ٣ /٢٠٢ .
٥– نفسه صـــ٤ / ٣٩٤ .

فالخيل جزء من المال ،وكل ذلك داخل في قوله " الحال " ،ولكن التكرار هنا جاء بذكر العام ، وقبله الخاص ، للشكوى من العام ، والتركيز على الخاص .

ومن الأمثلة أيضاً ، قوله :

ماذا الوداع ، وداع الوامق الكمد
هذا الوداع وداع الرّوح للجسد (١)

فتكرار الوداع تعطي قيمة دلالية ، تنبع من نفسية المتنبي المتعبة من الوداع ، حيث انصراف إلى إعادة لفظة " الوداع "، وما تثيره هذه العبارة من دلالة داخلية توّجت بإيقاع موسيقي متسق ، وحالة المتنبي الحزينة ، التي بعثها حرقة الوداع ولهيب الفراق .

ومن مظاهر التكرار ، التي تؤكد ،أن شعر المتنبي " متين الحبكة ، مختار الألفاظ ، قليل الغريب " (٢) استخدامه التكرار على شكل يثير الدهشة ، لما يمنحه هذا التكرار من كثافة في المعجم الإيقاعي ، الذي يختاره المتنبي بأهمية جليلة ،حين يعطي لكل مظاهر الثياب التي تليق به ، فألفاظه مصطفاه ، والمفردة تتناغم والسياق الإيقاعي فتبعث فيها ،وتبعث فيه ما يمنح الشعر العاطفة والإحساس الكافيين لإظهار الحالة النفسية ، ومتى يتضح هذا الحشد النفسي والشعري نضرب مثلاً بقوله :

ضاق ذرعاً بأن أضيق به ذر
" م "
عا زماني ، واستكرمتني الكرام
واقفاً تحت أخمصي قدر نفسي
واقفاً تحت أخمصي الأنام (٣)

فقد كرر الشاعر" ضاق " ، و ذرعاً " ، وتحت ، و" أخمصي " ، و " واقفاً " ، وكأنه يقرع الآذان بالتأكيد ويؤدي رسالته الشعرية ، من خلال عكس الإحباط الملازم له ، وخاصة دلالة كلمتي " ضاق ، ذرعاً " ،لما لهما من إيحاءات تشي بالحسرة والتعب والإحباط .

١–م "ديوان المتنبي " صـ٢/ ١١٦ .

٢–م " المتنبي شاعر ألفاظه تتوهج فرساناً تأسر الزمان د/ علي شلق صـ٢٢٨ .

٣–م "ديوان المتنبي " صـ٤ / ٢١٧ .

من خلال ما سبق ننتهي إلى أن المعجم الإيقاعي بمحتوياته من وزن وقافية وتصريع وتكرار ، أضفى ظلالاً على شعر الشكوى عند المتنبي ،وساهم في إيصال التجربة الشعرية بشكل يلامس المتلقي ،ويجعله يعيش نفس الحالة، وما كان ذلك ليتم لولا قدرة الشاعر على فرجة بين الموقف النفسي والمعطى الشعري ، المتمثل في واحد من أهم عناصره وهو " المعجم الإيقاعي " لذا يكون " الوزن والقافية وموسيقى الشعر ، هي أهم مظاهر التعبير الشعري لأنها تهيء الجو النفسي للألفاظ ، وهي التي تكسب الكلام ظلالاً خاصة لا تتهيأ لكلام المنثور " (١)

١-م " تاريخ النقد العربي إلى القرن الرابع " د/محمد زغلول سلام صـــ٤١ .

أهم النتائج

إن العمل الأدبي صورة صادقة لحالة مبدعه فرحاً وترحاً ، حباً وكرهاً ، لما يحمله من شحنات نفسية ، وحمولات دلالية ، تعطي الصورة الواضحة لخفايا حالت الإنسان الشعورية ، التي يحاول أحياناً سترها بصور أخرى ، لا تزيدها الأيام إلا زوالا !!

لذا كانت دراسة الشكوى عند المتنبي من الأمور ، التي شغلت ذهني منذ زمن ، والسبب يرجع إلى ما تنادى به المتذوقون لشعر المتنبي من أن الرجل مثالاً للفخر ، والقوة والشجاعة ، حين لم يستقر في أذهانهم إلا قوله :

الخيل والليل والبيداء تعرفني
والسيف والرمح والقرطاس والقلم

وأخذ هذا (التنادي) يستقر في الأذهان ، وينتشر بين طلاب الأدب ، فضلاً عن المتخصصين فيه .

غير أن الدارس لشعر المتنبي يقف على إتجاهات كثيرة ، تصب في ميدان الشكوى !! وهنا نعرف مقدار الخلل الذي وقع فيه متذوقو شعر المتنبي والشكوى في الشعر العربي غرض قائم بذاته ، وفن مهم من فنون الشعر العربي قديماً وحديثاً ، لأنه يرتبط بالنفس البشرية ، يعكس انكساراتها وانحناءاتها على مر العصور ، وزيادة على ذلك هو " هم " إنساني مستقر في داخل كل مستخلف في الأرض .

لذا لم يكن هذا الفن الأصيل ، والهم الثقيل غريباً على شاعر بحجم إحساس

المتنبي ، وشعوره وشفافيته .

لعل هذه الدراسة وقفت على جوانب مخفية وزوايا منزوية ، في حياة المتنبي حين نعتبر أن الشكوى أوضح صورة لحياة الإنسان بما يكتنفها من مكابدة ومصارعة .

وقد خرج البحث بمجموعة نتائج ، لعل من أبرزها .

* بروز الشكوى بشكل جلي ، يلمسه كل من يقرأ ديوان المتنبي وقد أدرك المتنبي ذلك حتى أنه تمنى على نفسه أن ينجز قصيدة خالية من هذا (الغرض) حين صرخ :

ألا ليت شعري ، هل أقول قصيدة
فلا أشتكي فيها ، ولا أتعتبُ !!؟

*أن الشاعر يكشف في شعره عن شخصية يملؤها الاعتزاز بالذات وهذا ما توحي به قصائد المتنبي ، ولكن الشكوى و ما تعبر عنه من شعور بالضعف والإنكسار تتناقض مع ذلك ، وهذه إحدى مفارقات البحث التي تدعو للتوقف أمامها !!

*إن الشكوى لم تكن موضوعاً مستقلاً ، بحيث تأتي من خلال قصيدة كاملة ، ولكن إذ تجاوزنا قصيدة أو قصيدتين فإن الشكوى منتشرة هنا وهناك بشكل يشي بسيطرتها على عطاءات الشاعر ، وتوغلها في نفسه ، مما يؤكد تفاعل الشكوى مع كل أغراض الشعر عند المتنبي .

* تفاعل المتنبي مع قصائد العصر ، وأحوال الزمان ، فكان في شكواه ملحاحاً على إبراز الهم العام ، والهم الخاص ، من خلال حالات الشكوى التي رصدها

البحث .

*ومن خلال مطالع القصائد التي كتبها المتنبي ، أخذت الشكوى والصراخ حيزاً كبيراً من مطالع القصائد ، وقد رصد البحث كثيراً من هذه المطالع !!

*التداخل الكبير بين الشكوى والرفض للواقع ، على أن الشكوى تكون في أحد مظاهرها ، سياقاً خفياً للرفض والذم والهجاء !!

*إلحاح المتنبي على ذم الزمان ، والوقت كناية عن التذمر من الحال والناس والواقع المحيط ، لأنه يعرف أن الزمان مجرد إناء للحياة وأن الزمان ليس له علاقة بتصرفات أهل الزمان .

*استغل المتنبي الشعر لتمرير أمانيه ، وعكس فيه تطلعاته ، وحمّله صراخه ، وجعله سفيراً له في الندب عن فقره وسوء معيشته .

*ظهور الشكوى والبكاء عند المتنبي ، لحد أنها استغرقت مساحات هائلة من شعره ، ومع ذلك لم يلتفت إليها أحد من الباحثين ولم يعرفوا عن المتنبي إلا التطاول والفخر والشجاعة ، والاعتزاز بالذات .

*رغم أنه كان شاكياً باكياً ، متسولاً ، منكسراً ، وحتى تكون هذه النظرية حقيقة علمية ، قام البحث بإحصاء ألفاظ الخضوع والشكوى والبكاء والحزن وما يؤدي إليها من ألفاظ ، وما يساويها في المعنى ،فتجاوزت هذه الألفاظ ألفين وخمسمائة لفظة ، وعلى إعتبار أن مجموع أشعار المتنبي نحو خمسة آلاف بيتاً يظهر أن نصف أشعار الرجل ، تدخل في الشكوى ، والجدول التالي يبين هذه الكلمات

وعددها في الجدول التالي:

الكلمة	العدد	الكلمة	العدد	الكلمة	العدد	الكلمة	العدد
الموت	٢٧٩	الضياع	٢٨	الثقل	١٤	الحنين	٧
العداوة	١٤٧	الهجر	٢٨	العزاء	١٤	الأرق	٦
الخوف	١٠٧	اللؤم	٢٨	الصروف	١٤	الوحشة	٦
الفراق	٩٠	الضعف	٢٥	الغم	١٤	الندم	٦
الطعن	٧٨	الوداع	٢٥	البين	١٣	الكآبة	٦
الحسد	٦٧	الذنب	٢٥	الحرمان	١٣	السفر	٥
الدمع	٦٦	الشدة	٢٤	السجن	١٣	النكبة	٥
البكاء	٥٩	الهم	٢٤	الألم	١٣	السهر	٥
البعد	٥٥	الوحدة	٢٣	الملل	١٣	الحسرة	٥
الحيل	٥٠	الظلام	٢٢	الصعب	١٢	الغربة	٥
المرض	٥٠	الحيرة	٢١	الأسى	١١	الخبث	٥
العذل	٥٠	الضر	٢١	الشقاء	١١	السخط	٥
اللوم	٤٦	السهاد	٢٠	الخيبة	١١	الخذلان	٥
الشكوى	٤٦	النحول	٢٠	القلق	١١	القسوة	٤
الذل	٤٢	العتاب	١٩	البغض	١٠	الطغيان	٤
الذم	٤١	الجرح	١٨	الكيد	١٠	النكد	٤
المصائب	٣٩	الصبابة	١٨	الصد	١٠	الجوع	٤
الصبر	٣٩	الغدر	١٨	الظمأ	١٠	الأسف	٤
الضيق	٣٩	الداء	١٧	الكرب	١٠	المشقة	٣
البخل	٣٧	النوى	١٧	الخيانة	١٠	السفاهة	٣
السقم	٣٣	التعب	١٦	الخطوب	٩	البطش	٢
الرجاء	٣٢	الأذى	١٦	العذاب	٩	الشحوب	١
الظلم	٣١	الغضب	١٦	النوائب	٨	العطب	١
البلاء	٣١	الأرزاء	١٥	الوشاة	٨	الضجر	١
العجز	٣١	الفقر	١٥	القيد	٧	السأم	١
الحزن	٣٠	الردى	١٥	الجحود	٧		

مجموع الكلمات	١٠٣
مجموع الأعداد	٢٥٢٦

الخاتمة

إن العمل الأدبي بشطريه الشعري والنثري ، هو محاولة للوصول إلى إضاءات تنير الطريق أمام الباحث ، وقد حاولت فيما مضى أن أعترض لحياة واحد من أبرز الأسماء الشعرية في أدبنا العربي ، وهو الشاعر أبو الطيب المتنبي .

وقد حرصت أن ألامس جانباً مختفياً من جوانب هذه الشخصية الكبيرة ، فما كان إلا أن وفقني الله إلى موضوع (شعر الشكوى عند المتنبي) .

وقد جاء البحث مكون من ثلاثة فصول تسبقهم مقدمة وتمهيد .

وقد ضم التمهيد ، الشكوى بمفهوميها اللغوي والاصطلاحي ، وتنامي الشكوى من خلال الزمان ، وقد أشار إلى ذلك تتبع البحث بلمحة عجلى إلى الشكوى في العصر الجاهلي ، والعصر الأموي والعصر العباسي ، ثم تناول البحث بشكل أكثر تفصيلاً الشكوى في القرن الرابع الهجري (عصر المتنبي) .

ثم تناول التمهيد في طرفه الأخير حياة الشاعر ،اسماً ،ومولداً ،وحياة ،وشخصية وفقراً ، وثقافة حتى وفاته، وتبدو أهمية هذه الإلمامة لما لها من صلة قوية ورابطة متينة بشعر الشكوى .

ودخل البحث في رصد حالات الشكوى مستفتحاً بحالات الشكوى العامة ، فتناول شكوى الزمان والفقر والناس والشعراء والأصدقاء،من خلال فصل البحث الأول.

وجاء الفصل الثاني ، راصداً لحالات الشكوى الخاصة من خلال الشكوى من الموت والمرض والليل ، والهجر والشيب والغربة والسجن ، وانتهى بما يُوحي

بالشكوى من خلال أبيات ومقطوعات تناثرت في أرجاء الديوان .

وجاء الفصل الثالث كدراسة تطبيقية لما تمّ جمعه في البحث من خلال فصوله السابقة ، فتناول الشكوى وبناء القصيدة ، عبر بوابة اللغة الشعرية حيث جاء لغة الشكوى لغة في مجملها يسيرة سهلة لتأثر الشاعر بعمق الشكوى ، وجاءت دراسة التراكيب والأسلوب والمعجم شاهداً على هذا الاتجاه .

أما الشق الثاني من الفصل الثالث فامتد ليصل الصورة الفنية ، التي اصطبغت بلون الحزن ، وتدثرت بلباس الألم ، كما كانت الإيقاعات الشعرية متنوعة وثرة بثراء الشكوى واتجاهاتها .

أما الوحدة الموضوعية فلم تكن بارزة بروز الوحدة النفسية حيث لم تنفرد الشكوى بقصائد خاصة بها بل جاءت متوغلة في أغلب قصائد الديوان .

وقد اعتمد البحث في رصده لقصائد الشاعر على شرح البرقوقي ، نظراً لما يتمتع به هذا الديوان من شمول لقصائد المتنبي ومن ضبط كامل الشعر، وقد ذكر البحث ، الأبيات التي لم يتعرض لها البرقوقي استيفاءً للحقيقة واشتمالاً للعلم .

وفي النهاية ، ليس من حق الإنسان أن يدعي ما ليس له ، فأنا في هذا البحث أقدم جهداً متواضعاً ، حين أضع هذا الجهد كإضافة بسيطة في طريق ثقافتنا الأدبية ، إضافة تنتظر من يكملها ، وليصل بها إلى المكان الأفضل .

كما لا يفوتني أن أتوجه بالدعاء إلى أولئك الذين أناروا طريقي من خلال كتبهم وبحوثهم سواء كانوا أحياءً أو أمواتاً ، جزاهم الله عني خير الجزاء ...

.... والله ولي التوفيق

"المصادر و المـــراجـــع "

" المصادر والمـــراجـــع "

- **القرآن الكريم .**

- أبو الطيب المتنبي ــ حياته وخلقه وشعره ــ محمد كمال حلمي، مطبعة الشباب، القاهرة ١٩٢١م.

- أبو الطيب المتنبي ــ نشيد الصحراء لخالد، محمد يوسف فران ــ الطبعة الأولـــى، دار الكتب العلمية ــ بيروت، ١٤١١هـــ.

- أبو الطيب المتنبي وظواهر التمرد في شعره، زهير غازي زاهد، دار عالم الكتـــب، الطبعة الأولى، ١٤٠٦هـــ بيروت.

- أبو الطيب المتنبي في مصر والعراقين، مصطفى الشكعة، دار عالم الكتب، بـيروت، الطبعة الأولى، ١٤٠٣هـــ.

- اتجاهات الشعر العربي في القرن الرابع الهجري، نبيـــل أو حـــاتم، دار الثقافـــة ــ الدوحة، ١٩٨٥م.

- اتجاهات الشعر في القرن الثاني الهجري، مصطفى هدارة، دار المعارف، القـــاهرة، ١٩٦٣م.

- اتجاهات الهجاء في القرن الثالث الهجري، قحطان رشيد التميمي، دار المســـيرة ــ بيروت (بدون تاريخ).

- الاختيارين، الأخفش الأصغر، تحقيق فخر الدين قبادة، مؤسسة الرسالة ١٤٠٤هـــ.

- الأدب في ظل بني بوية، محمود الزهيري، مطبعة الأمانة، القاهرة، ١٣٦٨هـــ.

- الأسس الجمالية في النقد العربي، عز الدين إسماعيل، الطبعة الثالثة، دار الشئون الثقافية العامة، ١٩٨٦م.
- الأسس النفسية للإبداع الفني في الشعر خاصة، مصطفى سويف، الطبعة الثالثة، دار المعارف، القاهرة، ١٩٧٠م.
- الإسلام والشعر، سامي مكي العاني، المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب، مطابع الرسالة، الكويت، ١٩٨٣م.
- الأسلوبية التعبيرية عند شارل بالي، محي الدين محسب، الطبعة الأولى، نادي القصيم الأدبي، بريدة، ١٤١٨هـ.
- أصول النقد الأدبي، أحمد الشايب، الطبعة الثامنة، مكتبة النهضة المصرية، القاهرة، ١٩٧٣م.
- الأعلام، خير الزركلي، الطبعة الثالثة (بدون تاريخ).
- الأغاني، أبو فراج الأصبهاني (ت ٣٥٦هـ) تحقيق إبراهيم البياري، دار الكتب المصرية، القاهرة، ١٣٨٩هـ.
- الاغتراب في حياة وشعر الشريف الرضي، عزيز السيد جاسم، دار الشئون الثقافية ـ بغداد، ١٤٠٧هـ.
- البحث الأسلوبي معاصرة وتراث، رجاء عيد، دار المعارف، الإسكندرية، ١٩٩٣م.

- بهجة المجالس وأنس المجالس وشحذ الذهن والهاجس، أبو عمر يوسف بن عبد الله بن محمد بن عبد البر النمري القرطبي (ت ٤٦٣) تحقيق مرسي الخولي، دار الكتب العلمية ــ بيروت، (بدون تاريخ).
- تاريخ الأدب العربي، شوقي ضيف، الطبعة الخامسة، دار المعارف ــ القاهرة، ١٩٧٣م.
- تاريخ الأدب العربي، عمر فروخ، الطبعة الأولى، دار العلم للملايين ــ بيروت، ١٩٦٨م.
- تاريخ الأدب العربي، كارل بروكلمان، نقله إلى العربية عبد الحليم النجار، الطبعة الخامسة، دار المعارف ــ القاهرة، ١٩٨٣م.
- تاريخ الشعر العربي من دخول بني بوية بغداد إلى نهاية العصر العباسي، محمد عبد العزيز الكفراوي، الطبعة الأولى، دار نهضة مصر ــ القاهرة ١٩٦٧م.
- تاريخ النقد العربي إلى القرن الرابع الهجري، محمد زغلول سلام، دار المعارف ــ القاهرة ، (بدون تاريخ).
- تاريخ بغداد، أبو بكر البغدادي (ت ٤٦٣)، دار الكتاب العربي ــ بيروت، (بدون تاريخ).
- التبيان في شرح الديوان، أبو البقاء العكبري، تصحيح مصطفى السقا، دار المعرفة ــ بيروت، ١٩٧٨م.

- تشريح النص، عبد الله الغذامي، الطبعة الأولـــى، دار الطليعـــة ــ بـــيروت، ١٩٨٧م.
- التفسير النفسي لـــلأدب، عـــز الديـــن إســـماعيل، دار العـــودة ــ بـــيروت، (بدون تاريخ).
- التكرار بين المثير والتأثير، عز الدين السيد، الطبعـــة الأولـــى، دار الطباعـــة المحمدية ــ القاهرة، ١٣٩٨هـــ.
- توضيح الصرف، عبد العزيز فاخر، مطبعة حسان ــ القاهرة، ١٩٨٥ن.
- الجانب الخلقي في الشعر الجاهلي، زهدي صبري الخواجا، الطبعة الأولى، دار الناصر ــ الرياض، ١٩٨٤م.
- حركية الإبداع، خالدة سعيد، الطبعة الأولى، دار العودة ــ بيروت، ١٩٧٩م.
- حصاد السجن، أحمد الصافي النجفي، مكتبة المعارف ــ بيروت، ١٩٨٣م.
- حصاد الهشيم، إبراهيم عبد القادر المازني، الطبعة الخامسة، المطبعة العصرية ــ القاهرة، ١٩٥٧م.
- الحضارة الإسلامية في القرن الرابع الهجري، آدم متز، نقله إلى العربية محمـــد عبد الهادي أبو ريدة، الطبعة الرابعة، دار الكتـــاب العربـــي ــ بيروت، ١٩٦٧م.
- الحماسة الشجرية، هبة الله إبن الشـــجري (ت ٥٤٢)، تحقيـــق عبـــد المعيـــن الملوحي، اسماء الحمصي، منشورات وزارة الثقافة ــ دمشـــق، ١٩٧٠م.

- حول الأديب والواقع، عبد المحسن طه بدر، الطبعة الثانيـــة، دار المعـــارف ـــ القاهرة، (بدون تاريخ).
- حياة الشعر في الكوفة إلى نهاية القرن الثاني للـــهجرة، يوســـف خليـــف، دار الكتاب العربي ـــ القاهرة، ١٩٦٨م.
- خلاصة المتنبي، عبد المجيد دياب، الطبعة الأولـــى، دار ســـعاد الصبـــاح ـــ الكويت، ١٩٩٢م.
- دراسات في علم الجمال، عدنان رشيد، الطبعة الأولى، دار النهضة الغربيـة ـــ بيروت، ١٩٨٥م.
- دراسات في النص الشعري ـــ العصر العباسي ـــ، عبده بدوي، الطبعة الثانية، دار الرفاعي ـــ الرياض، ١٩٨٤م.
- دلائل الإعجاز، عبد القاهر الجرجاني، تعليق محمود شاكر، الطبعة الثالثة، دار المدني ـــ جدة، ١٩٩٢م.
- ديوان امرئ القيس، تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم، دار المعارف ـــ القاهرة، ١٩٥٨م.
- ديوان جميل بثينة، شرح وتقديم مهدي محمد ناصر الدين، الطبعة الأولـــى، دار الكتب العلمية ـــ بيروت، ١٩٨٧م.
- ديوان دعبل الخزاعي، جمع وتحقيق محمد يوسف نجم، دار الثقافة ـــ بيروت، ١٩٨١م.

- ديوان السرى الرفاء، تحقيق حبيب حسين الحســـني، دار الرشـيد ــ بغـداد ١٩٨١م.
- ديوان الشريف الرضي، تحقيق إحسان عباس، دار صادر ــ بيروت، ١٩٦١م.
- ديوان الصوري، تحقيق مكي السيد جاسم وشاكر هادي شكر، دار الرشـــيد ــ بغداد، ١٩٨٠م.
- ديوان طرفة بن العبد، تحقيق سيف الدين الكاتب، دار مكتبة الحياة ــ بـيروت، (بدون تاريخ).
- ديوان عنترة بن شداد، تحقيق بدرالدين حاضري ومحمـــد حمـــامي، الطبعـــة الأولى، دار الشرق العربي ــ بيروت، ١٩٩٢م.
- ديوان المتنبي، شرح عبد الرحمن البرقوقي، دار الكتاب العربي ــ بـــيروت، ١٩٨٦م.
- ذكرى أبو الطيب المتنبي بعد ألف عام، عبد الوهاب عزام،الطبعة الثانيـــة، دار المعارف ــ القاهرة، ١٩٥٦م.
- رثاء النفس في الشعر العربي، عبد الله أحمد باقازي، المكتبة الفيصلية ــ مكـة المكرمة، ١٩٨٧م.
- رحلة الشعر من الأموية إلى العباسية، مصطفى الشكعة، دار عالم الكتـــب ــ بيروت، ١٩٧٩م.
- الزمن عند الشعراء قبل الإسلام، عبد الإله الصائغ، وزارة الثقافة والإعـــلام، مطابع دار الشئون الثقافية العامة، ١٩٨٦م.

- سأخون وطني، محمد الماغوط، الطبعة الأولى، دار رياض الريس ــ بيروت، ١٩٨٧م.
- شذا العرف في فن الصرف، أحمد الحملاوي، الطبعة الثامنة عشرة ــ القاهرة، ١٩٧١م.
- شرح ابن عقيل، بهاء الدين عبد الله بن عقيل، (ت ٧٦٩هـ)، تحقيق محمد محي الدين عبد الحميد، الطبعة السادسة عشرة، دار الفكر ــ بيروت، (بدون تاريخ).
- شعراء من العصر العباسي الثاني بين الظل والتأثر، عبد الله أحمد باقازي، مطابع الصفا ــ مكة المكرمة، ١٩٨٨م.
- شعراء وإنشاد الشعر، علي الجندي، دار المعارف ــ القاهرة، ١٩٦٩م.
- شعر أبي فراس الحمداني، ماجدولين بسيسو، الطبعة الأولى، مكتبة أسفار ــ الرياض، ١٩٨٨م.
- الشعر الجاهلي منهج في دراسته وتقويمه، محمد النويهي، دار القومية ــ القاهرة، (بدون تاريخ).
- شعر الراعي النميري، تحقيق نوري حمودي القيسي وهلال ناجي، مطبعة المجمع العلمي العراقي، ١٩٨٠م.
- لشعر العربي في العراق وبلاد العجم في العصر السلجوقي، علي جواد الطاهر، مطبعة العاني ــ بغداد، ١٩٦١م.

- شعر الوزير المهلبي، جابر عبد الحميد الخاقاني، مجلة المورد، المجلد الثالث ــ بغداد، ١٩٧٤م.
- الشكوى في الشعر الجاهلي، قحطان رشيد التميمي، مجلة كلية الآداب، العدد ١٣، ــ بغداد، ١٩٧٠م.
- الشكوى من العلة في أدب الأندلسيين، عبد الله بن ثقفان، الطبعة الأولى، مكتبة التوبة ــ الرياض، ١٩٩٦م.
- صورة في الشعر العربي، علي البطل، الطبعة الأولى، دار الأندلس للطباعة والنشر، ١٩٨١م.
- الصورة الفنية في التراث النقدي والبلاغي عند العرب، جابر عصفور، الطبعة الثالثة، المركز الثقافي العربي ــ بيروت، ١٩٩٢م.
- الصورة الشعرية، سي دي لويس، ترجمة أحمد نصيف الجنابي، دار الرشيد ــ بغداد، ١٩٨٢م.
- الصناعتين، أبو هلال العسكري، تحقيق مفيد قميحة، الطبعة الأولى، دار الكتب العلمية ــ بيروت، ١٩٨١م.
- علم اللغة العام ــ الأصوات ــ، كمال محمد بشر، دار المعارف ــ القاهرة، ١٩٨٦م.
- العمدة في محاسن الشعر وآدابه ونقده، أبو علي الحسن بن رشيق القيرواني (ت ٤٥٦)، تحقيق محمد محي الدين عبد الحميد، الطبعة الربعة، دار الجيل ــ بيروت، ١٩٧٢م.

- عنصر اللون في شعر المتنبي، عبد الله أحمد باقازي، الطبعة الأولى، نادي القصيم الأدبي ــ بريدة، ١٩٩٣م.
- فن الشعر، أرسطو، ترجمة وتحقيق عبد الرحمن بدوي، الطبعة الثانية، دار الثقافة ــ بيروت، ١٩٧٣م.
- الفن ومذاهبه في الشعر العربي، شوقي ضيف، الطبعة الثانية، لجنة التأليف والترجمة والنشر، ١٩٤٥م.
- في عالم المتنبي، عبد العزيز الدسوقي، الطبعة الأولى، دار الشروق ــ بيروت، ١٩٨٤م.
- قراءات مع الشابي والمتنبي والجاحظ وابن خلدون، عبد السلام المسدي، الطبعة الرابعة، دار سعاد الصباح ــ الكويت، ١٩٩٣م.
- قصة المتنبي، أحمد الجندي، دار طلاس ــ دمشق (بدون تاريخ).
- قصيدة المديح عند المتنبي وتطورها الفني، أيمن محمد زكي العشماوي، الطبعة الأولى، دار النهضة العربية ــ بيروت، ١٩٨٣م.
- قضايا الشعر المعاصر، نازك الملائكة، الطبعة الثانية، مكتبة النهضة ــ بغداد، ١٩٦٥م.
- اللزوميات، أبو العلاء المعري، تحقيق أمين عبد العزيز الخانجي، مكتبة الخانجي ــ القاهرة، ١٣٤٢هـ.
- لسان العرب، ابن منظور، الطبعة الأولى، دار صادر ــ بيروت، ١٩٩٠م.

- لغة الحب في شعر المتنبي، عبدالفتاح صالح نافع، الطبعة الأولى، دار الفكر ــ عمان، ١٩٨٣م.
- المتنبي، خليل شرف الدين، دار هلال ــ بيروت، ١٩٨٧م.
- المتنبي بين ناقديه في القديم والحديث، عبد الرحمن شعيب، دار المعارف ــ القاهرة، ١٩٦٤م.
- المتنبي دراسة عامة، جورج غريب، دار الثقافة ــ بيروت، ١٩٦٧م.
- المتنبي رسالة في الطريق إلى ثقافتنا، محمود شاكر، دار المدني ــ جدة، ١٩٨٧م.
- المتنبي شاعر ألفاظه تتوهج فرساناً تأسر الزمان، علي شلق، الطبعة الأولى، المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر ــ بيروت، ١٩٨٢م.
- المتنبي في دراسات المستشرقين الفرنسيين، حسن الإمراني، الطبعة الأولى، مؤسسة الرسالة ــ بيروت، ١٩٩٤م.
- المتنبي قراءة أخرى، محمد فتوح أحمد، الطبعة الثانية، دار المعارف ــ القاهرة، ١٩٨٨م.
- المتنبي مالئ الدنيا وشاغل الناس، محمد التونجي، الطبعة الثانية، دار عالم الكتب، ١٩٩٢م.
- المجتمع العراقي في شعر القرن الرابع الهجري، عبد اللطيف الراوي، مكتبة النهضة ــ بغداد (بدون تاريخ).

- محاضرات الأدباء ومحاورات الشعراء والبلغاء، أبو القاسم حسين محمد الراغب الأصبهاني، مكتبة الحياة ــ بيروت، (بدون تاريخ).
- المحصول الفكري للمتنبي، سهيل عثمان ومنير كنعان، الطبعة الأولى، دار الإرشاد ــ بيروت، ١٩٦٩م.
- مداخل فكرية ونفسية إلى المتنبي، عبد الله التطاوين مكتبة الأنجلو المصرية ــ القاهرة، ١٩٩١م.
- مدخل إلى علم الأسلوب، شكري عياد، الطبعة الأولى، دار العلوم ــ الرياض، ١٩٨٢م.
- المرشد لفهم شعار العرب وصناعتها، عبد الله الطيب، الطبعة الثانية، دار الفكر ــ بيروت، ١٩٧٠م.
- المعجم الأدبي، جبور عبد النور، الطبعة الأولى دار العلم للملايين ــ بيروت، ١٩٧٩م.
- المعجم الفلسفي، جميل صليبا، دار الكتاب اللبناني ــ بيروت، ١٩٨٢م.
- مع المتنبي، طه حسين، الطبعة الثانية عشرة، در المعارف ــ القاهرة، ١٩٨٠م.
- مفهوم الشعر، جابر عصفور، المركز العربي للثقافة والعلوم، ١٩٨٢م.
- مقالات نقدية، محمود الربيعي، مكتبة الشباب ــ القاهرة، (بدون تاريخ).
- مقدمة ابن خلدون، عبد الرحمن بن محمد بن خلدون، تحقيق درويش الجويدي، الطبعة الأولى، المكتبة العصرية ــ بيروت، ١٩٩٥م.

- من أساليب اللغة العربية، إبراهيم دردير، الطبعة الأولى، دار البلاد ــ جدة، ١٩٨٣م.
- منهاج البلغاء وسراج الأدباء، أبي الحسن حازم القرطاجني، (ت٦٨٤)، تحقيق محمد الحبيب بن الخوجة، الطبعة الأولى، دار الكتب الشرقية ــ تونس، ١٩٦٦م.
- موازنة بين الحكمة في شعر المتنبي والحكمة في شعر أبي العلاء المعري، زهدي صبري الخواجا، الطبعة الأولى، دار الأصالة ــ الرياض، ١٩٨٢م.
- موجز ديوان المتنبي، شرح اليازجي، اختصره سليمان العيسى، دار طلاس ــ دمشق، (بدون تاريخ).
- موسيقى الشعر، إبراهيم أنيس، الطبعة الرابعة، دار القلم ــ بيروت، (بدون تاريخ).
- النثر الفني في القرن الرابع، زكي مبارك، دار الجيل ــ بيروت، ١٩٧٥م.
- النقد الأدبي أصوله ومناهجه، سيد قطب، دار الفكر العربي، (بدون تاريخ)
- النقد الأدبي الحديث، محمد غنيمي هلال، دار نهضة مصر ــ القاهرة، ١٩٧٩م.
- نظرية الأدب ومناهج الدراسات الأدبية،عبد المنعم إسماعيل، الطبعة الأولى، مكتبة الفلاح ــ الكويت، ١٤٠١هـ.

- نهاية الأرب في فنون الأدب، شهاب الدين النويـــــري (ت٧٣٣)، دار الكتـــب المصرية ـــ القاهرة، (بدون تاريخ).
- وحدة القصيدة في الشعر العربي، حياة جاسم، دار الحرية ـــ بغداد، ١٩٧٢م.
- الوساطة بين المتنبي وخصومه، القاضي الجرجاني، تحقيق هاشم الشاذلي، دار إحياء الكتب العربية، ١٩٨٥م.
- وفيات الأعيان، أبو العباس ابن خلكان، (ت٦٨١)، تحقيق إحسان عبـــاس، دار الثقافة ـــ بيروت، (بدون تاريخ).
- يتيمة الدهر في محاسن أهل العصر، أبو منصور الثعالبي (ت ٤٢٩)، تحقيـــق مفيد قميحة، الطبعة الثانية، دار الكتـــب العلميـــة ـــ بـــيروت، ١٩٨٣م.

الفهـــرس

الموضوع	الصفحة
المقدمة	أ
التمهيد	١
أ- الشكوى في الشعر العربي	
١-مفهوم الشكوى	٤
٢-الشكوى قبل القرن الرابع الهجري	٧
١-العصر الجاهلي	٧
٢-العصر الأموي	١٠
٣-العصر العباسي	١٥
ب-الشكوى قبل القرن الرابع (عصر المتنبي)	
د-المتنبي شاعراً	
أولاً : اسمه ومولده	١٨
ثانياً : شخصيته	١٩
ثالثاً : فقره	٢٣
رابعاً : ثقافته	٢٦
خامساً: شاعريته	٣٠
سادساً : وفاته	٣٣

الفصل الأول
حالات الشكوى العامة

١-شكوى الزمان	٤٠
٢-شكوى الفقر وقلة ذات اليد	٤٧
٣-الشكوى من الناس	٥٢
٤-الشكوى من الشعراء	٥٦
٥- الشكوى من الأصدقاء	٦٠

الموضوع	الصفحة

الفصل الثاني
حالات الشكوى الخاصة

١- الشكوى من الموت ٦٥
٢- الشكوى من المرض ٦٩
٣- الشكوى من الليل ٧٤
٤- الشكوى من الهجر..... ٧٩
٥- الشكوى من الشيب والكبر ٨٤
٦-الشكوى من المكان والغربة ٨٩
٧- شكوى السجن..... ٩٥
٨- ما يوحي بالشكوى..... ١٠٠

الفصل الثالث
الخصائص الفنية لشعر الشكوى

١-اللغة الشعرية ١٠٦
أ-المعجم ١١١
ب-التراكيب ١١٨
ج-الأسلوب ١٢٧
٢-الصورة الفنية ١٣٥
٣-الوحدة الموضوعية..... ١٤٣
٤-المعجم الإيقاعي ١٥٠

أهم النتائج ١٦١

الخاتمة ١٦٥

المصادر والمراجع ١٦٧

الفهرس ١٨٠